دراسات حول المدينة المنوّرة

(٣)

المدينة في العصر الجاهلي

الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة والدّينية

الدكتور محمّد العيد الخطراوي

مؤسّسة علوم القرآن
دمشق - ص.ب ٤٦٢٠
بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

بسم الله الرحمن الرحيم



الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

هـذا الكتاب

هذا هو الكتـاب الثـالث في سلسلـة (دراسـات حول المـدينـة المنورة) التي آليت على نفسي مواصلـة العمل فيهـا ، وطـالبت من لقيت من البـاحثين داخـل المدينة وخارجها أن يشاركوني في الوفاء بموضوعاتهـا ، فـإن الـدراسـات التي يمكن أن تقوم حـول المـدينـة المنـورة كثيرة ومتعـددة ، ولا يمكن أن ينهض بـاعبـائهـا شخص واحد ، مهما اتسع وقته وتنوعت معارفه .

وما زلت آمل أن يصلني من أولئك وهؤلاء ما يؤكد وعودهم ويسـد ثغرة في هذه السلسلة إن شاء الله .

ويمثل هذا الكتاب في حقيقته الباب الأول من رسـالتي التي تقـدمت بهـا إلى الجامعة الأزهرية ـ كلية اللغة العربية ـ لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب والنقد ، (١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م) والتي حصلتُ عليها بحمد الله مع مرتبـة الشرف الأولى ، كما أوصت لجنة المناقشة أيضاً بطبعها .

وقد كان عنوان الرسالة (الحياة الأدبية والثقافية بالمدينة المنورة في الجاهلية وصدر الإسلام) ، وهو عنوان طويل ، أحتاج في تناول موضوعاتـه إلى صفحـات كثيرات طوال ، زادت عن ألف صفحة من القطع الكبير ، وهو أمر يؤكد صعوبة إخراج هذه الرسـالـة في مجلـد واحـد ، لـذا آثرت إدراجهـا ضمن هـذه السلسلـة ، مجزأة ، مع عدم المساس بصورتها الأساسية إلاّ في بعض الحالات الضرورية جـدّاً ،

حتى لا تؤثر عليها هذه التجزئة ، ولا تَذهب بوحدتها ورونقها ، فما على الذي يريد قراءتها كاملة إلا أن يجمع بين أجزائها المتتابعة في هذه السلسلة ، وبهذا نكون قد حققنا الغرضين وجمعنا بين الهدفين .

وأسأل الله أن يوفقني لمواصلة الجهد في إصدار أجزاء هذه السلسلة ، وأن يمدني بالعون والحول ، فلا حول ولا قوة إلا به ولا عون إلا من عنده .

الدكتور : محمد العيد الخطراوي

المدينة المنورة

حرر في يوم الخميس : ١٧ رمضان ١٤٠٢ هـ

٨ يوليو ١٩٨٢ م

الإهداء

إلى والـدي : فرج بن محمـد الخطراوي . . الـذي علَمني وأدبني ، وغمرني بحبـه وعطفه . . وأورثني حبه للمدينة المنورة ، بلد الهـادي البشير صلوات الله وسلامـه عليه .

كان كل أملِك يا والدي ، أن تحيي وتموت فيها ، وقد كان لـك ـ والحمـد لله ـ ما أردت وتمنيت . وكانت وصيتك لنا : ألا نغادرها إلا لنعود إليهـا ، وأن نحرص على الموت فيها .

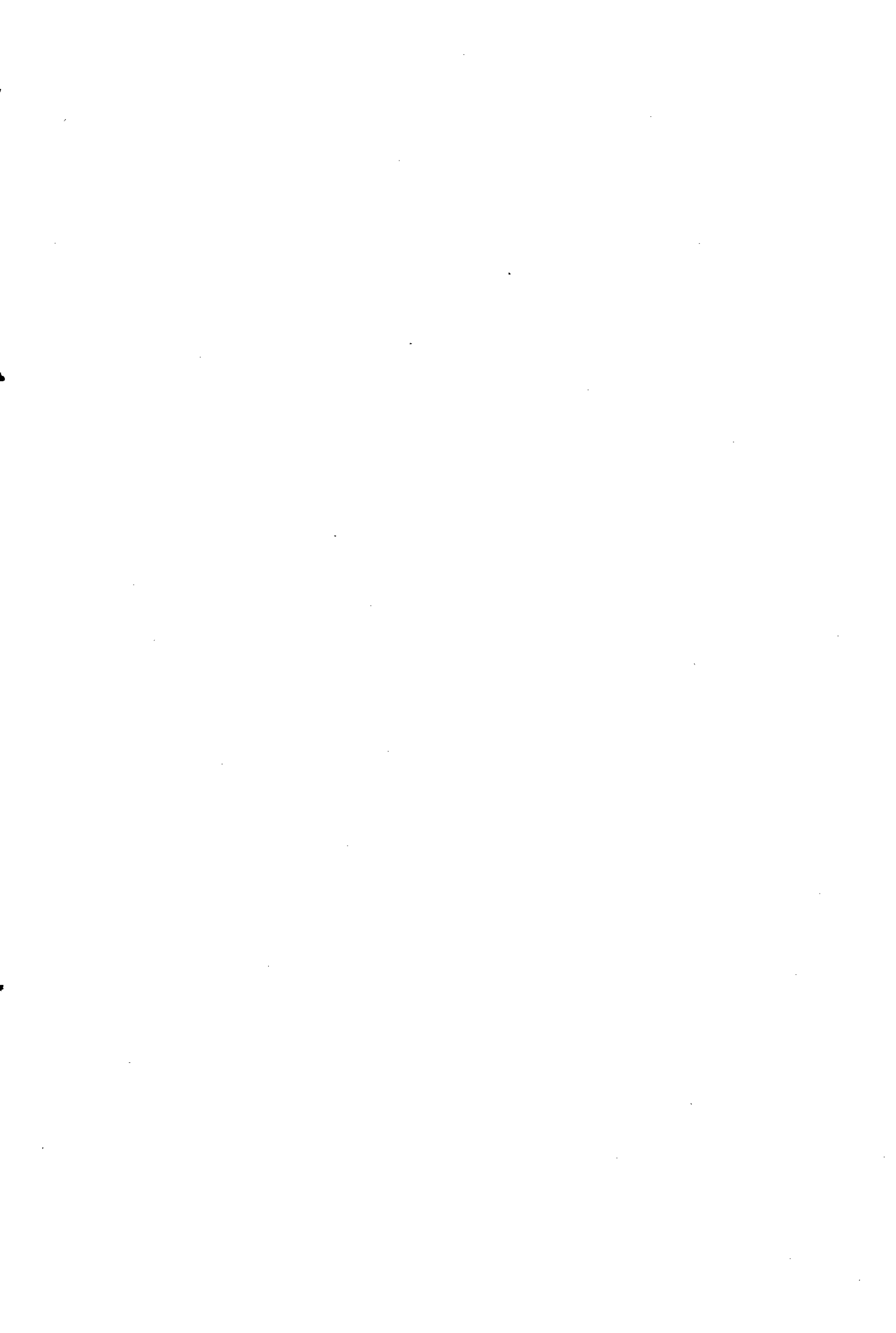
وها أنا قد حققتُ يا والـدي الجـانب الأول من الوصيـة ، وعسى الله أن يمنّ عليّ بالأخرى ، ويشفِّع فينا جميعاً رسولَه الكريم ﷺ .

وإليك يا والـدي كل مـا عسى أن يكرمني بـه الله من أجر في معـالجـة هـذا الموضوع .

والسلام عليك ورحمته وبركاته . .

ابنك

محمد العيد



المقـدّمـة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الـذي علّم القرآن ، خلـق الإنسـان علّمـه البيـان ، والصلاة والسلام على رسوله محمد القـائل : أنـا أفصح العرب بيـد أني من قريش ، وعلى آله وصحبه أولي النُّهى والفصاحة والبيان .

- ١ -

أما بعد :

فإنه لم يتهيأ في حقبة من تاريخنا العربي الخالد أو الإسلامي المجيد ، لمـدينـة من مدننا العربية ـ قديمـة أو حـديثـة ـ أن تنفرد بـالقيـادة المطلقـة ، وتجمع بين سلطان الحكم والسياسة ، والعلم والمعرفـة ، والثقـافـة والأدب ، والفقـه والـدين ، وتصبح هي كل شيء في حياة المجتمع العربي ، منهـا المنطَلق وإليهـا المعـاد ، ووفق إرادتها يكون الإصدار والإيراد ، غير المدينة المنورة . . هذه المدينـة التي أكرمها الله بميزات شتى ، كان أعظمها جميعاً هجرة محمد بن عبد الله ﷺ إليها .

استقلت دمشـق بـالحكم والسلطـان أيـام الأمـويين ، ولكن الأدب والعلم والدين كان بالمدينة ومكة ، وفي البصرة والكوفة .

ثم انتقل الحكم إلى بغداد أيـام العبـاسيين ، وحظيت بـالعلم والأدب ، والفكر والثقافة ، وبالحضارة الباذخة التي سار بذكرها الركبان ، ولكنها لم تكن وحدهـا في الساحة ، فقد شاركها في ذلك القاهرة ودمشق وخراسان وتركستـان والقيروان والأندلس بجميع مدنها وقراها ، على نسب مختلفة ، ومستويات متباينة .

وسبقت مصر والشام في العصر الحديث إلى الأخذ بأسباب العلم والثقافة ، وقطعتا في ذلك أشواطاً كبيرة جعلتهما يحتلان مكان الصدارة والريادة في العالم العربي جميعاً دون منازع ، ولكنهما مع ذلك كانتا اثنتين لا واحدة .

فالتفرد في جميع ما ذكرنا لا يكاد يكون إلا في مضمار دون مضمار ، والسبق لا يكاد يتحقق إلا في وجه من الوجوه . أما التفرد المطلق والسبق الشامل غير المحدود فإنه لم تظفر به مدينة على مدى تاريخنا الطويل ، غير المدينة المنورة ، وكان ذلك على وجه التحديد في عصر صدر الإسلام . وليس في إمكان أي إنسان مهما أوتي من القدرة على المحاجة والمجادلة ، أو المماحكة والمغالطة ، أن ينكر هذه الحقيقة ، أو يشكك فيها من قريب أو بعيد ، فإن المدينة كانت في عصر صدر الإسلام هي مركز السلطة الدينية والدنيوية ، ومصدر الفقه والتشريع ، وملتقى القادة والمفكرين ، ومسرح الشعراء والخطباء والكاتبين ، عفّت على كل ما حولها ، واستقطبت إليها كل ذي عقل وقلب ، فجمعت بذلك كله القيادة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية من جهة ، والريادة الفكرية والعلمية والأدبية والنقدية من جهة أخرى ، واحتوت كل أنواع الأنشطة الحضارية ، وتفردت فيها ، وملكت زمام قيادتها ، وحققت التميز والتفرد على مر التاريخ .

ولم يتحقق لها هذا التفرد من فراغ ، ولم يكن محض مصادفة ، وإنما كانت تبني فيه على ما كان لها في الجاهلية من مكانة أدبية سامقة ، لها ملامحها المميزة وسماتها الذاتية ، وتنطلق من ريادتها في كثير من الفنون الأدبية في ذلك العصر على النحو الذي فصلناه وكشفنا عنه في هذا البحث .

وكان لها إلى جانب ذلك في كل عصر إسهامات لا تغمط ، ومشاركات لا تنكر ، كانت تقف في بعضها ضمن الصفوف الأولى ، وتحافظ على وجودها بالقدر المتاح في البعض الآخر .

وإن مدينة يكون لها هذا التاريخ الأدبي العريق في الجاهلية ، وتنفرد بالقيادة المطلقة في عصر صدر الإسلام ، ثم تسهم في عصوره الأخرى مع أخواتها في بناء صرحه . لجديرة بأن يخصها الباحثون بنصيب من وقتهم وطاقتهم ، ويمنحوها حظاً من جهدهم واهتمامهم ، لإبراز هذا الدور المشرق الذي قامت به في صمت وتواضع ، وليعطوها حقها من التجلة والتقدير ، ولكنها مع الأسف ظلت تتجرع مرارة الجحود والإهمال والعقوق ، مغموطة الحق في كل دراسة أدبية أرّخت للعصور الأدبية المختلفة ، مغفلة لدى مؤرخي الأدب في العصر الحديث بعامة ، ولدى أكثر القدماء أيضاً ، فلم يتعرضوا لها إلا لماماً ، علماً بأنه ظهرت كتب تخص بالدراسة مدننا بأعيانها ، كدمشق والقاهرة ، والبصرة وبغداد ، وقرطبة وغرناطة ، وغيرها . . يتناول بعضها الحياة الأدبية في تلك المدن ، ويهتم بعضها الآخر بالحركات التاريخية أو النحوية أو الفقهية ونحوها .

وكم كان يحز في نفسي أن لا تَلقى هذه المدينة المباركة من أبناء العروبة والإسلام ، الأقربين منهم والأبعدين من الاهتمام ما ينصفها ويرد لها اعتبارها ، وهي المدينة التي بذلت بسخاء ، وأعطت من نفسها للعالم كله دون حساب ، في الوقت الذي كتب فيه الناس داخل العالم العربي وخارجه عن مدن أقل شأناً ، وبلاد مهما قدمت لن تصل إلى مستوى المدينة بحال ، بل إن بعضهم كتب عن قوى مجهولة في أعماق الجبال ومجاهل الصحراء ، وجعلوا من الأقزام عمالقة ، ومن العبيد سادة ، وصنعوا تاريخاً لعراة التاريخ .

وازاء هذا كله أحسست أن المدينة أصبحت في حاجة إلى ما يسمى بلغة العصر (ردّ الاعتبار) فأخذت على نفسي بجمع كل ما يتصل بتاريخها الأدبي والثقافي ، وتاريخها العام في العصور المختلفة ، ولذلك لم أتردد كثيراً في اختيار

موضوع هذا البحث [الحياة الأدبية والثقافية بالمدينة المنورة ، في الجاهلية وصدر الإسلام] ، واعتبرت ذلك فرصة سانحة لأداء بعض ما لهذا البلد المقدس علي من ديون ، والنهوض بواجب قصّر فيه الدارسون والباحثون من قبلي ، وكم كنت أتمنى أن لو شملت الدراسة جميع الزوايا فيها وكل النواحي والعصور ، وأرجو أن يكون هذا البحث منطلقا لتحقيق تلك الغاية ، وبداية طيبة لإنصاف هذا البلد المقدس العريق .

- ٣ -

وقد كانت طريقي لتحقيق هذه المهمة شاقة وعرة المسالك ، كلفتني الكثير من الوقت والجهد ، وذلك لقلة المراجع ، وضآلة النصوص بالنسبة للفترة الجاهلية بالذات ، فرحت أختط لنفسي مسلكاً يأخذ بيدي من هذه المتاهة ، ويضع قدمي على طريق البداية الصحيحة ، فجعلت معتمدي في الحديث عن هذه الفترة على :

١ ـ النتف التاريخية التي وجدتها مبعثرة في بطون الكتب بالمناسبات المختلفة وأمكنني جمعها والتأليف بين أجزائها وإحكام الصلات بينها ، والتعقيب على الأخطاء التي وقعت عليها من بعض المؤلفين .

٢ ـ الرجوع إلى الدواوين الشعرية الكثيرة وكتب الأدب والسيرة ، حيث عكفت على تلك الأشعار أستنطقها وأستوحي منها بعض جوانب الصورة الثقافية التي كانت سائدة بينهم ، وأرسم من خلالها الخصائص العامة للحياة الأدبية بالمدينة المنورة في ذلك العصر ، معاوداً النظر فيها المرة تلو المرة ، حتى قتلتها بحثا وتدقيقا ، وقد دفعتني قلة هذه النصوص إلى شيء من التكرار الذي أملته الظروف المختلفة للاستدلال .

٣ ـ الرجوع إلى القرآن الكريم والآثار النبوية والحديث العادي الذي كان يدور بين الناس في صدر الإسلام ، مما له صلة بحياة المدينة قبل الإسلام .

٤ ـ الانتقال من العام إلى الخاص ، أي أنني كنت أقرأ ما كتب عن العرب في العصر الجاهلي وفي تاريخ الأدب بالذات ، ثم أبحث عن نظيره في المدينة ، فإن وجدته فذاك ، وإن لم أظفر به ولمست مبررات وجوده افترضت وقوعه ووجوده على وجه راجح ، إيماناً مني بقانون السببية ودوران المعلول مع العلة وجوداً وعدماً ، وقد اقتضاني ذلك في أكثر الأحيان أن أتناول بعض جوانب الحياة العربية العامة ، وحياة البيئات المجاورة منها للمدينة على وجه الخصوص ، لأصل إلى تحديد معالم البحث وأنير بعض الزوايا المعتمة فيه .

ـ ٤ ـ

أما في فترة صدر الإسلام فقد كانت مهمتي شاقة على نحو آخر ، ذلك أن ما كتب عن هذه الفترة كثير جداً ، لأن الحياة الأدبية والثقافية بجميع فروعها غدت في واقعها مرتبطة بالمدينة ، فلا مناص لمؤرخي الأدب من أن يلموا بها ويكتبوا عنها ، وقد كان لكل واحد منهم رأي ، ولكل منهم وجهة في تقويم أدب هذه الفترة ، سواء في ذلك المحدثون أم القدماء ، وكانت هذه الآراء تصل إلى درجة التناقض أحياناً ، وهو أمر يبعث على الحيرة والتردد ، ويحمل على التوقف والاضطراب .

وأمام هذا الحشد من التناقضات وجدت نفسي ملزماً بأن أواجه الموقف بوسائلي الخاصة ، دون أي اعتبار لموافقة هذا أو مخالفة ذاك ، فلم يكن يشغل بالي شيء من ذلك غير ما اعتقدت أنه الحق . ثم كان عليّ أن أناقش تلك النصوص في إطارها المدني بالإضافة إلى روحها الإسلامية ، لأن الباحثين من قبلي تناولوها في إطارها العربي العام ، فلم يهتموا بإبراز الشخصية المدنية فيها ، وهو الأمر الذي حرصت على إبرازه ، لا بدافع من تعصب أو تطرف في الإحساس بالولاء لهذا البلد ، ولكن بدافع من الرغبة في إحقاق الحق لأهله ، ونسبة الفضل إلى ذويه ،

والكشف عن الجذور الحضارية الأصيلة التي استقرت فيه منذ أقدم العصور ، ولا تزال تمده بصورة ظاهرة أو مستورة بكثير من مقومات شخصيته ووسائل تقدمه وتطوره في جميع الميادين .

ـ ٥ ـ

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أنهج فيه المنهج المتكامل في الدراسات الأدبية ، فقسمته إلى قسمين رئيسَيْن : جاهلي وإسلامي ، ثم قسمت كل جزء إلى بابين ، وذلك على النحو التالي :

أ ـ **القسم الأول :** المدينة في العصر الجاهلي .

ويشتمل على بابين :

١ ـ **الباب الأول :** أضواء على التاريخ والمجتمع .

ويحتوي على فصلين :

الفصل الأول : الحياة الاجتماعية والسياسية .

الفصل الثاني : الحياة الثقافية والدينية .

٢ ـ **الباب الثاني :** الحياة الأدبية :

ويحتوي على خمسة فصول :

الفصل الأول : أغراض الشعر المدني .

الفصل الثاني : خصائصه الفنية .

الفصل الثالث : المدينة بين البيئات الشاعرة .

الفصل الرابع : أشهر الشعراء .

الفصل الخامس : النثر الأدبي وخصائصه .

ب ـ القسم الثاني : المدينة في صدر الإسلام :

ويشتمل أيضاً على بابين :

١ ـ الباب الأول : المدينة في ظلال الإسلام .

ويحتوي على فصلين :

الفصل الأول : المجتمع الجديد في المدينة .

الفصل الثاني : أثر الإسلام في الثقافة والأدب .

٢ ـ الباب الثاني : الحياة الأدبية :

ويحتوي على ستة فصول :

الفصل الأول : الشعر وموقف الإسلام منه .

الفصل الثاني : أثر الإسلام في الشعر .

الفصل الثالث : أشهر شعراء المدينة في صدر الإسلام .

الفصل الرابع : النثر الأدبي في المدينة (أنواعه وأغراضه وخصائصه) .

الفصل الخامس : أشهر الخطباء والكتاب .

الفصل السادس : النقد الأدبي في صدر الإسلام .

ثم أعقبت ذلك كله بخاتمة تلخص أهم نقاط البحث وتسجل نتائجه .

وقد حاولت أن أكون أميناً في عرض آراء غيري والاستفادة منها أو مناقشتها والرد عليها ، كما حاولت استغلال بعض المعارف المعاصرة التي تساعد على تحقيق الغرض من الدراسة ، وحرصت على أن يكون لي في كل قضية عالجتها رأي مرجح تارة ، ومستقل جديد تارة أخرى ، ومن ذلك انطلاقي إلى معالجة الأدب الجاهلي بالمدينة من خلال أن المجتمع المدني الجاهلي كان مجتمعاً زراعياً ، بحيث خالفت ما درج عليه الباحثون من تقسيم العرب إلى أهل وبر ومدر ، فقسمتهم إلى ثلاثة أنواع من المجتمعات هي :

١ ـ المجتمع الرعوي ، ويدخل فيه أهل النجعة والخيام ، وهم عامة العرب .
٢ ـ المجتمع التجاري ، وتمثله مكة والحيرة ونحوها .
٣ ـ المجتمع الزراعي ، وتمثله المدينة ونحوها .

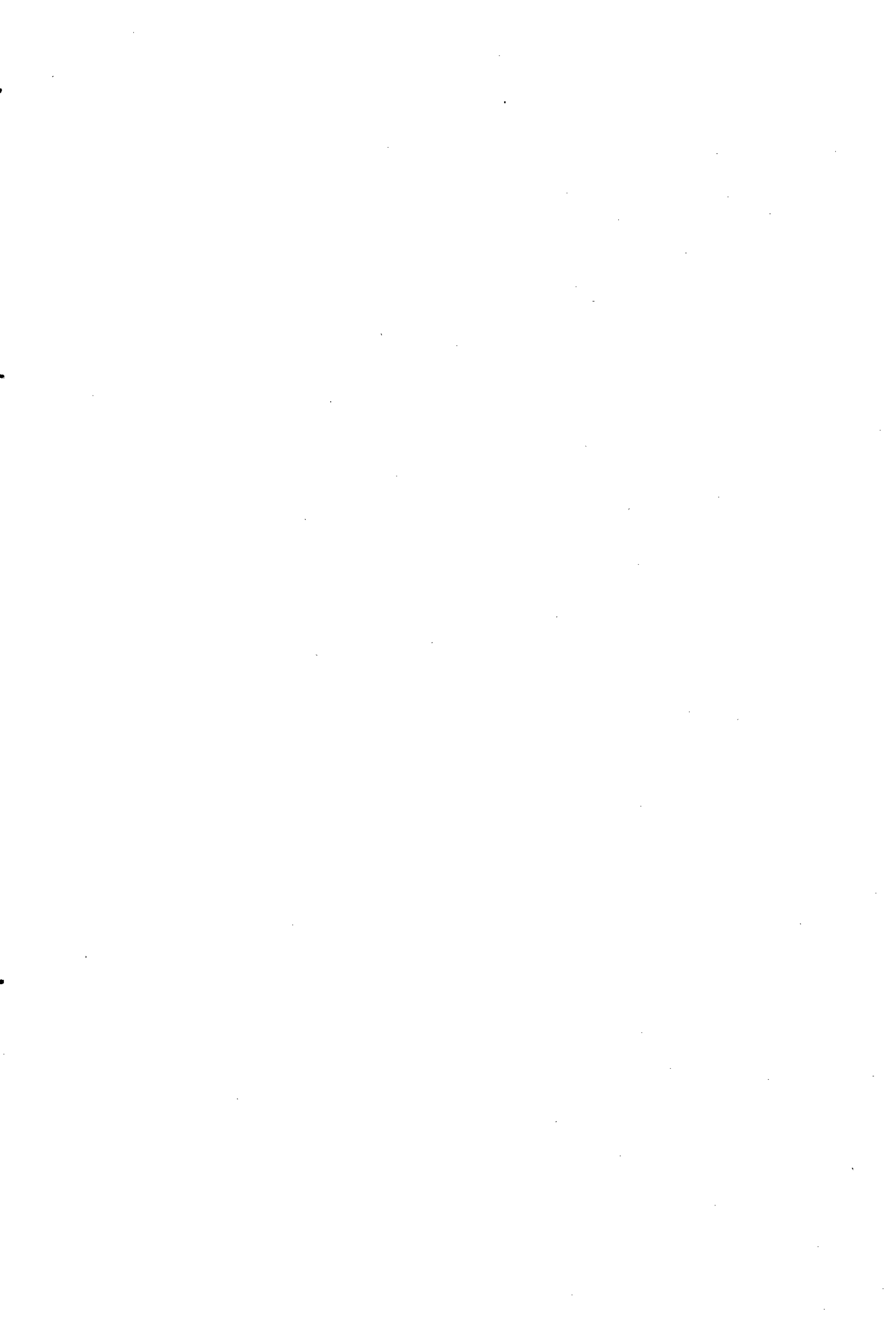
- ٦ -

وكل ما أرجوه أن أكون قد وفقت في رسم الصورة المتكاملة للحياة الأدبية والثقافية بالمدينة المنورة في الجاهلية وصدر الإسلام ، وأن أكون قد استطعت أن أحدد المعالم الشخصية لهذا البلد الحبيب الذي تهفو إليه القلوب وتحوم عليه المشاعر وتستغرق الأرواح ، فإن يكن ذلك فبتوفيق من الله ، وإن تكن الأخرى فحسبي أني بذلت الجهد الذي أطيق ، وأنني فتحت الطريق لمن يأتي بعدي ، ووضعت له الأساس الذي يبني عليه . وما أجمل كلام الراغب الأصفهاني في هذا الباب حين يقول : (إني رأيت أنه لا يكتب انسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يُسْتحْسَن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرِك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر) .

وأخيراً لا يفوتني أن أسجل شكري العميق لفضيلة أستاذي الجليل الدكتور حسن جاد حسن ، الذي أشرف على هذه الدراسة ، وغمرني بجميل فضله وسداد رأيه وحسن توجيهاته ، جزاه الله عني خير الجزاء وأجزل مثوبته ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

البَابُ الأوّل

أضواء من التّاريخ والمجتمع



الفصل الأول

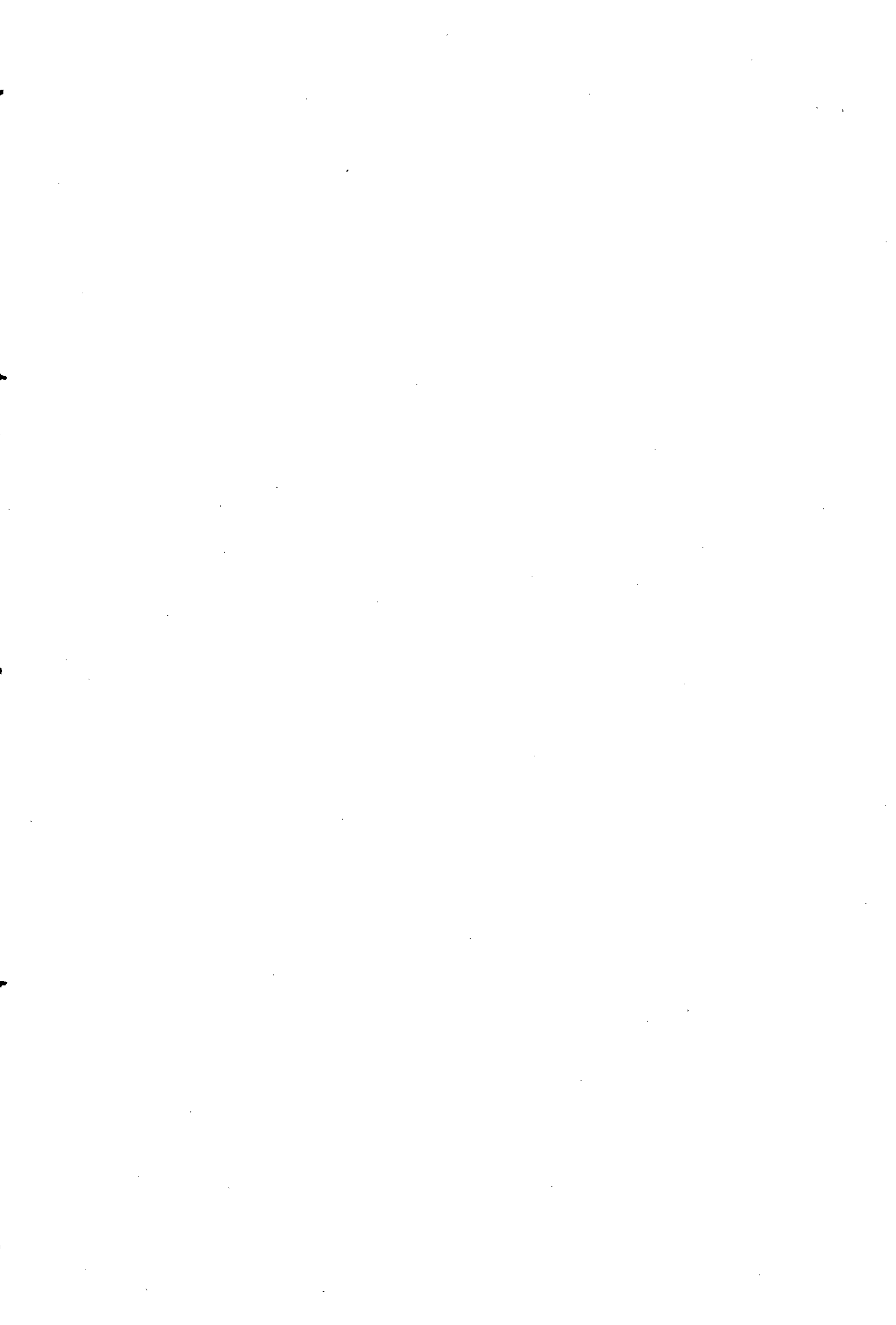
الحياة الاجتماعية والسياسية

أولا ـ الكيان الاجتماعي

١ ـ يثرب ومن نزلها من الأقدمين
٢ ـ نسب الأوس والخزرج ـ ونزولهم بيثرب
٣ ـ منازل الأوس والخزرج
٤ ـ اليهود في يثرب
٥ ـ غلبة الأوس والخزرج عليهم
٦ ـ لمحة عن آطام يثرب
٧ ـ السمات العامة للمجتمع اليثربي
٨ ـ النشاط التجاري

ثانيا ـ الكيان السياسي

١ ـ الملوك والأمراء
٢ ـ أيام الأوس والخزرج



الحياة الاجتماعية والسياسية

أولاً ـ الكيان الاجتماعي

١ ـ يثرب ومن نزلها من الأقدمين

كانت ليثرب (المدينة) مكانة مهمة عند ظهور الإسلام[١] وكانت على صلات جيدة ومتينة مع ما حولها من قبائل ومدن ، وهي من المواضع التي يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد . وقد ذكرت في كثير من الكتابات القديمة ، مثل الكتابات المعينية ، وأقدم الكتابات جميعاً التي أشارت إليها هو نص الملك (نبونيد) ملك بابل ، الذي سكن (تيماء)[٢] حقبة من الزمن وحكمها بين سنتي ٥٥٢ ـ ٥٤٥ ق . م ، وقد جاء في النص المشار إليه أن (نبونيد) وصل إلى يثرب .

ووردت أيضاً في جغرافية بطليموس باسم يثربة ، وعند اصطفيان البيزنطي باسم (مدينة يثرب) ثم اختصرت فقيل لها : (مدينتا) أي المدينة .

ويرى بعضهم :[٣] أن كلمة يثرب محرفة عن الكلمة المصرية أتربيس ، وعلى هذا الأساس يرجحون أن الذين بنوها إنما هم العمالقة بعد خروجهم من مصر ، وأن

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ٤ : ١٢٨

(٢) المرجع السابق ٤ : ١٢٠

(٣) دائرة معارف القرن العشرين ٣ : ٤٥٤

كلمة طيبة إذا كانت مستعملة قبل الإسلام مأخوذة عن المصرية[1] وعليه أيضاً فعمران المدينة يبتدئ من سنة ١٦٠٠ ق . م .

ولكن هذا الرأي لا يبدو مقبولا تجاه الآراء الأخرى التي تدل على أن يثرب كانت موجودة قبل موسى عليه السلام كما سيأتي في الحديث عن نزول اليهود بها في العهود المختلفة .

وإطلاق اسم يثرب على المدينة فيه كراهية معروفة للعلماء سأشير إليها بعد قليل ، كما فيه خلاف بين المؤرخين ، فبينما يراه ابن عباس رضي الله عنه اسماً للمدينة نفسها ، تجد أبا عبيدة يؤكد أنه اسم للناحية التي منها مدينة رسول الله ﷺ ، أي إن لفظ يثرب أعم من لفظ المدينة ، ويذكر العلامة السمهودي[2] أن محمد بن الحسن بن زبالة ، يقطع بأن يثرب أو أَثْرَب : اسم لموضع مخصوص من أرض المدينة لأنه كان ينتشر فوق أرض المدينة عديد من القرى العامرة المأهولة ، غير أن يثرب هي أم قراها جميعاً ، ومع ذلك فقد كان اسم يثرب هو الغالب عليها والمعروفة به بين الناس وبخاصة بعد الميلاد .

وسميت المدينة المنورة[3] مدينة من قولهم مدن بالمكان ، إذا أقام ، أو من

---

(١) والطاء على هذا الرأي يجب كسرها لتتطابق مع طِيبة المصرية .

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي ١ : ٨ : ١٠ وأخبار المدينة ، المعروفة بالدرة الثمينة ص ١٢ وهو للإمام الحافظ محمد بن محمود بن النجار ، تحقيق صالح محمد جمال . قال : وكانت زهرة من أكبر قرى المدينة ، كان فيها ثلاثمائة صانع من يهود . .

(٣) يرى فيليب حتى (تاريخ العرب ١ : ١٤٦) أن هذا التفسير متأخر وأن لفظ المدينة معرب عن لفظ مدينتا الآرامي الذي معناه (دائرة الفضاء) والذي أطلقه عليها بعض القدماء كاصطفيان البيزنطي . ويبدو أن التسمية إسلامية وأن لفظ (مدينتا) لم يكن متداولاً ، وإن وجد في النصوص القديمة ، لأننا نجد شعراء يثرب الجاهليين كقيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت يلتزمان في شعرهما بيثرب ، كما نجد المخضرمين منهم كحسان وكعب بن مالك ، يلتزمون بذلك في شعرهم الجاهلي ، بينما يستعملون الاسمين في شعرهما الإسلامي تأثرا بالتسمية الجديدة .

دان ، إذا أطاع ، لأن السلطان يسكن المدن ، فتقام له طاعة فيها ، أو لأن الله تعالى يطاع فيها . والميم على التفسير الأول أصليه ، وأما على التفسير الثاني فهي زائدة . غير أن هذه التسمية بهذا المعنى إسلامية ، فالاسم الذي كانت معروفة به قبل هجرة الرسول ﷺ إليها إنما هو يثرب ، وهي مكان مخصوص منها كما أوضحنا ، وأطلق عليها من باب إطلاق الجزء على الكل ، وهو الاسم الذي تعود أن يطلقه عليها معاصروها وبعض المؤرخين وكثير من الشعراء ، وبخاصة عندما تتحكم فيها القوافي . وكذلك ورد اسمها في شعر أبنائها في العصر الجاهلي مثل حسان وابن الخطيم على ما يأتي .

أما العلماء فقد كرهوا[1] تسمية المدينة به ، لنهيه ﷺ عن ذلك ، فقد روى أحمد وأبو يعلى حديثاً رجاله ثقات : « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله ، وهي طابة » ، ولما في كلمة يثرب من معنى الثرب ، وهو الفساد . والتثريب ، وهو التعيير والاستقصاء في اللوم والمؤاخذة بالذنب ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ (يوسف : ٩٢) وأما ما ورد في القرآن الكريم من تسميتها به في قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ﴾ (الأحزاب : ١٣) متحدثاً عن بني حارثة ـ بطن ضخم من الأوس ـ فليس هو إقراراً منه بهذا الاسم ، بل هو حكاية عن قول المنافقين . ونحن إذا استعملنا هذه التسمية في غضون بحثنا خلال القسم الأول ، فليس ذلك لتجرؤ على مخالفة ما نُهي عنه ، نعوذ بالله من ذلك ونتوب إليه ، وإنما هو من باب مطابقة الكلام لمقتضى الحال . لأننا نبحث في هذا القسم فترة جاهلية تعارفت على هذا الاسم ودرجت عليه ، وسنكون ملزمين باستعمال لفظ المدينة المنورة فيما يتعلق بالقسم الثاني (المدينة في صدر الإسلام) إن شاء الله .

---

(١) وفاء الوفاء ١ : ٨ ـ ١٠

ونقل ياقوت الحموي[1] عن أبي القاسم الزجاجي : أن من أسماء المدينة : يثرب وقال : إنها سميت بذلك ، لأن أول من سكنها هو يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . كما ذكر أن الرسول ﷺ كره تسميتها بذلك ، وسمّاها طيبة وطابة .

وإلى يثرب كانت تنسب السهام اليثربية ، قال كثيّر :

وماء كأن اليثربيّةَ أنصلت ... بأعقاره دفع الإزاء نَزوع[2]

وقال آخر كما في اللسان : وما هو إلاّ اليثربيّ المقطّع .

وقال آخر : وأثربي سُنخُه مرصوف .

وقال آخر :

سَلاجِمُ يِثْرِبَ اللاتي عَلَتْهَا ... بيثرب كَبْرَةٌ بَعْدَ المُرُون[3]

هذا وقد عرف للمدينة أسماء كثيرة في العصر الإسلامي ، ذكرها السمهودي في وفاء الوفاء فبلغت العشرات .

ويثرب هذه التي هي جزء من المدينة يشير بعضهم إلى أنها واقعة[4] في الجزء الشمالي من المدينة ابتداء من شمال جبل سلع إلى منتهى زغابة ومنطقة العيون ، على أن البعض يحدها جنوبا بزبالة ، وزبالة هي المنطقة التي تقع فيها بئر رومة وبستان الأزهري ، ويقع شرقيها المجرى القديم لوادي مهزور ، وعلى غربها مجرى

---

(١) معجم البلدان ٥ : ٤٣ وعمدة الأخبار للعباسي ص ٣٣ .

(٢) الأعقار : جمع عقر ، وهو مؤخر الحوض . أو مقام الشارب منه . والإزاء : مقدم الحوض . والنزوع : البئر القريبة الماء .

(٣) السلاجم : النصال . والكبرة : الصدأ .

(٤) المدينة بين الماضي والحاضر للشريف ابراهيم العياشي ص ٢٤ .

وادي العقيق . وحددها ابن النجار[1] بأنها هي الجزء الواقع ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف ، وما بين المال الذي يقال له البرناوي ، إلى زبالة .

أما المدينة[2] نفسها فقد جعل لها الرسول ﷺ حرماً محدوداً جنوباً بجبل عير (مرادف للحمار) ، وبعضهم يسميه عاير ، وهو جبل كبير مشهور ، بقرب ذي الحليفة ميقات المدينة . وشمالاً بجبل ثور (فحل البقر) ، وهو جبل صغير مدوّر شمالي أُحد ، وهو إلى الحُمرة أقرب ، على شمال المتجه إلى العاقول من الطريق المعبدة اليوم بين المدينة والمطار إذا ما وصل عند المكان المعروف بقعد بني مطير وقيل : هو الجبيل الذي شقه الطريق إلى المطار والمعروف الآن بقعد بني مطير ، أما من الناحيتين : الشرقية والغربية فمحدودة باللاّبتين ، ومن الناحية التاريخية الصرفة نجد رقعتها تتسع أكثر من هذه المساحة لتشمل بمسارحها وأعمالها وأعراضها مثل النقيع وحمى ضريّة والربذة ونحوها .

ويحدد بعض الباحثين[3] المحدثين المجال الحركي ليثرب بطريقة أخرى ، فيجعل يثرب مركزاً لدائرة يتراوح قطرها بين ٨٥٠ ـ ١٠٨٠ كم ، ويجعل البلاد التي على محيط هذه الدائرة هي :

١) مكة ، وتقع إلى الجنوب من يثرب على مسافة ٤٩٧ كم .

٢) حائل ، وتقع إلى الشمال الشرقي من يثرب على مسافة ٤٥٠ كم .

٣) بريدة ، وتقع إلى الشرق من يثرب على مسافة ٥٤٠ كم .

٤) جدة ، وتقع إلى الجنوب الغربي من يثرب على مسافة ٤٢٥ كم .

---

(١) أخبار المدينة ص ١٢ .

(٢) الوفاء ١ : ٩٢ .

(٣) مجلة الخفجي . العدد الثامن ـ المجلد السادس .

٥) الوجه ، وتقع إلى الشمال الغربي من يثرب على مسافة ٤٩٠ كم .

ويعقب على ذلك بقوله : وليس هذا التراوح كبيراً بالنسبة لمساحة الجزيرة التي تبلغ ثلاثة ملايين كيلاً مربعاً ، ولا بالنسبة للمسافات الشاسعة التي تقع عليها المدن ، وفي الواقع كانت يثرب على مختلف عصورها التاريخية ذات علاقة وثيقة بكثير من هذه المناطق مع اختلاف في طبيعة العلاقة وحجمها ودواعيها .

والذي أوردناه إلى الآن يوحي بأن أول من نزلها هو يثرب ، وهو من بني عبيل إخوة عاد ، وهم ـ كما نعلم ـ من العرب البائدة . ثم سكنها بعدهم من العرب أيضاً العماليق وهم بنو عملاق من أرفخشد بن سام بن نوح ، ومنهم بنو هفان ، وبنو مطرويل ، وكان لهم ملك عظيم يدعى الأرقم بن أبي الأرقم ، الذي عرف بالقوة وشدة البطش والسلطان . ويرى بعض الباحثين[1] أن كلمة عماليق مؤلفة من مقطعين هما : (عم) بمعنى شعب أو أمة في اللسان العبراني ، و (ماليق) وهو اسم قبيلة عربية كانت مواطنها الأولى بجهات العقبة ، وشماليها على وجه الخصوص ، ورد اسمها في كتابة البابليين ، ونطق العرب بعد ذلك الاسم بطريقتين : عماليق وعمالقة . وقد كان العمالقة قوماً طوال الأجسام طوال الأعمار يبلغ عمر الواحد منهم مئات السنين ، وهو أمر لا يؤمن به أولئك الذين يفصلون بين التاريخ والنبوات ، ولا يستطيعون أن يتصوروا إنساناً يعيش مثل هذا العمر أو حتى قريباً منه مهما كانت الظروف والأحوال . أما أنا فإنه لا شيء يمنعني من تصديقه بعد أن أقرأ قوله تعالى عن نوح عليه السلام وقومه : (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً) ، وأقول : كذب المؤرخون والباحثون ، وصدق الله ورسوله ، ولا يهمني بعد ذلك ما عسى أن يصفني به بعضهم من الغفلة والمسارعة إلى التصديق .

---

(١) العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ص ٥١ .

وأجلى هؤلاء العماليق[1] بني عبيل عن المدينة ، فقصدوا أرض الجحفة ناحية رابغ اليوم ، فجاءهم سيل أجحفهم فيه ، فهي لهذا سميت جحفة ، ورثاهم رجل منهم فقال :

عينُ جودي على عبيل وهل ير ... جع من فات بيضها بالسُّخام[2]
عمروا يثرباً وليس بها شُفْر ... ولا صارخ ذو سنام
غرسوا لِينَها بمجرى معين ... ثم حفّوا النخيل بالآجام

ويرى العياشي[3] أن العماليق كانوا أسبق إلى المدينة من بني عبيل ، وعليهم نزل يهود ، وكذا يرى ياقوت الحموي ، وأنهم أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل وعمر بها الدور والآطام واتخذ بها الضياع . وكان العماليق فيما يبدو طبقتين : طبقة سابقة هي التي عناها العياشي ، ومنها[4] الملوك الطغاة الذين منهم الأرقم بن أبي الأرقم . وطبقة لاحقة لها صلة بنسب الأولى ، ومنها قبيلتا صعل وفالج ، وهي التي أجلت بني عبيل عن المدينة . وبهذا يمكن نظرياً الجمع بين الروايات المختلفة في هذا الباب ، وإن كان الأمر من وجهة النظر العلمية لا يزال محتاجاً إلى التدعيم بالوثائق والإثبات بالأدلة المقنعة ، ولعل ذلك يتأتى لبعض الباحثين المتخصصين .

ولقائل أن يقول : ما علاقة الحديث السابق بموضوع هذا الفصل ؟ ولكن ما ذكرته من تحديد موقع يثرب يعين لنا مسرح الأحداث الذي تمت فيه تحركات المجتمع اليثربي كما أن الحديث عن أول من نزلها ومن تلاهم بعد ذلك يسهم في إلقاء

---

(١) معجم ما استعجم للبكري ٢ : ٣٦٨ والوفاء ١ : ١٥٦ .

(٢) السخام : اللين من كل شيء ، أو الأسود . شفر : أحد . لينها : نخلها ، ولعل المقصود بالآجام : الآطام ويروى السحام : وهو شجر .

(٣) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٢١ .

(٤) معجم البلدان ٥ : ٤٤٢ .

الضوء على تكونات سكان مكان البحث ، وذلك ربما ساعد كثيراً على تفسير بعض الظواهر التي قد تعترضنا عند تناولنا لأساسيات البحث ، إذ أنه حتى على افتراض انقراض العماليق وبني عبيل ـ مثلاً ـ وانتهائهم من المدينة بالكلية ، فليس من المعقول أن تمحي آثار وجودهم بسهولة ، بل العكس هو المعقول تماماً ، فلا بد من بقاء بعض بصمات حياتهم وعيشهم فوق هذه الأرض . حملها من خلفوهم من اليهود أو الأوس والخزرج ، وبقيت بينهم تاريخاً يروى وذكريات تتناقلها الأفواه ، فما أوردته إذن على هذا الأساس وثيق الصلة بالموضوع ، وضرورة تمليها طبيعته ، وهذا الأمر نفسه ينطبق على بعض الجوانب الأخرى التي سترد خلال البحث .

٢ ـ نسب الأوس والخزرج ونزولهم يثرب

إذا كان حديثنا أساساً في هذا القسم من البحث عن الحياة الأدبية في المدينة المنورة خلال العصر الجاهلي ، وذلك إنما يشمل الأوس والخزرج في المكان الأول ، فإن المنطق يقضي أن ذلك الأدب وبخاصة الشعر منه ، إنما كان تمثيلاً لحياتهم وتعبيراً عن ذواتهم وبيئاتهم وأحوالهم ، وهو في عامته يدور حول حروبهم وأيامهم التي قامت بين القبيلتين المتصارعتين ، أو بينهم وبين مواليهم من اليهود الذين كانوا يساكنونهم ويقاسمونهم معيشتهم ولم تقم تلك الحروب عفواً ، ولم تشب عن طريق المصادفة بل وقفت من دونها جماعات قوية صلبة ، ألفت بين كل منها وشائج القرابة وأواصر النسب ، وربطت بين فروعها عصبية جاهلية متلاحمة ، فكانت هي القبائل والعشائر والبطون ، وكانت تلك القرابة لحمة متينة متماسكة ، مرعية إلى حد قد يعمى معه الفرد عن إدراك الحق ، أو حتى مجرد التفكير فيه ، فالأفراد في المجتمع الجاهلي إنما كانوا يفكرون بمشاعر القبيلة ، وينزلون على حكمها ويسيرون على سيرها ، ويقفون حيث تقف ، لا يزيدون شبراً أو فتراً .

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

وإذا كانت القبيلة هي الأساس في الحياة الجاهلية ، وهي إنما تقوم على أساس انتماء الأفراد حقيقة أو ادعاء إلى نسب واحد ، تعيَّن علينا أن نتحدث عن نسب الأوس والخزرج ، وقبل ذلك يتعين علينا أن نلم بأهمية الأنساب بعامة في المجتمع الجاهلي ، ولكن على شريطة أن لا نشط في ذلك فنبتعد عن الغاية المرسومة .

أ ـ الأنساب وأهميتها عند العرب :

النسب لغة هو القرابة مطلقاً ، ولكنه غلب عند الأعراب على القرابة من جهة الآباء ، ولذلك قال الفيروز أبادي في القاموس المحيط : النسب محركة ، والنسبة بالكسر والضم : القرابة مطلقاً ، أو في الآباء خاصة . لهذا أيضاً قال الشاعر العربي القديم :

بنونا بنو أبنائنا ، وبناتنا   بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ويرى علماء الاجتماع أن العناية بالأنساب ظاهرة تتميز بها المجتمعات البدوية القائمة على القاعدة القبلية في جميع العصور ، لأن ذلك يتطابق مع طابع حياتها وأسلوب معاشها ، فهي مجتمعات تحرص عادة على تكوين العصبية القبلية ، لتتمكن من تحقيق الوحدة بين أفرادها وتوفير التعاون بينهم ، وتدرك ثاراتها وتنفي الغرباء عنها ، وتقيم أيضاً على أساس النسب مسائل الإرث والزواج ، وبذلك تعيش القبيلة عزيزة الجانب مرهوبة بين جيرانها ، ويقوم شعراء القبيلة عادة بتسجيل مفاخر تلك الأنساب ، ويضفون عليها هالات من الإكبار والتمجيد ، حتى تكتسب المكانة العالية والقدسية المرعية ، والأمة العربية في أول

عهدها بالتاريخ كانت أشد أمم الأرض تعلقاً بالأنساب ، بل إن تلك الظاهرة[1] رافقتها حتى في عصور تقدمها في صدر الإسلام وعصر بني أمية ، وكان لها الأثر الفعال في توجيه حياتها الاجتماعية والسياسية والأدبية . ومن هنا ظهرت طبقة من النسابين كانت في الجاهلية وصدر الإسلام تعتمد على حافظة قوية وذاكرة مسعفة مواتية ، وعلى الكتابة والتأليف في عصور التدوين ، وما أكثر ما تورده كتب المراجع من مشاهير النسابين الذين كتبوا في علم النسب ، وأسهموا في تكوينه وإبرازه علماً له قواعده وأصوله ، كجمهرة الأنساب لهشام بن محمد بن السائب الكلبي ، والأنساب للسمعاني ، ونسب عدنان وقحطان للمبرد ، وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي ، ونسب قريش للمصعب الزبيري ، والاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار لابن قدامة ، وقد ذكر ابن النديم[2] جملة صالحة منهم .

وعلم النسب[3] هو علم يتحدث عن أنساب العرب منذ آدم عليه السلام ، ويفصل قبائلهم ، ويحدد فروع كل قبيلة وأفخاذها ، ويوضح علاقة القربى بين القبائل التي تدعي وجود قرابة بينها ، كما يتحدث عن أسماء القبائل والأحلاف القبلية ، ويضع لكل قبيلة شجرة نسب تصل إلى جد أعلى مشترك إلى أن يصل بها بعضهم إلى آدم عليه السلام كما قلنا ، علما بأن أول تدوين رسمي للأنساب[4] تم في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، حيث ظهرت الحاجة إلى التسجيل ، ولم يصرح أحد من علماء الأنساب أنه أخذ مادة أنسابه من تلك السجلات ، وإنما كان مرجعهم كتاب جمهرة الأنساب لهشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وقد اشتهر

---

(١) العصبية القبلية للدكتور إحسان النص ص ١١ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٣١ .

(٣) العصبية القبلية ص ١٢ .

(٤) المفصل في تاريخ العرب ٤ : ٢٢٥ .

رجال بعلم النسب قبل عصر التدوين ، منهم أبو بكر الصديق ، وعقيل بن أبي طالب ، وعبيد بن شريّة الجرهمي ، ودغفل السدوسي .

وقد عرض ابن قدامة المقدسي في الاستبصار لبعض غايات علم النسب وأشار إلى بعض دوافعه ، ونحن نوجزها هنا فيا يلي[1] :

١ ـ إنهم كانوا يحتاجونه صلة للأرحام ، فيشترك ذوو الأرحام والأقرباء في تحمل الديات والدفاع عن الحياض ، وتعميق الشعور بالوحدة الجنسية والإحساس بالروح القبلية .

٢ ـ كان النسب مبعث افتخار بالآباء والأجداد ، فمنهم من ارتفع نسبه ومنهم من انحط ، يشهد لذلك ما قاله الفرزدق في الهجاء :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقول جرير :

فغض الطرف إنك من نُمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

٣ ـ كانت القبائل تحترز بوساطته من الدخيل وغير الصريح ، فلهذا قالوا في زياد : ابن أبيه . ولم ينسبوه إلى القبيلة التي نشأ فيها وهي قبيلة ثقيف .

٤ ـ كانوا في العهد الإسلامي يعتمدون في أعطياتهم في الدواوين على صحة النسب ، وفي العصر العباسي ـ مثلاً ـ نقرأ نقابة الطالبيين ، ونقابة الهاشميين ، وغيرهم .

وعلم النسب على هذا النحو من أهم العلوم عند العرب . وأهميته نابعة من مقدار اهتمامهم بالأنساب وتوقف كثير من شؤون حياتهم عليها . وهنا يجدر بنا

---

(١) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار لابن قدامة المقدسي ص ٧ .

أن نطرح سؤالاً قد يخطر على كثير من الأذهان ، ويخالج كثيراً من النفوس ، وهو : ما مدى صحة هذه الأنساب التي أوردوها وتوارثتها كتب الأخبار ؟ وللمشتغلين بهذا الباب آراء شتى ومواقف تصل إلى حد التناقض والتضارب ، فبعضهم يراها أنساباً منتحلة[1] ، ويعدّها وهماً باطلاً اخترعها الوضاعون بعد الإسلام لعوامل دينية وسياسية واقتصادية ، ومن هؤلاء كثير من المستشرقين والمستغربين ، وقد اعتمدوا على نزعة الشك الديكارتية ، بالإضافة إلى بعض النيات الخاصة الأخرى ، وساقوا لتأييد مذهبهم عديداً من الأدلة أهمها :

١ ـ إنه لم تكن لدى البادية سجلات لإحصاء المواليد يرجع إليها الباحثون ، ويمكن الإعتماد عليها في إثبات الصلات الدموية بين القبائل أو بين أفراد القبيلة الواحدة .

٢ ـ إنه لا يمكن الاعتماد على الرواية في ذلك ، لأنها يعرض لها النسيان وتحكم الأهواء .

وهذا في نظري مبدأ خطير لا يهدف إلى التشكيك في أنساب العرب فقط ، بل يهدف إلى رد الوجود العربي الجاهلي جملة واحدة ، وقد يتعداه إلى رفض كثير من الأمور الإسلامية ، لأن جميع أولئك إنما وصلنا عن طريق الرواية لا التدوين كما هو معلوم ، وقد نبه صاحب الأغاني إلى أن لزياد بن أبيه ـ لفقده النسب الصريح ـ ضلعاً من الخلط بين الأنساب ، كتصرف منعكس لموقف الناس من نسبه المخلوط ، وكذلك أسهم الشعوبيون وعلى رأسهم أبو عبيدة في التخطيط للتشكيك في الأنساب ، والصحيح أن الذاكرة العربية ـ رغم حقد الشعوبيين وحذلقة المشككين المحدَثين ـ كانت أوعى ذاكرة عرفها التاريخ وأكثرها حفاظاً على مسموعها ومُشاهدها ، والشواهد على ذلك كثيرة ، ولعل حرص العرب على

---

(١) تاريخ النقائض في الشعر العربي للأستاذ أحمد الشايب ص ٥٥ .

الصدق فيما يروون هو الذي دعاهم إلى العنعنات التي تصادفنا في كتب التاريخ والرواية ، ثم إن تلك الروايات تعرضت في العهود المختلفة إلى كثير من الحصحصة والتمحيص من رجال أثبات ثقات .

٣ ـ إن القبائل العربية كانت كثيرة التنقل كثيرة الحروب ، وكان هذا يدفع البعض أحياناً إلى الدخول في قبيلة غير قبيلته عن طريق الحلف والولاء ، ويمثلون لذلك بما فعلته قبيلة جديلة حين ضعفت أمام الغواث عقب يوم اليحاميم[1] حيث حالفت كلباً ودخلت فيها .

وفي رأيي أن هذا المثال يمكن اعتباره دليلاً على دقة النسابين العرب ، حيث لم تند عن ملاحظتهم ولا عن ذاكرتهم مثل هذه الحوادث ، لأنها عادة لا تتم في سر ولا تدبر بليل ، وبخاصة في أمة تقوم حياتها على القبيلة ولا شيء غير القبيلة .

٤ ـ إن ما وضع من سلاسل الأنساب إنما كان تقليداً لما ورد في التوراة من أنساب ويُقوّي هذا لديهم أن من النسابين الأوائل من كان من أصل يهودي ، كابن منبّه ، ومحمد القرظي .

وأنا أقول : إن كان أحبار اليهود قد حرفوا التوراة بدوافع دينية ، فإن ذلك الدافع غير موجود بالنسبة للأنساب ، ولهذا لا مانع من اعتبارها مصدراً يؤخذ منه ويرجع إليه ، كما أنه ليس بمحظور على العرب أن ينظموا علماً ما صحيحاً عندهم على غرار ما عند أمة أخرى ، ويضموا أشتاته المبعثرة على نمطه ، بل إن العقلية التي تميل إلى التنظيم تستطيب ذلك وتأخذ به ، وتسير على خطاه ، فأي مدخل للشك أو للتكذيب في هذا؟؟

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ٤ : ١٧ ـ ٢٧ ، وتاريخ النقائض ص ٥٥ .

٥ ـ والأغرب من هذا أن يجعلوا نظام العطاء الذي استنه عمر بن الخطاب سبباً من أسباب الوضع في الأنساب .

ونظام عمر قائم على أساس القرابة من رسول الله ﷺ ، فبدأ بآل الرسول ﷺ ، وقدّم عدنان على قحطان ، ومضر على ربيعة ، وقريشاً على غيرهم ، لأن الرسول ﷺ عدناني مضري قرشي ، ولم تذكر الروايات التاريخية التي تحدثت عن عمل عمر هذا أن بعض القبائل زيَّفت أنسابها بسببه ، ولا نتوقع من رجل كعمر أن تجوز عليه حيل من هذا النوع ، نعم قد يحصل من فرد أو أكثر ، ولكن هذا لا يدعو إلى رد الأنساب العربية جملة واحدة ، فلكل قاعدة شواذ .

٦ ـ وذكروا ما كان من إحياء العصبيات القبلية في العصر الأموي ضمن أدلتهم .

وأنا أرى أن ذلك يدعو إلى التكتل والالتفاف حول القبيلة والتمسك بنسبها ، فقد تضيع حياة المرء بضياع نسبه ، إذ يصبح لا حامي له ، فلا بد من الانتساب إلى قبيلة ، والمعقول أن تكون قبيلته الحقيقية إلا في بعض الحالات الشاذة ، والشاذ ـ كما يقال ـ لا حكم له .

ولعل في قصة الحطيئة الشاعر ومحاولة انتسابه في عبس وذُهْل وغيرهما من القبائل ، ما يعطي الدليل على أن القبائل كانت حريصة على نقاء عنصرها وصراحة نسب أبنائها ، كما ظل زياد بن أبيه يعرف بزياد بن سميّة رغم ما كان له من سلطان وتمكين .

ولئن وقف هؤلاء في أقصى اليسار مشككين ومكذبين ، قبالة من وقفوا في أقصى اليمين من الأخباريين القدامى مصدقين كل ما ورد إليهم دون تنسيق أو تمحيص . فإن هناك فئة أخرى أكثر اعتدالاً على رأسهم ابن خلدون ، تؤمن بقدر كبير من هذه الأنساب وتمسك عن بعض ، فهي تؤمن بأنساب البادية منهم ،

وترد أكثر أنساب الحواضر ؛ لأن شظف العيش وصعوبة البيئة وقسوة الحياة التي يعانيها أهل البادية لا تشجع الناس على الهجرة إليهم ، أو الاختلاط بهم والاستقرار معهم ، ولهذا تبقى أنسابهم محفوظة بعيدة عن مظنة اختلاطها بغيرها ، وتنطبق نظرية ابن خلدون هذه على بعض أهل المدر في داخل الجزيرة العربية مثل سكان مكة والطائف ويثرب ، حيث لا يوجد الخصب الكافي لمهاجرة الآخرين إليها (وأما العرب الذين كانوا بالتّلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش مثل لخم وجذام وقضاعة وإياد وغسان ، فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم وربما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم ، وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وإنما هذا للعرب فقط)[1] .

وفي رأي ابن خلدون كثيرٌ من الصحة ، لأن التاريخ لم يرو لنا تبدي القبائل في الظروف الطبيعية ، وإنما يروي لنا انتقالها من البداوة إلى الحضارة ، وذلك لما في الحضارة والمناطق المتحضرة من إغراءات ، كما أن الواقع الاجتماعي يؤكد هجرة البدو إلى العواصم والحواضر لا العكس .

وفي هذا الانتقال يحصل الاختلاط فعلاً وإضاعة الأنساب ، وهو ما نشهده في الحواضر اليوم أيضاً ، وقلما تحافظ العائلات الحضرية على أنسابها ، لأن الأسس التي تقوم عليها الحياة في الحاضرة لا دخل للنسب فيها ، وإنما قيمة المرء بما يحسنه ، ومن هنا يضعف تعلق الأفراد بالأنساب ، وبخاصة البعيدة منها . وفي وقت الحاجة لا يعدمون وسيلة للإغارة على أي نسب يضمن لهم المركز والشرف والمكانة العالية في نظر معاصريهم .

ويرى بعض المعنيّين بالأنساب أن الأنساب العربية لم تكن قائمة دائماً على الروابط الدموية ، وإنما هي محالفات ربطت بين جماعات عربية تسمت باسم

---

(١) المقدمة ص ١٤٤ .

المكان الذي عاشت فيه . أو باسم الزعيم الذي حكمها وغلب عليها ، وهـذا في رأيي قـد يبـدو مقنعـاً بـالنسبـة لعرب الحواضر ومن كانت لهم دول غير مغلقـة ، يمكن لأفرادهـا الاختلاط بغيرهم عن طريـق الانتقـال منهـا أو إليهـا ، ولكن البـادين ليسوا كذلك .

وهناك فئة من الباحثين وفّرت على نفسها عناء البحث في الأنساب ومحاولـة تفنيدها ونقدها وتجريح رواتها ، وآمنت بالواقع العملي منها ، الذي قامت الحيـاة الأدبية والسياسية والاجتماعية في المجتمع العربي الجاهلي والإسلامي على أسـاسـه[1] ، إذ قد أنشئ الشعر وقامت الأيام وعقدت المحالفـات وكانت المفـاخرات والمنـافرات على أساس هذه الأنساب ، فما جدوى الشك أو الرفض بعد ذلـك ؟. إذا أردنـا أن نكـون عمليين نبحث مـا هـو كائن ونستخلص ونستنتـج مـا يمكن استنتـاجـه واستخلاصه . فنحن لا نستطيع على أية حال أن نفسر الآثار الأدبيـة واتجـاهـاتها والمـواقف القبليـة وعصبيـاتها إلا إذا آمنـا بتلـك الأنسـاب ، ولهـذا قـال الأستـاذ نيكلسون في كتـابـه التـاريخ الأدبي للعرب : (يجب أن تقـوم دراستنـا على إيراد ما كان يعتقده العرب ، فذلك أولى من العناء في نقـد مـا كانوا يعتقـدون) ، فمن ناحية تاريخ الأدب يجب اعتبار الأنساب حقائق أدبية مقررة وإن أنكرهـا بعض المشتغلين بعلم الأنسـاب ، فقـد أسهمت الأنسـاب دون شـك في تـوجيـه الحركات الأدبية والسياسية ، وكان النسب مادة دسمـة لشعراء الفخر والهجـاء والمنـاقضـات قال الأعشى يخاطب قبيلة عاملة بن سبأ :

أعـــامـــلَ حتى متى تـــذهبيـــن إلى غير والـــدك الأكرم ؟
ووالـــدكم قبـــاط فـــارجعـوا إلى النسب الأتلـــد الأكرم

وكـذلـك فعـل جرير والفرزدق ومن لفَّ لفهما من شعراء الفخر والهجـاء

---

(١) تاريخ النقائض ص ٥٧ وتاريخ الإسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن ١ : ١١ .

والمناقرات ، وكذلك فعل بعض شعراء الأوس والخزرج بالمدينة وبخاصة حسان بن ثابت .

والخلاصة أن الأنساب كانت ذات أهمية كبرى في حياة العربي ، وذات أثر فعال في حياته الأدبية ، وعلاقاته الاجتماعية وتحركاته القبيلية ، ونزعاته السياسية بعد ذلك في الدولة الأموية وما بعدها ، بل حتى إبان الدعوة الإسلامية نجد من يقول : كاذب اليمامة خير من صادق مضر . ورغم أن الإسلام حاول الحد من غلواء تلك الفكرة وتقليم ما ينتج عنها من شرور مع حرصه على نقاء النسب بمفهوم آخر هو الاتصال الشرعي ، وقال : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » . وجعل المقياس الذي توزن به الرجال هو التقوى « فلا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » وشنّع القرآن على أبي لهب وتوعده بالنار وبئس القرار ، وهو عم صاحب الرسالة ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ ، ولهذا قال الشاعر المسلم :

وإذا تناسبت الرجال فلا أرى ‏ ‏ ‏ ‏ نسباً يفيد كصالح الأعمال

وقال ﷺ : « من تعزّ بعزاء الجاهلية فأعِضّوه بهني أبيه ولا تكنوا » ، ورغم هذا كله فإننا نرى العربي لا يلبث أن يعود إلى جاهليته الأولى في الاعتزاز بالنسب . وقد تسهم أحياناً عوامل أخرى خارجة عن ذاته في إذكائها واستغلالها لتحقيق أغراضها والتمكين لأهدافها ، ولكن الاعتزاز بالنسب موجود على كل حال . والاعتزاز بالنسب في غير عتو أو مغالاة لا ضير فيه ، ولذا قال الرسول ﷺ : « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش » .

ونسب الأوس والخزرج على كل حال كان أثبت في أذهان الرواة والنسابين وأبعد عن الخلط فيه ، وقد يكون ذلك راجعاً لعدم جرأة الناس عليهم ، بحكم أنهم القوم الذين آووا النبي ونصروه ، ويظهر هذا جلياً في تحرج الشعراء من هجائهم

عندما أوعز إليهم يزيد بن معاوية في أمره مع شاعرهم عبد الرحمن بن حسان وإحجامهم عن ذلك ، إلا ما كان من الأخطل ذلك الشاعر النصراني الذي لا تمثل تلك المنقبة الأنصارية في نفسه أي شيء ، حيث هجاهم بقوله :

دعوا المكارمَ لستمو من أهلها　　وخذوا مساحيكم بني النجار
ذهبت قريشٌ بالمكارم كلِّها　　واللؤمُ تحت عمائم الأنصار

وقد يكون راجعاً لعدم إسهامهم في شؤون الحكم والسياسة ، بعد موقعة الحرة ، حيث استعر الشرُّ بين القبائل ونال بعضهم من بعض بالسيف والقلم واللسان .

ب ـ نسب الأوس والخزرج :

الأوس والخزرج قبيلتان محظوظتان دون شك ، نزح أجدادهما من جنوب الجزيرة العربية من اليمن إلى يثرب ، ليكون لهما بعد ذلك شأن . كأنما كانتا على موعد مع الدعوة الإسلامية الخالدة وصاحبها محمد بن عبد الله ﷺ ، فنصر الله بهما الإسلام وتداركهما به بعدما تفانيا ودقًّا بينهما عطر منْشم ، ، وذلك في يوم بُعاث الذي كان أحد حروب ثلاث لم تعرف العرب[1] أعظم منهن : حرب بُعاث هذه التي كانت بين الأوس والخزرج ، وحرب البسوس التي كانت بين بكر وتغلب ، وحرب داحس والغبراء التي كانت بين ابني بغيض : عبس وذبيان ، والذي استعرنا من شعر زهير بن أبي سلمى فيها دقَّ عطر منشم من قوله يخاطب الحارث بن عوف وهرم بن سنان :

تداركتما عبساً وذبيان بَعْدما　　تفانَوْا ودقُّوا بينهم عطرَ منشم

وجاء في لسان العرب[2] في مادة أوس : الأَوْس : العطيّة ، والعوض ، ومن

---

(١) مجلة العربي الكويتية . العدد ١٩٣ : ١٩ / ١٢ / ١٩٧٤ م .
(٢) لسان العرب ٤ : ٦٥ ط دار الفكر ومكتبة الحياة ، بيروت ١٩٥٥ م .

أسماء الذئب . وأوس : قبيلة من اليمن ، واشتقاقه من آس يؤوس أوْساً ، والاسم الإياس ، وهو من العوض ، وهو أوس بن قيلة أخو الخزرج ، منهما الأنصار ، كان يقال لأبيهم : الأوس ، فكأنك إذا قلت الأوس ـ وأنت تعني تلك القبيلة ـ إنما تريد الأوسيين . وأوس اللات : رجل منهم ، وحُوِّل فقيل : أوس الله .

وفي مادة (خزرج)[1] قال لسان العرب أيضاً : الخزرج من نعت الريح ، وابن سِيدَه : الخزرج : الريح الجنوب . وقيل : الريح الباردة ، قال أبو ذؤيب :

غدوْن عُجالى وانتحتْهُنّ خزرجٌ مُقفّيةٌ آثارَهُنّ هَدُوجُ[2]

وقيل : هي الشديدة . قال الفراء : خزرج هي : الجنوب ، غير مُجراة[3] . والخزرج اسم رجل ، والخزرج : قبيلة الأنصار ، غيره : قبيلة الأنصار وهي : الأوس والخزرج ابنا قيلة ، وهي أمهما ، نسبا إليها ، وهما ابنا حارثة بن ثعلبة من اليمن .

قال ابن الأعرابي : الخزرج : ريح الجنوب ، وبه سميت قبيلة الخزرج . ولنا على ما جاء في اللسان الملحوظات الآتية :

١ ـ إنه قال في حديثه عن الخزرج : قبيلة الأنصار ، وفي حديثه عن الأوس : وهو أوس بن قيلة أخو الخزرج ، منهما الأنصار . ومعنى هذا أن كلمة أنصار تعني عنده الأوس والخزرج فهما على هذا اسمان لمسمى واحد . وليس الأمر كذلك ، فإن كلمة أنصار ليست نسباً لأحد ، وإنما هي لقب مشعر بالمدح ، سمّى الله به كل من ناصر الرسول ﷺ من أهل المدينة ، سواء كان من الأوس والخزرج

---

(١) المرجع السابق ٧ : ٢٠ .

(٢) هدوج : سريعة .

(٣) غير مجراة : غير مصروفة .

أم من غيرهم ، وإن غلب عليهم . أما أنه تسمية من الله فقد ذكر ابن عبد البر[1] : أخبرنا عبد الوارث بن سفيان قال : أخبرنا قاسم بن إصبغ ، أخبرنا أحمد بن زهير قال : أخبرنا عفان وموسى بن إسماعيل : قالا : حدثنا مهدي بن ميمون قال : سمعت غيلان بن جرير قال : قلت لأنس بن مالك : يا أبا حمزة أرأيت اسم الأنصار ؟ اسم سمّاكم به الله أم أنتم كنتم تسمّون به ؟ قال : بل اسم دعانا الله به .

وأما أن لفظ أنصار وإن غلب على الأوس والخزرج يطلق عليهم وعلى غيرهم ممن ناصر الرسول ﷺ من أهل المدينة ، فإن بعض بني جفنة بن عمرو مزيقيا كانوا مثلاً بالمدينة في عداد الأنصار ، وكذلك بعض أحياء من بلي[2] ، وقد قتل الحارثُ بن سويد في الإسلام المجذَّر بن زياد البلوي[3] بالمدينة لقتله أباه في بعض حروب الأوس والخزرج . وكذلك بنو معاوية بن الحارث بن بَهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان .

كما أن بعض الأوس والخزرج لم يكونوا من الأنصار[4] لأنهم لم يكونوا بالمدينة . وذلك مثل بني عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس ، الذين سكنوا عُمان ، وكذلك أبناء السائب بن قطن بن عوف بن الخزرج ، فقد سكنوا بعُمان أيضاً . كما أن بعضاً من الأوس والخزرج عاش منافقاً ومات منافقاً لم يؤمن بالإسلام ولم يناصره ، بل حاربه ودس عليه إلى أن مات .

ولو أردنا أن نقيس الأمر بمدى الإسراع إلى مناصرة الرسول ﷺ فإننا نجد أنه لم يكن للأوس[5] نصيب يذكر في اللقاء الأول مع الرسول ﷺ أو في

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة ١ : ٧ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ١٢٩ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢ : ٨٢ والعصبية القبلية ص ١٨٤ والمرجع السابق .

(٤) الوفاء ١ : ١٧٧ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ١٥ .

المفاوضات الأولى التي جرت بينه وبين أهل يثرب في مكة . وإن اشتركوا بعد ذلك في بيعة العقبة وإيقاع المعاهدة النهائية التي نصت على مناصرة المبايعين (الأوس والخزرج) للرسول ﷺ وحمايته والدفاع عنه بعد انتقاله مع أصحابه إليهم في يثرب ، وأيام هجرته ﷺ إلى المدينة لم يكن عددهم كبيراً كما هو الحال بالنسبة للخزرج ، لأن بعضهم كان قد هاجر تحت ضغط حروبهم مع الخزرج إلى خارج يثرب ، وظل الكثير منهم زماناً طويلاً بمعزل عن الإسلام . وبهذا يتضح أنه ليس كل أوسي أو خزرجي أنصارياً ، ولا كل أنصاري أوسياً أو خزرجياً ، بل قد يكون ولا يكون .

ولا أريد أن أخطِّئ صاحب اللسان ، فذلك مرتقى صعب لا أدعيه لنفسي . وإنما قصدت أن أنبه إلى أن غلبة اسم الأنصار على الأوس والخزرج وكونهما العنصر الغالب في ذلك جعلته يغفل هذه التفرقة الدقيقة ولا يُلقي لها بالاً ، كما فعل كثيرون غيره ، كالسمهودي في وفاء الوفاء والطبري في تاريخه ، من القدماء ، والدكتور إحسان النص في العصبية القبلية من المحدثين ، بل إن ابن الأثير في كتابه (الكامل) يرتكب تجاوزاً آخر ، وهو تسميتهم باسم الأنصار أثناء حديثه عن حروبهم في الجاهلية ، وذلك ما لم يقل به أحد ، وإنما هو ضرب من التجاوز أو باعتبار ما سيكون على حد قول (البلاغيين) .

٢ ـ الملحوظة الثانية : الريح الجنوب . فهذا يقدح في ذهني ما ادعاه بعض المستشرقين من أن الأنساب العربية على النحو الذي أورده النسابون غير صحيحة ، لأن النسب العربي في نظرهم لم يكن قائماً على أساس أبوي ، بل كان قائماً على أساس الطوطمية ، ولم تعرف الأنساب العربية الرابطة الأبوية إلا قبيل الإسلام . فأفراد القبيلة كانت الصلة بينهم قائمة على أساس اعتقادهم أنهم أخوة من دم واحد ، تربط بينهم وشائج ذات طابع ديني ، مستمدة من تقديسهم[1] لحيوان

---

(١) العصبية القبلية ص ٢٤ .

معين أو نبات خاص ، أو ظاهرة طبيعية معينة كالذئب والريح بالنسبة للأوس والخزرج ـ مثلاً ـ وكأسماء بعض القبائل العربية الأخرى ، مثل بني كلب ، وبني كليب ، وبني ثور ، وبني أسد ، وبني ضبّة وبني جُعَل ، وبني الأرقم ، وبني دُئل ، وبني يربوع ، وعنْزة ، وبني حنظلة ، وبني عِجْل ، إلى آخر ذلك من الأسماء التي تسمت بها القبائل .

وقد ردَّ جرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) رأي صاحب هذه النظرية في تطبيقها على الأنساب العربية وسفّهه .

وقبله بزمن بعيد تنبه أبو بكر بن دريد إلى وجود مثل هذه التسميات واستجهل في كتابه (الاشتقاق) من طعن على العرب في ذلك ، ومما قاله : [واعلم أن للعرب . . . الخ] ، [ومنها ما تفاءلوا به للأبناء نحو نائل ووائل وناج ومُدْرك وسالم وسليم . . . الخ] ، [ومنها ما سُمّي بالسباع ترهيباً لأعدائهم نحو أسد وليث وفراس وذئب . . . الخ] ، [ومنها ما سُمّي بما غلظ وخشن من الشجر تفاؤلاً أيضاً ، نحو طلحة وسَمُرة وسَلَمة وقتادة ، وكل ذلك شجر له شوك وعضاة . .] ، [ومنها ما سمي بما غلظ من الأرض وخشن لمسه وموطئه مثل حجر وحجير وفهر ... الخ] ، [ومنها أن الرجل كان يخرج من منزله وامرأته تمخض ، فيسمى ابنه بأول ما يلقاه من ذلك نحو ثعلب وثعلبة وضب وضبّة وكلب وكليب ، وحمار وجَحْش ، وكذلك يسمى أيضا بأول ما يسنح أو يبرح من الطير ، نحو غراب وصُرَد وما أشبه ذلك] .

وتعرض لهذا الجاحظ أيضاً ، فقال : (والعرب إنما كانت تسمي بكلب وحمار وحجر وجُعَل وحنظلة على التفاؤل بذلك) ثم استرسل في تأويل كثير من الأسماء العربية المشهورة .

وممن قال بالطوطمية في الأنساب العربية : المستشرق الإنجليزي روبرتسن سميث ذلك أن مذهبهم قائم على أن الأسرة في المجتمع الانساني مرت بأطوار عديدة

حتى اتخذت شكلها الحالي ، كان من أولها الأسرة أو الجماعة الطوطمية ثم الأمومية ثم الأبوية إلى آخر تلك الأطوار ، والظاهرة الاجتماعية ـ كما يقرر علماء الاجتماع ـ تتصف بالعمومية ، أي أنها تكون موجودة في كل المجتمعات البشرية على اختلاف أنواعها وأحجامها ، ولذا فهم يطبقون ما ثبت لديهم في تاريخ مجتمعاتهم الأوروبية على غيرها من بقاع الأرض ، وهذا في نظري ليس على إطلاقه ، فكما أن الظاهرة الاجتماعية قد تنمو وتبرز في مجتمع ما إلى حد تتحول معه إلى مشكلة اجتماعية ، فإنها قد تضمر أو تضمحل في مجتمع آخر حتى لا يكون لها وجود ، أو أنها قد لا يكون لها وجود أصلاً لعدم وجود مسبباتها .

والعرب في جاهليتهم البعيدة أو القريبة كانت حياتهم تعتمد على البساطة والوضوح . لا على الغموض الذي يحاط به الطوطم عادةً ، بساطةٌ مستمدة من روحهم الكريمة ، ووضوح مكتسب من أرضهم المكشوفة الواسعة ، فليس بجزيرتهم أدغال مدارية ولا مرتفعات هندية ، ولا متعرجات كثيفة متأشّبة ، وقد انعكست تلك البساطة وهذا الوضوح على لغتهم وآدابهم ، ومن الطبيعي أن تنعكس على أنسابهم ، فلا تكون لها أية صلة بالغموض والقداسات الطوطمية ، ثم إن المنطقة العربية ـ كما تخبر الكتب المقدسة ـ كانت ميداناً لكثير من الرسل والأنبياء ، الذين وصلوا المنطقة بالله اتصالاً دائماً يمنع من تهيؤ الجو المناسب لظهور الطوطمية ، وكانت الرسالات كلها على لسان الرجال ، معتمدة أسرة الرجال ، أي الأسرة الأبوية . أما ما يمكن أن يقال عن وجود بعض النقوشات والرسومات لأنواع من الحيوان والنبات في آثار العرب الأقدمين على صورة تشبه نوعاً من التقديس ، فليس في ذلك أية دلالة على الطوطمية ، لإمكان أن تكون مجرد رسومات أو شعارات للتمييز ، كما يقع في أكثر العصور تقدماً وتطوراً وحضارة .

ومن هنا نستبعد نظرية الطوطمية عن النسب العربي بعامة وعن نسب

الأوس والخزرج بالذات ، وكل ما في الأمر أن الأوس والخزرج علمان من الأعلام المنقولة لا المرتجلة ولا شيء غير ذلك .

٣ ـ والملحوظة الثالثة تتصل بقول صاحب اللسان عن الأوس والخزرج : إنهما ابنا قيلة وهي أمهما نُسبا إليها .

وهذا يجعل رقاب بعض المعترضين على الأنساب العربية تشيح في إيماء وعجب ، مشيرة بذلك إلى دعوى أخرى وشيجة الصلة بسابقتها ، نابعة منها ، وصاحبها روبرتسون سميت أيضاً ، وهي : أن الأنساب العربية كانت قائمة على الأمومة لا على الأبوة وصلتها بالطوطم آتية من أن الزواج محرم بين أفراد الجماعة التي تنتمي إلى طوطم واحد كما قدمنا ، ولذلك يعمد رجال القبيلة إلى اختطاف[1] زوجاتهم من قبيلة أخرى ، بالإضافة إلى رأيهم أن الزواج عند الأمم القديمة كان فوضوياً ، يشترك فيه أكثر من رجل في امرأة واحدة ، وفي مثل هذه الظروف يكون التعرف على الأب متعذراً . وبذلك تقوم أواصر القربى على أساس الأم ، وأيدوا زعمهم بإيراد مجموعة من الأسماء المونثة التي تسمت بها القبائل العربية مثل : مدركة ، وطابخة ، وخندق ، وظاعنة ، وقَيْلة ، وجديلة ، ومرّة ، وعطيّة ، وباهلة ، وخزاعة ، وغَزِيّة ، وعاملة ، وبجيلة ، ومزينة ، وجهينة ، إلى غير ذلك من الأسماء . والأسرة الأمومية على هذا نابعة من الأسرة الطوطمية متطورة عنها .

وفي رأيي أن هذا الرأي ليس أقل خطلاً عن سابقه ، لأنه مبني على نظريات اجتماعية مستمدة من دراستهم لمجتمعات بدائية في أمريكا واستراليا وافريقيا ، افترضوا أنها عاشت وظلت منعزلة عن غيرها من المجتمعات ، وهي بذلك تمثل صورة المجتمع البشري الأول في أي مكان من الأرض ومنها المجتمع العربي الجاهلي . وقد ناقشنا هذه الفكرة في الملحوظة الثانية ودعمنا وجهة نظرنا بتفسير ابن دريد

---

(١) العصبية القبلية ص ٢٣ ، والمفصل في تاريخ العرب ١ : ٥٢١ .

والجاحظ ، وأضيف هنا أنه لا ضير من نسبة أبناء الرجل إلى أمهم دون أن يُنسى الأب أو يسقط من الحساب بالمرة . وذلك إن كانت الأم مشتهرة لسبب من الأسباب ، كموت الأب وهم صغار ، وقيامها هي بشؤونهم ، أو لموقف بطولي عام أو خاص قامت به الأم ، أو لكون الأم غريبة عن قبيلة الأب ، أو لا تصاف الأم بصفة خُلُقية أو خَلْقية ملفتة ، إلى غير ذلك من الأسباب ، ولهذا الاتجاه دلائل كثيرة من واقع حياتنا اليوم . والأوس والخزرج على هذا اشتهروا باسم آبائهم وبجانب ذلك اشتهروا بنسبهم إلى أمهم قَيلة لما لها من مكانة وشرف نِجار ، دون أن يكون لذلك أي معنى أو دلالة على علاقتهم بالأسرة الأمومية ، وهي قيلة بنت عمرو بن جفنة[1] ، ولهم يقول الشاعر :

بها ليلُ من أولاد قيلة لم يجد ... عليهم خليطٌ من مخالطة عتبا
مطاعيمُ في المَقْرَى ، مطاعينُ في الوغى ... يرون عليهم فعلَ آبائهم نحبا

وحسان بن ثابت يمدح الغساسنة فيذكر اسم أمهم مارية ، لما لها من فضل عليهم يقرون به ويعترفون ويفاخرون :

أولاد جفنة حول قبرِ أبيهمُ ... قبرِ ابن ماريةَ الكريم المفضل

٤ ـ والملحوظة الرابعة هي ما جاء في اللسان من قوله : إن الأوس والخزرج قبيلتان من اليمن ، وهي محط رحالنا في الحديث عن نسب الأوس والخزرج . وقد اعتاد النسابون أن يقسموا العرب إلى :

عرب بائدة كعاد وثمود وطسم وجديس والعماليق (سكان يثرب الأوائل) وجرهم (سكان مكة الأوائل) وقد باد بعضهم بالمحن ، والعقوبات السماوية

---

(١) وفاء الوفاء ١ : ١٧٣ وفي سيرة ابن هشام ١ : ٢١٩ هي قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ، ونسب البيتين للنعمان بن بشير الأنصاري ، إلا أنه روى البيت الثاني كالآتي :

مساميحُ أبطالٌ يراحون للندى ... يرون عليهم فعل آبائهم نحبا

المختلفة ، التي أخبر القرآن عن بعضها كعاد وثمود ، وباد البعض الآخر بذوبانه في غيره من الوافدين والمهاجرين كجرهم والعماليق .

وعرب عاربة ، وهم القحطانيون باليمن .

والعرب المستعربة ، وهم أبناء إسماعيل أو العدنانيون .

وحول هذا التقسيم خلاف كبير ونقاش طويل ، لا يمكن حصره ولا الإحاطة بجوانبه بسهولة ، أما القرآن الكريم فقد ورد فيه ما يدل على أن العرب الباقية كانوا ينظرون إلى أنفسهم أنهم ينحدرون من جد أعلى واحد هو إبراهيم عليه السلام : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ . ولا يتبادرنّ إلى الذهن أنهم أبوة إسلامية ، فحمل اللفظ على الحقيقة أولى من حمله على المجاز متى أمكن ذلك . وإذا كان الأمر كذلك كانت عروبة ولد إسماعيل مستمدة من عروبة العرب البائدة (جرهم) ، ثم تفرق العرب من ذريته بعد ذلك إلى شعبين : قحطانية وعدنانية ، خضعت كل منهما إلى عوامل مختلفة ، طبعتها بطابع خاص امتد إلى كثير من جوانب حياتها ، حتى تباعدت لغة الفرعين تباعداً ملموساً جعل المثل العربي يقول : من دخل ظفار حمّر . وجعل أبا عمرو بن العلاء يقول عن عربية اليمن : إنها ليست بعربيتنا ، لكن ذلك الاختلاف لم يتعمق ولم يتكرس بحيث ينعدم التفاهم بين الطرفين ، فكان من السهل عودة أحد الطرفين إلى لغة الآخر ، وهذا ما حصل بالنسبة للقحطانيين المهاجرين إلى بلاد العدنانيين ، كالأوس والخزرج والغساسنة واللخميين وكندة وخزاعة ، بالإضافة إلى أن اللغة الغالبة - فيما يبدو - كانت هي العدنانية ، ويعلن الشاعر الخزرجي[1] المنذر بن حرام بن عمرو ، جد حسان بن ثابت تأكيده للنسب الإسماعيلي ، أي أن القحطانيين والعدنانيين يرجعون إلى جد واحد ، هو إسماعيل عليه السلام ، فيقول :

---

(١) الوفاء ١ : ١٧٣ .

ورثنـــا من البهلــول عمرو بن عــامر وحــارثــة الغطريف مجـداً مــؤثــلا
مــآثر من آل ابن نبت بن مــالـــك ونبت ابن اسماعيــل مـــا إن تحــولا

وكذا روي عن الرسول ﷺ أنه قال للأوس والخزرج ذات يوم : « ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » .

فـالأوس والخزرج على هـذا النحو إسماعيليـون من ذريـة قحطـان ، فهما في الأصل أخوان من أب واحد ، هو حارثة بن ثعلبـة[1] العنقـاء (لطول عنقـه) بن عمرو مَزيقيا (لأنه كان يمزق عنه كل يوم حلة لئلا يلبسها أحد بعـده) بن عـامر ماء السماء (لسماحته وبذله ، كأنهّ ناب مناب المطر ، وقيل : لشرفه) بن حـارثـة الغطريف (لشجاعته) بن امرئ القيس البطريق (لأنه أول من استعـان بـه بنو إسرائيــل من العرب بعــد بلقيس ، فبطرقــه رحبعم بن سليمــان بن داود عليهما السلام ، وأصح منه أنه تسمية رومانية) بن ثعلبـة بن مـازن بن الأسـد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وقـد نقل عن ابن عبـاس أن الرسول ﷺ كان يقـول[2] إذا وصـل النسب إلى عدنان : « من هنا كذب النسـابون » . وقـالوا : إن الإمـام مـالكاً رضي الله عنـه سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم ، فكره ذلـك ، وقـال : من أين يعلم ذلـك ؟ فقيل له : فإلى إسماعيل ؟ فـأنكر ذلـك أيضـاً وقـال : من يخبر بـه ؟ ويقول ابن خلدون : إن كثيراً من علماء السلف ذهبوا هذا المذهب ، وقـال حسـان بن ثـابت ذاكراً بعض أجداده[3] ممن هم دون قحطان :

فـإن تـك عنـا معشر الأَسْــد سـائـلاً فنحن بنو الغوث بن زيـد بن مـالـك

---

(١) الكامل لابن الأثير ١ : ٤٠٠ وفي الوفاء ١ : ١٧٣ مع اختلاف قليل ، والأسـد : لغـة في الازد . والعقد الفريد ٣ : ٢٩٢ . والمختصر في تاريخ البشر للملك المؤيد ١ : ١٠١ .

(٢) العصبية القبلية ص ١٧ .

(٣) الديوان ص ١٧٤ .

لـزيـد بن كهلان الـذي نـال عـزّه	قـديمـاً دراريّ النجـوم الشـوابـك
إذا القـوم عـدُّوا مجـدهم وفعـالهمْ	وأيـامهم عنـد التقـاء المنـاسـك
وجـدتَ لنـا فضـلاً يقِرُّ لنـا بـه	إذا مـا فخرنـا كلٌّ بـاقٍ وهـالـك

وسواء كان نسب القحطانيين الـذي يتصل بـه نسب الأوس والخزرج ينتهي بإسماعيل الذي ينتسب إليه العدنانيون ، أم كان نسبـاً مستقلاً كما هو الشائع عند أكثر النسابين القدامى ، فإن الذي لا شـك فيـه أن العرب الجنوبيين القحطـانيين بصفة عامة كانوا أكثر تقدماً وتحضراً ، فقد قامت لهم دول كثيرة في بلادهم ، ولهـذا نجدهم بعد هجرتهم إلى المناطق الشماليـة من الجزيرة (بلاد الكنعـانيين) يستولون فيها على مقاليد الحكم ، كالغساسنة واللخميين وكندة . والذي لا شـك فيـه أيضـاً أن التفاخر بين العدنانيين واليمانيين كان قـائمـاً على أشـده ، وكان في الوقت نفسـه قائماً بين فروع الجذمين المذكورين بالضراوة نفسها ، مما يفقده القدرة على إعطـاء أية دلالة مفيدة في تحديد العلاقة النسبية .

وإذا كان أقوام قد شكوا كما قدمنا حتى في القدر الذي حددنـاه من الأنسـاب العربية بقحطان وعدنان ، فإن عالماً مستشرقاً مثل « دوزي » يؤمن بـه ويؤيـده وكذلك فعل جرجي زيدان من المؤرخين في العصر الحديث .

وإذا كان الأوس والخـزرج كما عرفنـا في نسبهم من العرب القحطـانيين ومن أهل اليمن فما قصة انتقالهم منها ونزولهم يثرب ؟ ذلك ما سنجيب عليـه في الفقرة التالية .

ج : نزولهم يثرب :

يرى المستشرق الشهير[١] عبد الله فلبي أن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين عـامـة ففيهـا ترعرعت الشعوب السـاميـة جميعهـا ،

---

(١) المفصل في تاريخ العرب ١ : ٢٢٢ .

وكانت تلك الأراضي غاية في الخصب وتوافر المياه ، حتى إن بعضهم يشبه الجزيرة العربية ، في تلك العصور بأوروبا في العصر الحاضر ، ولما ابتدأت فيها عصور الجفاف اضطرت تلك الشعوب إلى الهجرة في موجات متعاقبة إلى المناطق التي استقرت فيها ، ومن هنا شبه بعضهم الجزيرة العربية في تلك العهود بخزان بشري ، يفيض بين الفينة والأخرى بما فيه فيسيل ماؤه إلى أطرافه . وكثير من الباحثين يكاد يجزم بأن هذه الهجرات كانت تتخذ خط سيرها من الجنوب إلى الشمال .

فاليمن في رأي فلبي وجماعة آخرين من المستشرقين هي مهد العرب ومهد الساميين[1] ، وبالنسبة للعرب نستطيع أن نسميها (مصنع العرب) وذلك لأنها أمدت الجزيرة العربية بعدد كبير من القبائل ، والذي يهمنا بالطبع هو الهجرات العربية القحطانية من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية ووسطها : كيف تمت ؟ وما أسبابها ؟ وكيف نزل الأوس والخزرج - وهم أصلاً من اليمن - إلى يثرب ؟

مرت اليمن أو البلاد السعيدة كما كان يسميها المؤرخون القدماء من عرب وغيرهم ، بمرحلة حضارية عالية ، بدأت منذ شاء الله لها أن تبدأ ، وقامت فيها دول كان لها شأن في الداخل والخارج وتركت آثاراً تدل عليها ، ولعل أقدم الإشارات الوثائقية إلى العرب وبلادهم هذه هو ما ورد في كتابة على تمثال[2] لنارام سين ترجع لسنة ٢٣٠٠ ق . م ، وهو خليفة سرجون مؤسس الدولة الأكادية في بلاد ما بين النهرين كما ورد ذكر سبو (أي سبأ) في كتابة أخرى بالعراق أيضاً تعود إلى سنة ٢٣٠٠ ق . م كذلك .

---

(١) المرجع السابق ١ : ٢٣٢ .

(٢) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول للدكتور نبيه عاقل ص ٥٣ ط دار الفكر بدمشق الطبعة الثالثة ١٩٧٥ م .

ويـذكر المؤرخـون للمعينيين أنهم كانـوا يستعملـون الحروف في كتـابـاتهم في الوقت الذي كان فيه معاصروهم يستعملون الكتابة المصورة ، بل إن هنـاك[1] من يذهب إلى القول أنهم أول من اخترع الألفباء ، وأنها انتقلت من عنـدهم إلى سينـاء وبلاد الفينيقيين ومنها إلى اليونان . ولكن هـذه البلاد المزدهيـة بحولها وطَوْلها ، الـزاخرة بخبراتهـا ، لم تلبث أن تعرضت دولهـا في العصر الجـاهلي الأخير[2] إلى الانحطاط ثم الانقراض لعوامل اقتصاديـة ، كالجفـاف الـذي أشرنـا إليـه سـابقـا ، وتضـاؤل حجم تجـارة القـوافـل البريـة التي كانت تعتمـد عليهـا هـذه الـدول أشـد الاعتماد ، على أثر النشاط التجـاري الـذي قـام بـه الرومـانيون في البحر الأحمر في القرون الثلاثـة الأولى قبل الميلاد ، فقـد كان السبئيـون مـلاحين مهرة في المحيـط الهنـدي والبحر العربي ، يعتمـدون في تسيير سفنهم على حركـة الريـاح الموسميـة ، واحتفظـوا لأنفسهم بمـواعيـد هـذه الريـاح واعتبروا ذلـك سراً لا يُطلِعـون عليـه أحداً ، مما ساعدهم على احتكار التجارة مع الهند وتكدُّسِ الأموال تبعا لـذلـك بين أيديهم وبناء علاقتهم بغيرهم على أساس هذا الوضع ، ولكن ملاّحا رومـانيـا اسمـه هيبـارخـوس في أواخر القرن الثـاني ق . م أو الثـالث أحـاط[3] بخفـايـا الطرق البحرية وتغيرات الرياح الموسمية ، ونجح في الخروج إلى المحيط الهنـدي ، والعودة منه ، وقد حمل حمولة من السلع ذات القيمة العـاليـة من بينهـا القرفـة والفلفل من الهند ، وعلّم هيبارخوس هذه الأسرار إلى ملاّحين آخرين من بني قومه ، فأخذت السفن الرومانية تبحر بنفسها في المحيط الهندي ، وتجلب البضائع من جنوب آسيا والهند ، دون حـاجـة للسبئيين ، وقـد أدى هـذا إلى تنـاقص أهميـة الطريق البري الذي كان يسير من عدن مخترقا الهضبة اليمنية إلى وسـط الحجـاز . بـالإضـافـة إلى بعض العوامل السياسية من الداخل أو من الخارج ، فقد كان أهل هـذه البلاد على

---

(١) المرجع السابق ص ٩٢ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد ص ١٢

(٣) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ﷺ ٩٨

صلة وثيقة بالأحداث الكبرى التي كانت تجرى في العالم آنـذاك ، فغزوا الأحبـاش كما غزوهم ، وهاجمهم الرومان فصدوا هجماتهم وردوهم منكسرين ، وحاربوا الفرس وهزموهم ، إلى غير ذلك من الأحـداث ، وقـد كان الصراع[1] للسيطرة على الطرق والممرات التجارية في الجزيرة العربية هو الطابع المميز لتاريخ الفترة الواقعـة بين الألف الثـانيـة قبل الميـلاد وفترة الحكم الرومـاني ، وتمكن الامبراطـور[2] الرومـاني أغسطس سنة ٢٥ ق . م من إرسال حملة إلى مـأرب للسيطرة على مصـادر البخور والأفاوية ، ولكنه فشل في ذلك بعد حصار مـأرب ستـة أيـام ، وتعريض جيشـه للدمار ، فهاجرت قبائل كثيرة منها انتشرت في بقاع مختلفة من الجزيرة .

وقد كان العرب بعامة يعرفون لتلك البلاد ماضيها الحضاري الشامخ ، ولـذا اتخذ القرآن منها سبيلاً للموعظة والتذكير فقال[3] : ﴿ لقـد كان لسبـأ في مسكنهم آيةٌ جَنّتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكُمْ ، واشكروا له ، بلدةٌ طيبـةٌ وربٌّ غفور ، الآيات . . ﴾ .

وممن أيَّد حدوث هذه الهجرات المستشرق[4] كيتاني والمستشرق بلاشير ، وبهذا عللا الطابع اليمني الذي تركته تلـك الهجرات على بعض الأعلام السوريـة ، وعللا به وجود فروع عديدة لبعض القبائل اليمنية في مناطق مختلفـة من الجزيرة ، مثل قبيلة كندة وقبيلة الأزد التي منها الأوس والخزرج .

فبعد التغيرات الاقتصادية والسياسيـة التي منيت بهـا البلاد اليمنيـة تفككت الدول التي كانت قـائمـة بهـا وسقطت ، وكثرت الفتن والحروب الأهليـة ، وتوالت غارات القبائل على بعضها ، لعدم وجود قوات نظـاميـة وحكومـة ترد اعتـداءات

---

(١) المرجع السابق ص ٥٥

(٢) المرجع السابق ص ٩٩

(٣) سورة سبأ : ١٥ ـ ١٨ .

(٤) العصبية القبلية ص ٢٢ .

الأعراب ، وتفشت بعد ذلك الجهالات وتناقصت العلوم ، حتى عجزوا عن صيانة السدود العظيمة التي بناها أسلافهم فانهارت الواحد بعد الآخر ، وفقدوا بذلك حياتهم الزراعية المستقرة وجنائنهم الغناء التي تحدث عنها القاصي والداني ، وكانت أعظم كارثة هي انهيار سد مأرب الذي كان أضخم سدود اليمن جميعاً . . والذي بناه الملك السبئي (ذمّر علي وتر) في أوائل الألف الأولى قبل الميلاد ، واتخذ شكله النهائي على يد (شمّر برعش) حوالي ٣٠٠ ق . م كانت تقف من ورائه مياه هادرة للسقي والزراعة ، فلما تآكل وتساقط انفلتت تلك المياه العارمة كالمارد الجبار ، تكتسح كل شيء أمامها من بشر وحيوان ونبات ، ولهذا أسموه سيل العرم ، من العرامة وهي الشدة والقوة . وقال ابن هشام[1] : (العرم : السد ، واحدة عرمة ، فيما حدثني أبو عبيدة) ، وقال أعشى قيس[2] :

وفي ذاك للمؤتسي أسوةٌ ... ومأرب عفّى عليها العَرِم

رُخَامٌ بنتْه لهم حِمْيَرٌ ... إذا جاء مَوّاره لم يَرِم

فأروى الزروع وأعنابها ... على سَعَةٍ ماؤهم إذ قُسِم

فصاروا أياديَ ما يَقْدِرو ... ن منه على شُرْبِ طفلٍ فَطِم

وقال أمية بن أبي الصلت :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ ... يبنون من دون سيله العرما

وتفرقت القبائل القحطانية من جرائه أيدي سبأ كما يقول المثل . ويرى البعض[3] أن الروايات العربية تبالغ بعض المبالغة في نتائج حادث سيل العرم قائلين إن تدميرات السيل لا يمكن أن تتجاوز الأراضي الزراعية التي كانت حول

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ١٤ .

(٢) المرجع السابق ، وأيادي : متفرقين .

(٣) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٩٥ .

مأرب ، ولكن هذا الرأي في نظري بيّن الخطل ، ذلك أن مياه السد كانت تقوم عليها أراض زراعية شاسعة أصبحت تكوّن عصباً رئيسياً في الاقتصاد اليمني ، فلا بد أن تتأثر بخرابه الحالة الإقتصادية العامة ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن القرآن عبَّر عن هذه الحادثة بقوله : ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ فخراب السد إذن كارثة كونية غير عادية عاقب الله بها هؤلاء القوم كما عاقب أقواماً آخرين بإرسال الريح وإرسال الصيحة وإرسال الطوفان ونحوها . ومع هذا فالظاهر أن الأزد ومنهم الأوس والخزرج والغساسنة كانت قبائل تعيش تحت حكم سبأ وتتصل بهم بنسب أو ولاء ، ثم انهزمت إلى الشمال زمن غلبة الأوسانيين على اليمن ، أو بعد أن تمكن الحميريون من القضاء على دولة سبأ ، قبل[1] حادثة سيل العرم تحت قيادة زعيمهم عمرو بن عامر ، وقد ارتحل عمرو بن عامر[2] في ولده وأحفاده ، وقالت بقية الأزد : لا نتخلف عنه ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد عك يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ولم تقبل نزولهم ببلادها ، فارتحلوا عنها وتفرقوا بعدها في البلدان ، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام . فملوك الشام منهم . ونزلت خزاعة مَرّ الظهران ، وهو من أحواز مكة ، ولذا قال حسان بن ثابت :

ولما هبطنا بطن مَرٍّ تخزّعت ... خزاعةُ عنا في حلول كراكر[3]

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٢ ويعتقد فلبي أن ظهور الملكية في أوسان كان حوالي سنة ٢٣٠ ق . م حتى سنة ١١٥ ق . م ولكنّ هناك نقشاً يعود للقرن الخامس قبل الميلاد يذكر انتصار الملك السبئي (كرب ايل وتر) على ملك أوسان مما يدل على وجود ملوك في أوسان في هذا التاريخ . وقد كانت أوسان من جملة الذين تقاسموا الغنيمة السبئية بعد زوال دولة سبأ .

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣ والمفصل في تاريخ العرب ٤ : ٤٣٤ وما بعده .

(٣) المفصل في تاريخ العرب ٤ : ٤٣٩ وكراكر : جمع كركور ، وهو الوادي البعيد القعر . ومر الظهران بوادي فاطمة الآن ، القريب من مكة على طريق المدينة . ولا تزال توجد هناك قرية صغيرة تسمى مَرّ .

ونــزلت أزد السراة[1] ، السراة ، ونــزلت أزد عُمان ، عُمان ، ومنهم آل الجلندى ملوك عمان ، ونزلت[2] الأوس والخزرج يثرب ، وكان اليهود قد سبقوهم إليها بوقت غير بعيد وسكنوا فيها ، وأهم قبائلهم النضير وقريظـة وبنو قينقـاع ، وسنخص نـزول اليهـود ـ وهم العنصر الرئيسي الثـاني في بنيـة المجتمـع اليثربي في الجاهليـة ـ بفقرة خـاصـة في مكانهـا إن شـاء الله ، وكان اليهود حين نزول الأوس والخـزرج عليهم ، في بحبـوحـة من العيش ، وعلى قـدر كبير من المنعـة الحربيـة ، ولكن إحسـاسـهم بـأنهم طـارئـون دخـلاء ، قـد وفـدوا إلى يثرب من أورشليم في ظروف مختلفـة ولغـايـات مختلفـة ، حـال بينهم وبين القـدرة على منـع الأوس والخزرج من مجـاورتهم ، فـاكتفوا ببسـط نفـوذهم الاقتصـادي والاجتماعي ، وقبـل المهـاجرون ذلـك على مضض ، ولمـا ثبتت أقـدامهم وتمكنـوا في الأرض ، رفضـوا صلف اليهـود وكبريـاءهم وأنفـوا من المـذلـة ، ورامـوا التخلص من تلـك الحـال المهينـة[3] ، وبخـاصـة بعـدمـا أحسوه من تعمـد الفِطْيون ـ أمير اليهـود ـ إهـانتهم والنيل من كرامتهم . فاستعانوا عليهم بأبناء عمومتهم ملوك الشام من آل جفنـة ، وبذلك كسروا شوكـة اليهود ، وعـاشوا سـادة في بلادهم ، فلجـأ اليهود إلى وسيلـة جـديـدة هي الـدس والخـديعـة ، ففرقوا بين أبنـاء العمـومـة ، وأفسـدوا مـا بين القبيلتين وزرعـوا الشر بينهما وأجَّجـوا نـار القتـال ، ابتـداء من حرب سُمير حتى حرب بُعـاث قبل ظهور الـدعوة الإسلاميـة بقليـل ، وكان من مكرهم أنهم قسمـوا أنفسهم حلفـاء للفريقين ، تمكينـاً للبغضـاء والحرب ، وإذكـاءً لنـار العـداوة بين القبيلتين ، وبقيت الأمور تسير على تلك الحـال ، حتى تـدارك الله العرب بلطفـه حين بعث محمداً ﷺ بنور الإسلام .

---

(١) كانت العرب تلقب الأزد وعبد القيس : الكَرِشان كما ذكر ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٤٠٥ .

(٢) الاستبصـار في نسب الصحـابـة من الأنصـار ص ٥ مقـدمـة . والأعـلاق النفيسـة لابن رستـة ص ٦٣ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١ : ٤٠٢ والوفاء ١ : ١٧٧

٣ ـ منازل الأوس والخزرج في يثرب

تعاقب على سكنى المدينة ـ كما رأينا ـ العمالقة وبنو عبيل واليهود ، وقدم الأوس والخزرج من اليمن ، فلم يحسن اليهود جوارهم ، ولم يختلطوا بهم إلا في حدود ضيقة وبدافع الاستغلال ، رغم أن الأوس والخزرج اتخذوا منازلهم في عالية المدينة وسافلتها حسب الفروع والأفخاذ ، ورغم تنازلهم لليهود عن كثير من الحقوق لأنهم كانوا في تخوف منهم ، لما لليهود من وفرة في العدد والعدة وامتلاك للثروة والآطام ، ولهذا نراهم[1] عندما أحسوا بشيء من القدرة والقوة يبادرون إلى مطالبة اليهود بتوقيع معاهدة حلف وحسن جوار ، تضمن للجانبين الحقوق وتحدد المسؤوليات ، ويكونون بها قوة على من سواهم ، ونشأ عن هذا الموقف الجديد شيء من التكافؤ ضَمِنَ للعرب كثيراً من حقوقهم الضائعة ، وصحبه أيضاً كثير من الرخاء والازدهار الاقتصادي بالمدينة في الزراعة والتجارة وغيرهما .

ونحن لا نستطيع تحديد تاريخ نزول الأوس والخزرج بيثرب تحديداً دقيقاً ، ولكننا نؤكد أنه كان قبل الميلاد أو بعده بقليل ذلك أن العياشي[2] يرى أن وصول اليهود والأوس والخزرج إلى يثرب كان في أوقات متقاربة ، ودوزي[3] يربط أيضاً ما بين أحداث اليهود وفعل الغزاة وأحداث عرب الجنوب بفعل الكوارث والحوادث ، ونحن نعرف أن تنكيل الامبراطور الروماني (تيتوس) باليهود وفرارهم منه إلى الحجاز عام ٧٠ م ومعنى هذا أن الأوس والخزرج نزلوا يثرب أيضاً خلال المائة الأولى الميلادية .

---

(١) الوفاء ١ : ١٧٧ .

(٢) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٢٦ .

(٣) الشعراء اليهود العرب ص (جـ) .

أما ما ذكره سيديو[1] من أنهم نزلوها سنة ٣٠٠ ميلادية ، فإنه يصعب قبوله إذا قسناه بعدد فروعهم التي سنذكرها بعد قليل ، ثم إذا قسناه بتعدادهم السكاني الذي نيَّف في تقديرنا على مائتي ألف نسمة ، والذي استفدناه من بعض الإشارات الأخبارية المبعثرة ، والثلاثمائة سنة التي قضوها بعد ذلك قبل الهجرة النبوية غير كافية لإنشاء تلك الأجيال الكبيرة ، فلا بد إذن من مدة أطول لا تقل بحال عما رجحناه .

وفي الواقع إن أبناء قحطان كما قلنا كانوا ينزحون باستمرار إلى الشمال وفي الألف الثانية قبل الميلاد هاجروا من الجنوب إلى داخل الجزيرة العربية واستقروا في موطنهم الجديد . كما تم في هذه الفترة تأهيل الجَمل في الجزيرة العربية ، ويعتبر هذا العمل أول إسهام للجزيرة في التقدم البشري ، إذ كانت الجمال قبل ذلك حيوانات غير أليفة ، وتُصاد فيما يصاد من حيوان البر ، كما أثبتت الحفريات الأخيرة التي أجريت بالفاو في وادي الدواسر ، بالمملكة العربية السعودية . وليست صعوبة تحديد التاريخ هنا راجعة لظروف خاصة بهذين الحيين ، فإن أغلب التواريخ العربية الجاهلية كذلك ، لأن العرب لم يكونوا يؤرخون[2] على أمر معروف يعمل به عامتهم ، وإنما كانوا يؤرخون بأمور غير منضبطة كالتاريخ بقحط شديد ينزل بناحية من بلادهم ، أو بعامل كان عليهم ، أو بحادث جلل حدث وانتشر خبره عندهم ، وقد كان الأوس والخزرج يؤرخون ببناء الآطام وتخريبها ، ومن أدل الأمور على عدم انضباط التاريخ لدى العرب الجاهليين اختلاف شعرائهم في تأريخاتهم ، ومن ذلك قول الربيع بن ضَبع الفزاري :

هــا أنــذا آمـل الخلـود وقـد ادرك عقلي ومـولـدي حُجُرا

---

(١) تاريخ العرب العام ـ ترجمة عادل زعيتر ص ٤٥ .

(٢) تاريخ العرب القديم وعهد الرسول ص ٥١ .

أبــا امرىء القيس هــل سمعت بـــه   هيهــات هيهــات ، طـــال ذا عمرا

فأرخ بحُجْر بن عمرو والد امرئ القيس ، ويؤرخ النـابغـة الجعـدي بـأزمـان الخُنان ، وهي علة أصابت الإبل فأماتتها بطريقة اشتهرت عند العرب . يقول :

فمن يـــك ســـائـلاً عني فـــإني   من الشبـــان أزمـــان الخُنـــان

وقال آخر :

ومــــا هي إلا في إزارٍ وعِلْقَـــــةٍ   مَغَـارَ ابن هَمَّـام على حيٍّ خَثْعَمَـا

ولو كان لهم تـاريخ موحـد معروف لاتفقوا عليـه ولم يجعلنـا هـؤلاء الشعراء وأمثالهم ندخل معهم متاهات تاريخيـة لا نخرج منهـا بحقيقـة واضحـة . ثم أرَّخت قريش بعـام الفيل ـ كما هو معلوم ـ الـذي يوافـق عـام ٥٧١ ميـلاديـة ثم أرَّخ عمر رضي الله عنه بالهجرة النبوية الشريفة ، وهما أضبـط التواريخ التي عرفهـا العرب وعرفها عنهم الناس .

ونما الحيان من الأوس والخزرج وتكاثرت أعدادهم وأموالهم ، بعـد أن كانوا في قلـة في الأنفس وضيـق في اليـد . فلم يكن للخـزرج غير خمسـة أولاد هم[1] : عمرو وعوف وجشم والحـارث وكعب ، أمـا أخـوه الأوس بن الحـارث فقـد عـاش دهراً طويلاً وليس له ولد إلا مالك ، ولما حضرته الوفاة اجتمع إليـه قومـه وقـالوا : قـد كنا نأمرك بالتزوج في شبابك فلم تتزوج حتى حضرك الموت ، فقـال الأوس كلمـة سنـوردهـا ضمن فصـول البـاب الثـاني عنـد الحـديث عن النثر اليثربي في العصر الجاهلي ، بدأها بقوله : لم يهلك هالك ترك مثل مالـك . ثم مـات الأوس ، فنشر الله من ابنـه مـالـك بعـدد بني الخزرج أو نحوهم ولكن مع ذلـك بقي اسم الخـزرج يطلق على الحيين معاً ، فنرى[2] قريشاً ـ مثلاً ـ تقبل على الأوس والخزرج الـذين

---

(١) الأمالي لأبي علي القالي ١ : ١٠٢ .

(٢) الطبري ٢ : ٣٦٥ .

بايعوا الرسول ﷺ في العقبة بمنى يقولون لهم : يا معشر الخزرج . . إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا ، تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . . الخ . وقال لهم العباس[1] حين أراد أن يتوثق منهم لابن أخيه ، رغم بقائه على الشرك آنذاك : يا معشر الخزرج . . إن محمداً منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا . . . الخ ويقول عبد العزى بن وديعة المزني :

إني حلفت يمين صِدْقٍ بَرَّة   بمناة عند محلّ آل الخزرج[2]

فقد قصد أيضاً بآل الخزرج الحيين معاً .

ومن ذلك شعر ابن الزبعرى في يوم أحد :

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل

فسل المهراس : من ساكنه ؟   بعد أبدان وهام كالحجَل[3]

ويبدو أن هذه الغلبة في الاسم تابعة للغلبة في أعداد الخزرج وفروعهم من جهة وإلى غلبهم الحربي من جهة أخرى ، ذلك الغلب الذي اضطر بعض عشائر الأوس إلى الهجرة ، ودفع بالبعض الآخر إلى طلب الحلف في قريش تارة وفي عبس وذبيان تارة ، وفي اليهود من قريظة والنضير تارة أخرى ، ولم يسترجعوا هيبتهم ومكانتهم إلا في يوم بعاث .

ونعود لبيان منازل الحيين بعد انتصارهم الحاسم على اليهود بقيادة مالك بن العجلان ومساعدة أبي جبيلة الغساني ، وقد كانت على النحو التالي :

---

(١) المرجع السابق ٢ : ٣٦٢ والمختصر في تاريخ البشر ١ : ١٢٢ .

(٢) الأصنام ص ١٤ .

(٣) معجم ما استعجم للبكري ٤ : ١٢٧٤ والحجل : مفرده حجَلة ، وهي القبة تزين بالثياب والستور .

أولا : منازل الأوس[1] :

١ ـ بنو أمية بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس : وكانت منازلهم في عوالي المدينة ، ولهم أطم يسمى العذق ، ومن آثارهم الإسلامية مسجد معروف باسمهم .

٢ ـ بنو جحجبا : هو جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف ، كانوا أول أمرهم يسكنون قباء مع بني عمومتهم بني عمرو بن عوف ، ولكنهم لم يعطوا الجوار حقه وقتلوا رجلين منهم ، فأخرجوهم من ديارهم ، فانتقلوا غرباً إلى العصبة .

٣ ـ بنو حارثة بن الحارث بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس ابن حارثة ، نزلوا دار بني عبد الأشهل شمالي منازل بني ظفر على ما رجحه السمهودي ، إلى الحرة المعروفة باسم حرة دشم وما حولها شرقي المدينة ، وكان لهم أطم يسمى المسيّر ، ثم قامت حرب بينهم وبين بني عبد الأشهل ، وقف فيها ضدهم أيضاً بنو ظفر ، وانضموا إلى بني عبد الأشهل ، ولكن بني حارثة استطاعوا أن يهزموهم ، وقتل مسعود أبو محيصة الحارثي سماكَ بن رافع وكان رجلا باغياً ، يتطاول في صلف وكبرياء ، ويقول : لو شئت لم يبق بيثرب بيت إلا أدخلته رجلا ، فأنف من ذلك مسعود وقتله ، فاستعان بنو عبد الأشهل ببني سُليم ، وهم قوم من غير الأوس والخزرج ، ومن غير سكان يثرب ، فاستجاب لهم بنو سُليم ، وحاصروا معهم بني حارثة في أطمهم (المسيّر) فلم ترض بذلك بنو عمرو بن عوف ، وبنو خطمة من الأوس وقالوا لهم : إما أن تخلوا سبيلهم وإما أن تأخذوا عقل صاحبكم ، وإما أن تصالحوهم ، فاختاروا أن يجلوهم ، فخرج بنو حارثة إلى خيبر ، ثم جرى الصلح بينهم فرجعوا ، ولكن إلى منازل جديدة .

---

(١) الوفاء ١ : ١٣٤ ـ ١٥٢ .

٤ ـ بنو خطمة : خطمة هذا هو عبد الله بن جشم بن مالك بن الأوس ، ولهم أطمان : أحدهما كان بالعوالي في بستان الماجشونية المعروف اليوم باسم المدشونية وبستان الرفة ، على يسار الطالع إلى قرية قربان اليوم في الطريق المعبدة .

٥ ـ بنو زيد بن مالك بن عوف : كانت لهم آطام كثيرة تدعى الصياصي أحدها بالمسكبة شرقي مسجد قباء .

٦ ـ بنو السّمّيعة : وهم بنو لوذان بن عمرو بن عوف ، وكان اسمهم في الجاهلية بنو الصّمّاء ، ولكن الرسول ﷺ سماهم بني السّمّيعة ، وكانوا بجهة قباء .

٧ ـ بنو ظفَر : وهو كعب بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس ، وديارهم شرقي البقيع عند المسجد المعروف باسم مسجد البغلة ، وهو في الواقع مسجدهم ، وهو بجوار منازل بني عبد الأشهل .

٨ ـ بنو عبد الأشهل : بن جشم بن الحارث بن الخزرج الأصغر ، وقد سبقت الإشارة إلى منازلهم في معرض الحديث عن بني حارثة .

٩ ـ بنو عطية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس : نزلوا بصَفْنة ـ سميت بذلك لارتفاعها عن السيول ، فلم تشرب بشيء منها ـ وكان لهم أطم يسمى (شاس) ، وهي قبلة رحبة مسجد قباء .

١٠ ـ بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس : وكانوا نازلين بقباء ، وابتنوا أطماً يسمى (الشُّنَيْف) ، وهو الذي عناه كعب بن مالك في قوله :

فلا تتهدد بالوعيد سفاهةً   وأوعد شُنَيْفاً إن عصيتَ وواقما

١١ ـ بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف : وهم وراء بقيع الغرقد عند مسجد الإجابة ، وهو مسجدهم ، ومنهم حاطب بن قيس الذي كانت فيه حرب حاطب على ما سيأتي في الحديث عن حروب الأوس والخزرج وأيامهم .

١٢ ـ بنو وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس : وكانوا نازلين بجوار أبناء عمومتهم بني أمية وبني عطية .

١٣ ـ بنو واقف ، وبنو السَّلَم : ابنا امرئ القيس بن مالك بن الأوس ، وابتنى بنو واقف أطماً اسمه (الزيدان) قال قيس بن رفاعة :

وكيف أرجو لذيذَ العيش بعدهمُ   وبعد من قد مضى من أهل زيدان

وكانت عموم منازلهم بجوار مسجد الفضيخ المعروف الآن .

ثانياً : منازل الخزرج :

١ ـ بنو الحارث بن الخزرج الأكبر بن حارثة : ويسمَّون أيضاً بلحارث ، نزلوا بالعوالي شرقي وادي بطحان ، وتربة صُعَيْب .

٢ ـ بنو جَشم ، وبنو زيد : ابنا الحارث بن الخزرج الأكبر : خرجا من منازل قومهم إلى السُّنْح بالعوالي ، على ميل من مسجد الرسول ﷺ ، وابتنوا به أطماً سموه (السُّنح) ، وبه سميت المنطقة .

٣ ـ بنو عتبة : وهو عتبة بن عمر بن خديج بن عامر بن جشم بن الحارث ابن الخزرج الأكبر ، وخرجوا إلى الشوط (جهة ملعب التعليم الآن ، أو ما يسمى بحارة النصر) ، ثم رجعوا إلى السُّنْح .

٤ ـ بنو خُدْرَة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأكبر ، وابتنوا أطماً يسمى (الأجرد) به بئر يسمى (بئر البُصّة) ، ومنهم الصحابي الجليل أبو سعيد الخُدْري رضي الله عنه .

٥ ـ بنو سالم بن عوف ، وبنو غنم بن عوف : وأبوهم عوف هو ابن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر ، وكانوا جميعاً يسكنون بطرف الحرة الغربية ، غربي

الوادي الذي به مسجد الجمعة ببطن رانونا ، ومنهم مالك بن العجلان السالمي ، ومن آطامهم المزدلف والشمّاخ .

٦ ـ بنو الحُبلى : وهو مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر ، وكانت منازلهم بين قباء ومنازل بني الحارث بن الخزرج الأكبر التي هي شرقي وادي بطحان وصعيب . ويسمّون أيضاً بَلْحبلى ، ومنهم عبد الله بن أبيّ .

٧ ـ بنو سَلِمة[1] بن سعد بن علي بن أسد بن شاردة بن تزيد بن جُشم بن الخزرج الأكبر : وتقع منازلهم ما بين مسجد القبلتين إلى المذاد ، وكانت منازلهم تسمى (خُرْبَى) فسمَّاها الرسول ﷺ (صُلْحة أو صالحة) .

٨ ـ بنو سواد بن غنم بن كعب بن سلمة : ومنازلهم كانت بجوار مسجد القبلتين ، وهو مسجدهم ، ومن آطامهم (الأغلب) .

٩ ـ بنو عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة : ومنازلهم عند جبل الدويخل ، ومن آطامهم (الأشنق) و (الأطول) .

١٠ ـ بنو حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة : وكانوا بين مقبرة بني سلمة إلى المذاد ، وفي المذاد يقول كعب بن مالك رضي الله عنه :

فليأت مأسدة تسنُّ سيوفها بين المذاد وبين جزْع الخندق

وهذه العشائر الأربع ترجع عند الضرورة إلى عشيرة أكبر هي بنو سلمة ، وكانت كلمتهم واحدة ، على من عداهم ، ومن مظاهر ذلك الاتفاق أنهم ملّكوا

---

(١) بنو سلِمة : هي بكسر اللام ، وهو اسم أيضاً لقبيلة أخرى من القبائل التي كانت حول الطائف ـ كما ذكر الطبري (٢ : ٨٩) استعمل عليهم الرسول ﷺ مالك بن عوف النصرى بعد هزيمته في وقعة حنين ثم إسلامه .

عليهم رجلاً من بني حرام يدعى (أمَّة بن حرام) فمكث فيهم زماناً مطاع الأمر مسموع الكلمة لا يعارضه أحد منهم ، حتى هلك رجل من بني عبيد ، لم يعقب سوى ولد واحد اسمه صخر ، فنظر أمَّةُ في مال أبيه فإذا هو مال كثير ، يزيد عن حاجة الولد وثرائه ، وليس بضاره في شيء لو أخذ منه جزءاً يرده على بعض الفقراء منهم ، لذلك اعتزم أن ينزع طائفة من تلك الأموال فيقسمها في بني سلمة ، فعظم ذلك على صخر ، واستنصر بقومه من بني عبيد وبني سواد ، وأرغى وأزبد ، وقال : لئن فعل أمة ذلك لأضربنه بالسيف ، وطلب منهم أن يساندوه ويحموه من بني حرام إن هو جزّ رأس أمّة بالسيف ، دفاعاً عن أمواله التي ورثها من أبيه ، فوعدوه بذلك . لكن أمة نفذ ما اعتزم عليه ، ولم يبال بوعيد صخر ولا تهديده ، فأسرع إليه صخر دون تردد وضربه بالسيف ، فقطع حبل عاتقه ، وقامت دونه بنو عبيد وبنو سواد تحميه وتمنعه فنذر أمة أن لا يؤويه ظل بيت ما عاش ، حتى يقتل بنو سلمة صخراً ، أو يأتوه به فيرى فيه رأيه ، وجلس أمة عند الضرب (الضلع) الذي فوق مسجد الفتح ، مما يلي الجرف في الشمس ، فمرت به وليدة حطابة فقالت : مالك يا سيدي هنا في الشمس ؟ فقال :

إن قومي أجمعوا لي أمْرَهُمْ ... ثم نادَوْا ليَ صخرا فضَرَبْ
إنني آليتُ لا يسْتُرني ... سقْفُ بيت من قَرُوْر ولَهَبْ
أبداً ما دام صخرٌ آمناً ... بينهمْ يمشي ولا يخشى العَطَبْ

فذهبت الجارية وأخبرتهم ، فتلاوم القوم ، وندم بنوعبيد وبنو سواد عن انحيازهم لصخر وحمايتهم له ، وقاموا لصخر وربطوه ، ثم أتوا به أمّة إلى الضِّرب فعفا عنه بعد أن أخذ الذي كان يريد أن يأخذه من أمواله ، وفرقه بين فقرائهم . ولعل هذا نوع من التكافل الاجتماعي أراد أن يطبقه أمّة في قومه ، هدته إليه سليقته العربية الصافية ، وفطرته التي حنكتها التجارب وصقلتها الأيام ، وهو ما تهدف إليه كثير من الأنظمة الاجتماعية الحديثة ، وتعالجه

بمختلف الوسائل والأساليب . وهدفت إليه قبل ذلك النظم الإسلامية التي جاءت بها شريعة محمد بن عبد الله التي جعلت في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للسائل والمحروم . ولكن قوم أمّة لم يفهموه ولم يستسيغوه إلا بمنطق القوة ، وذلك لتمكن الأنا من نفوسهم ، وتعودهم على طابع حياتي خاص راسخ فيهم وفيمن حولهم .

١١ ـ بنو بياضة ، وبنو زريق : وهما ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة ابن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأكبر ، وكانت منازلهم ممتدة في الحرة الغربية شمالي دار بني سالم بن عوف ، وقبلي دار بني مازن . ومن آطامهم (اللواء) .

١٢ ـ بنو عذارة : وهم بنو كعب بن مالك بن غضب .

١٣ ـ بنو اللين : وهم بنو عامر بن مالك بن غضب .

١٤ ـ بنو أجدع : وهم بنو معاوية بن مالك بن غضب .

وجميعهم كان نازلاً بدار بني بياضة ، ولكنه دبَّ خلاف بين بني زريق وبني حبيب فاضطر بنو زريق للانتقال إلى مكان آخر يقع قبلي مسجد المصلى (مسجد الغمامة اليوم) ويمتد إلى ذروان وما والاه ، كما تعرض جميعهم إلى مناقلات كثيرة لأسباب أكثر تعقيداً ، ثم تفانوا في يوم الحديقة ، ذلك أنه كان بينهم ميراث قديم فاشتجروا فيه طويلاً ، ولم يصلوا إلىٰ حل يرضي جميع الأطراف ، وينتزع الشحناء من قلوب الأخوة وأبناء العمومة ، عادة الجاهليين ، ولم تكن هناك حكومة قائمة مسيطرة تستطيع أن تحقق العدل بينهم وتعيد الأمور إلى نصابها ، فحكموا السيف فيما بينهم بطريقة جهنمية انتحارية . إذ تداعوا إلى أن يدخلوا حديقة كانت في بني بياضة ، فيقتتلوا فيها ، فدخلوا جميعاً ثم أغلقوها ، فاقتتلوا حتى لم يبق من المتقاتلين أحد ، فسميت تلك الحديقة (حديقة الموت) ، وهو بحق نمط فريد من نوعه في القتال ما أظن له مثيلاً ، إن شئت اعتبرته

نموذجاً للحمق وسوء التفكير وإن شئت عددته ضرباً من النصف والصبر والمجالدة ، والسير إلى الموت في شموخ وإباء .

وقد عبّر أحد رؤساء بني بياضة عن هذه المأساة بأبيات مشجية حزينة مبكية فقال[1] :

خلَتِ الديار فسُدتُ غيرَ مسوَّدِ	ومن العناء تفرُّدي بالسؤددِ
أين الذين عهدتُهمْ في غبطةٍ	بين العقيق ، إلى بقيع الغرقدِ
كانت لهم أنهابُ كلِّ قبيلةٍ	وسلاحُ كلِّ مدرَّبٍ مستنْجَدِ
نفْسي الفداءُ لفتيةٍ من عامرٍ	شربوا المنيّةَ في مقام أنكدِ
قومٌ همُ سفكوا دماءَ سَراتِهمْ	بعضاً ببعضٍ فِعْلَ من لم يَرْشُدِ
يا لَلرّجالِ لعثْرةٍ من دهْرِهِمْ	تركتْ منازلَهم كأن لم تُعْهَدِ

١٥ ـ بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج : وهم مجموعة من الخزرج لها فروع عديدة منها :

أ ـ بنو عمرو .

ب ـ بنو ثعلبة .

وهما ابنا الخزرج بن ساعدة ، وكانا ينزلان معا عند بئر بضاعة ، ومن آطامهم (مُعرِض) ، وبه يقول شاعرهم :

ونحن مضينا عن بُضاعةَ كلِّها	ونحن بنينا مُعرِضا فهو مُشرفُ
فأصبح معموراً طويلاً فدىً لهمْ	وتخرُبُ آطامٌ بها وتُصَفْصَفُ

جـ ـ بنو قشبة بن عامر بن الخزرج بن ساعدة : وكانوا قرب بني حديلة بين بئر حاء وبئر بضاعة ، وشرقي بني ضمرة .

---

(١) المغانم المطابة ص ٦١ .

د ـ بنو أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة : وهم رهط سعد بن عبادة ، ونزلوا المكان المعروف اليوم بدرب السويقة ، مما يواجه باب السلام اليوم بالحرم النبوي ، كما يسمى سوق الحدرة ، وقد احترقت هذه السوق قبل سنتين ثم هدمت وأدخلت مع شارع العينية في الميادين الجديدة القائمة حول الحرم ، ويرجح السمهودي أن سقيفة بني ساعدة كانت بها ، لا حول بضاعة كما ذكر المطري[1] .

هـ ـ بنو وقش ، وبنو عنان : وهما ابنا ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة وكانت منازلهم بين الحماضة (وكانت تعرف قبل التوسعة بالحماطة ومكانها الحد الغربي للجزء المضاف لمظلات الحرم الشريف اليوم) وجرار سعد (بين مستشفى الملك اليوم والداودية) .

١٦ ـ بنو مالك بن النجار : وهم على فروع أكثر من فروع بني ساعدة :

أ ـ بنو غنم بن مالك بن النجار ، ومن آطامهم (فويرع) .

ب ـ بنو مَغالة : وهم بنو عدي بن عمرو بن مالك بن النجار ، ومن آطامهم (فارع) وله يقول حسان بن ثابت :

أرِقتُ لتَوْماضِ البروق اللوامع ... ونحنُ نشاوَى بين سَلْع وفارع

وفارع هذا هو الأطم الذي كانت فيه صفية عمة الرسول ﷺ مع حسان يوم الخندق ، وقد دخل في بيت عاتكة الذي دخل بدوره في باب الرحمة الحالي (من الأبواب الغربية للمسجد النبوي) ، في العمارة العثمانية .

ج ـ بنو حديلة : وهو معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، وهم أصحاب البيرحاء .

---

(١) المدينة بين الماضي والحاضر للعياشي ص ٨٦ .

د ـ بنو مبذول : واسمه عامر بن مالـك بن النجـار ، وكانوا شرقي الـدور التي تلي قبة المسجد النبوي إلى بني زريق وإلى بني غنم .

هـ ـ بنـو عـدّي بن النجــار : كانـوا غربي المسجــد النبـوي ، ومن آطــامهم (الزاهر) .

و ـ بنو مازن : وكانوا قبلي بئر البصّة .

ز ـ بنو دينار بن النجار : كانوا خلف بطحان ، ومن آطامهم (المنيف) .

ويذكر المؤرخون أن دور بني النجار كانت بصفة عامة منتشرة بين البيرحـاء إلى مسجد الإجابـة ، واسم النجـار الحقيقي : تيم الله بن ثعلبـة ، والنجـار لقبـه ؛ لأنه ضرب رجلاً فنجره .

تلك هي خلاصة الحديث عن منازل الأوس والخزرج ، اقتبست أكثرهـا من السمهودي ثم من العياشي ، لم أقصد منها إلى الاستفاضـة أو التـدقيق أو التحقيق ، بل هدفت من ذكرهـا مجملـة إلى شيء آخر ، هو أني حسبتهـا تسهم في إلقـاء الضوء على تحليل نفسياتهم واستعداداتهم ، ثم تعين على تصور تحركاتهم الحربيـة في أيـامهم الشهيرة ، فمن أول وهلـة تستطيع أن تعرف أن منـازلهم تـوحي بشيء من المنـافرة وعدم الحريـة في الالتحـام والمخـالطـة ، وأنها موزعـة على أسـاس الصلـة النَّسبيـة والعصبية القبلية الضيقة بين فروع الحيين ، مع ملاحظة أن الخزرج بصفـة عـامـة كانوا بالسافلة والأوس بالعالية .

وإذا كان الأمر كـذلـك فـأين منــازل مـواليهم (أحـلافهم) من اليهـود ؟ ومـا علاقتهم بهم ؟ وكيف وصلوا إلى يثرب ثم ارتحلوا عنهـا ؟ ذلـك هو مـوضـوع حديثنا في الفقرة التالية .

٤ ـ اليهود في يثرب

اقترن اسم اليهود بيثرب في الجاهلية بدرجة لا تقل عن اقترانه بأختيها خيبر وتيماء مع اختلاف يسير هنا ، لأن الأوس والخزرج استطاعوا في أغلب الأحيان أن يضعفوا هذه الصلة ويوهنوا وشائجها ، إلى أن تم قطعها نهائياً ، بمقدم الرسول ﷺ وانتصار دين الله ، وإجلاء اليهود عن المدينة المنورة وتطهيرها من رجسهم ، بعدما أظهروا من التآمر ومظاهرة الأعداء ونكث العهود التي كتبوها على أنفسهم ، ثم واصل عمر رضي الله عنه مسيرة التطهير ، فتم جلاؤهم عن الأختين الشقيقتين (خيبر وتيماء) ، فلا يجتمع دينان في جزيرة العرب ، وبهذا رجع الحق إلى نصابه ، وعادت الواحات الثلاث إلى مكانها من القلب في كيان الجزيرة العربية ، وتولت واحة يثرب (المدينة المنورة) مركز القيادة الرئيسي ، لا في الجزيرة وحدها ، بل في العالم الإسلامي كله في تلك الأيام ، ولم تترك تلك المهمة عن طواعية منها ، ولم تسلم الراية عن اختيار ، بل أجبرت على ذلك إجباراً ، منذ نقل معاوية قاعدة الخلافة إلى دمشق لأسبابه الخاصة ، ولله في خلقه شؤون . ولم يكن جميع يهود يثرب من الإسرائيليين ، بل كان بعضهم من العرب الأقحاح ، فاليهودية دين لا جنس ، وقد اعتنقه غير الإسرائيليين ، بما فيهم بعض القبائل العربية ، كما هو معروف في نجران واليمن ، أما في يثرب فإننا نجد حيين من قبيلة بليّ العربية يهوديين ، وهما بنو أنيف وبنو مريد ، كما نجد يهودياً من أعاظم رجال اليهود في يثرب هو كعب بن الأشرف ، الذي كان من قبيلة طيء ، تزوج أبوه من بني النضير فعاش بين أخواله . وكان شاعراً فارساً معقودة له السيادة في أخواله ، وكان موقفه من الإسلام في غاية السوء ، واستعمل شعره سلاحاً يحارب به الرسول ﷺ ويشبب بنسائه ونساء المسلمين ، ولذلك أمر الرسول ﷺ بقتله ، فقتله محمد بن سلمة ورهط معه من الأنصار ، ومن شعره :

رُبّ خـــالٍ لي لـــو أبصرتـــه	سبـــطِ المشيـــة آبـــا أَنِفْ
ليِّن الجـــانب في أقْرَبـــه	وعلى الأعـــداء سمٌّ كالـــذُّعُفْ
ولنـــا بئرٌ رُواءٌ عـــذبـــةٌ	مَنْ يَرِدْهَـــا بـــإنـــاء يغترفْ
ونخيـــلٌ من تـــلاعٍ جَمّـــةٍ	تُخْرِجُ التَّمر كأمثـــال الاكف[1]

بل إن بعض الأفراد من الأوس والخزرج اعتنقوا اليهودية ، فقد قيل عن الشاعر الأوسي درهم بن زيد : إنه كان يهودياً ، وكذلك الشاعر الأوسي عمرو بن رفاعة الواقفي ، وتحدثنا كتب السيرة من صحيفة الموادعة عن فصائل يهودية أيضاً من البطون الأوسية والخزرجية . وهؤلاء العرب اليهود ، رغم تعاطفهم العقائدي مع إخوانهم في الدين من اليهود غير العرب ، لا يمكن أن ينظر إليهم نظرة الغرباء ، ومن حقهم أن ينزلوا في أي مكان شاءوا من أرض الجزيرة العربية الواسعة ، إن لم تتصادم مشيئتهم مع مشيئة قبيلة عربية أخرى سبقتهم إلى ذلك المكان ولكن المستغرب بحق هو وجود هؤلاء الإسرائيليين في يثرب ، كبني النضير وبني قريظة وبني قينقاع ، فكيف وصل هؤلاء إلى هذه الأرجاء ومكنوا لأنفسهم فيها ؟

تختلف الروايات في كيفية وصولهم إلى يثرب :

أ ـ فبعضها ترى أن موسى عليه السلام حج بقومه إلى الكعبة[2] ، وفي رجوعه تخلف بعض اليهود فسكنوا يثرب ، فسكناهم فيها عن طريق المصادفة أو عن طريق الاختيار .

ب ـ وتؤكد روايات أخرى أنهم جاؤا من فلسطين قاصدين سكنى هذه المنطقة ، لأن التوراة بشرت بظهور نبي من العرب يهاجر إلى أرض ذات نخل

---

(١) معجم الشعراء ص ٢٣١ والذُّعُف : جمع ذَعْفٍ وهو السم أو الموت السريع .

(٢) المختصر في تاريخ البشر ١ : ٩٨ والمدينة بين الماضي والحاضر ص ٢٧ .

وماء تقع بين حرتين ، وكانت هذه الصفة تنطبق على أربعة أماكن تقريباً ، مروا بها ، هي تيماء وخيبر وفدك (الحائط والحويط اليوم) ويثرب ، ولذلك نزلت في كل مكان منها طائفة منهم ، وانتهى من بقي من النازحين وهم هدل وبنو النضير وبنو قريظة إلى يثرب ، فوجدوا بنو عمومتهم من بني قينقاع قد سبقوهم إلى سكناها بجانب أهلها من العرب ، (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) .

ج ـ ورواية أخرى تقول : إن موسى عليه السلام بعث جنوده إلى الجبابرة[1] من أهل القرى يغزونهم ، وكان العمالقة الذين يسكنون يثرب منهم ، وأهم قبائلهم ، بنو هف ، وبنو سعد وبنو الأزرق وبنوو مطر وبل أو مطروق ، وكان ملكهم الأرقم من الجبابرة المعدودين ، يمتد ملكه إلى فدك ويشمل خيبر وتيماء ، فأرسل إليهم جيشاً جراراً وأمرهم أن يقتلوا كل من يظفرون به منهم ، وألاّ يبقوا أحداً ، فقدم الجيش الحجاز وانتصر على العماليق ، وقتلوا كل من وقع في أيديهم ، إلا ابناً للأرقم كان وسيماً جميلاً ، فضنوا به على القتل ، وقالوا : نذهب به إلى موسى بن عمران فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم ، وقبض الله موسى قبل قدومهم ، فقالت لهم بنو اسرائيل : ما صنعتم ؟ فقالوا : أظهرنا الله عليهم فقتلناهم ، فلم يبق منهم أحد غير غلام كان شاباً جميلاً فنفسْنا به على القتل ، فقالوا لهم : هذه معصية ، قد أُمرتم ألا تستبقوا أحدا منهم ، والله لا تدخلوا علينا الشام أبداً ، فلما منعوا ذلك قالوا : ما كان خيراً لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز ، نرجع إليها فنقيم فيها ، فرجعوا إلى حاميتهم في المدينة وأقاموا كلهم فيها ، وانتشروا في كل نواحيها إلى العالية ، واتخذوا بها الآطام والمزارع ، وتمكنوا فيها وعظمت قوتهم وتكاثرت أعدادهم .

(١) الأغاني ٢٢ : ٩٨ ثقافة ، والعرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢ ، وأخبار المدينة لابن النجار ص ١٣ .

د ـ ويرى آخرون أن اليهود وصلوا إلى يثرب فراراً من عسف بُخْتُنَصَّر[1] ، وما أوقعه فيهم من ذل وقتل وتشريد ، وبحثا عن ملجأ يدركون فيه الأمن والطمأنينة ، وقد وجدوا ما أمَّلوه حقاً ، فعاشوا في استقرار بعيدين عن هجومات البابليين في أرض ذات أموال وربح وفير . . . وكان في يثرب[2] إذ ذاك قُوم من جرهم وبقية من العماليق ، قد اتخذوا النخل والزرع والآطام ، فأقاموا معهم وخالطوهم ، ثم أخذ العماليق وجرهم يقلون ، واليهود يكثرون ، حتى غلبوهم عليها ، واستولوا على نخلها وزرعها ومراعيها ، إلى أن نزل عليهم الأوس والخزرج . . ويرى العياشي أن غزو بختنصر لفلسطين وواقعة سيل العرم باليمن كانا متلازمين في الزمن أو متقْاربين في الوقت وبهذا استقبلت يثرب في أوقات متقاربة هجرتين : هجرة ثلاثة بطون يهودية من الشمال هم هِدْل وقريظة والنضير ، وهجرة يمنية قحطانية من الجنوب تتمثل في الأوس والخزرج . ويؤيد رأي العياشي ما ذهب إليه مقدم كتاب (الشعراء اليهود العرب) الأستاذ[3] إسماعيل أحمد أدهم : من أنه يغلب على ظنه صحة ما قدره دوزي في كتابه عن (الإسرائيليين في مكة ص ٩٤ ـ ٩٥) أن هناك علاقة بين هجرة البطون اليهودية واستقرارها بالحجاز وبين ما حدث للقبائل العربية البائدة من جرهم وغيرها من أحوال ، كحدوث سيل العرم في اليمن ، وقد سبق أن رجّحنا وصول الأوس والخزرج ربما قبل الميلاد أو بعده بقليل .

هـ ـ وبعض المؤرخين يقول[4] : إنه لما تم انتصار الروم على بني إسرائيل بالشام في المئة الرابعة قبل الميلاد ، نكّلوا بهم سنة ٧٠ م على عهد الامبراطور

---

(١) الشعراء اليهود العرب لمراد فرج المحامي ص (جـ) تصدير وبختنصر : تعريب نبوخذ نصر ملك بابل .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٩ ـ ٣٠

(٣) الشعراء اليهود العرب ص (جـ) .

(٤) المرجع السابق ص (د) .

تيتوس وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم ، فخرج بنو هِدْل وبنو النضير وبنو قريظة هاربين منهم إلى من بالحجاز من يهود سبقوا إليه بأحد الدوافع السابقة كبني قينقاع وبني مُحَمِّم وبني زعورا ، فبعث ملك الروم في طلبهم فأعجزوه ، وضلَّ الروم في الصحراء ومات الكثير من جندهم عطشاً في المفاوز الشاسعة ، وارتد الآخرون خائبين ، واستمر اليهود في سيرهم إلى أن نزلوا أرض يثرب ، وكان أول نزولهم بالغابة ثم استوبؤوها وكرهوها ، وبعثوا خبيراً منهم يرتاد لهم[1] أرضاً صالحة ، فخرج حتى أتى العالية ، فرجع إليهم فقال : قد وجدت لكم بلداً طيباً نَزِهاً ، على حَرّة ، يصب فيها واديان هما بُطحان ومهزور ، على تلاع عذبة ومدَرة طيبة في متأخر الحَرة ، فنزل بنو النضير على بُطحان ، ونزلت قريظة وهِدْل على مهزور .

والخلاصة أن جميع الروايات السابقة التي تدور حول وصول الإسرائيليين إلى يثرب ـ بصفة خاصة ـ وإلى داخل الحجاز عامة ، تؤكد أنهم قوم طارئون معتدون ، غصبوا أهل البلاد الحقيقيين حقهم وشاركوهم في أراضيهم وزاحموهم عليها ، حتى حقت كلمةُ الله بجلائهم بما أعلنوه من عداء حاقد على الإسلام .

ولم يشذ عن ذلك غير اليعقوبي[2] ، فقد ادعى عروبة جميع القبائل اليهودية التي كانت تسكن شمال الجزيرة العربية في يثرب وغيرها ، فبنو النضير عنده ـ مثلاً ـ فخذ من جُذام نزلوا بجبل اسمه النضير فعُرفوا به ، وكذلك بنو قريظة ، هم فخذ من جُذام أيضاً تسموا باسم جبل يحمل هذا الاسم ، وهكذا ، وكذلك أُثِرَتْ عروبتهم عن ياقوت الحموي ، وهو رأي في الواقع لا يثبت للنقاش ، وليس له سند من منطق أو تاريخ دقيق ، فإن ظاهرة تسمي اليهود بالأماكن التي ينزلون بها ـ كما يقول ولنفسون ـ[3] لا يمكن أن يتخذ منها دليل على عروبتهم ،

---

(١) الأغاني ٢٢ : ٩٩ ثقافة .

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٤٩ ، ٥٢ .

(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٥ .

فقد عرف ذلك فيهم بالفعل فقيل : فلان الأرشليمي ، وفلان الجيروني ، وقد حسم القرآن الكريم القضية فخاطب يهود يثرب وغيرهم من يهود الجزيرة العربية بما يدل على أنهم إسرائيليون ، وذكّرهم بما كان يحدث من أسلافهم من تكذيب للأنبياء وعناد للحق ومحاربة للفضيلة ، فقال تعالى ـ مخاطباً يهود يثرب ـ : ﴿ يا بَني إسرائيل اذكروا نعمتيَ التي أنعمتُ عليكم وأني فضّلتكم على العالمين ، واتقوا يوماً لا تَجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ، ولا يُقبل منها شفاعةٌ ولا يؤخَذ منها عَدْلٌ ولا هم يُنْصَرون ، وإذْ نجّيناكم من آل فرعونَ يسومونكم سوءَ العذاب يذبِّحون أبناءكم ويستحْيُون نساءكم ، وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾[1] .

ومن ناحية أخرى فإن النسابين العرب لم يذكروا هذه القبائل اليهودية ضمن سلسلة الأنساب العربية ، في الوقت الذي ذكروا فيه القبائل العربية التي تهوّدت في اليمن ، والتي تنصرت في الشام .

وكانت قريظة والنضير يعرفان من جهة النسب بالكاهنين ، نسبة إلى جدٍ لهم يسمى الكاهن ، ثني تغليبا . قال كعب بن سعد القرظي :

بالكاهنين قررتمْ في دياركمُ   جمًّا ثُواكمْ ومن أجلاكمُ جدُبا

وقال العباس بن مرداس السلمي يرد على خَوّات بن جبير الأوسي لما هجاهم :

هجوتَ صريحَ الكاهنين وفيكمُ   لهم نِعَم كانت مدى الدهر تُرتُبا[2]

وبلغت اليهود في يثرب نيفا وعشرين فرعاً ، كان جمهورها نازلاً بمجتمع السيول مما يلي زغابة ، في المكان الذي كان يحمل اسم يثرب وقد سبق تحديده في

---

(١) البقرة ٤٧ ـ ٤٩ .

(٢) الترتب : الأمر الثابت . وقد تفتح التاء الثانية . قال زيادة بن زيد العُذري :

ملَكنا ولم نُملَك ، وقُدْنا ولم نُقَد   وكان لنا حقّا على الناس تُرتَبا

فقرة سابقة ، كما سبق أن ذكرنا أن المدينة إنما سميت به تغليبا ، وأهم هذه القبائل أو البطون :

١ ـ بنو أُنيف : سبق أن أشرنا إلى أنهم حيّ من قبيلة بلي العربية ، كانوا يسكنون قباء ، ولهم آطام عند بئر عذق ، قال شاعرهم فيها :

ولو نطقت يوما قباء لخبّرتْ بأنا نزلنا قبل عاد وتبّع
وآطامنا عاديّةٌ مشمخرّة تلوح فتُنكي من تُعادي وتمنع

٢ ـ بنو القُصَيْص : وكانوا أيضاً بقباء مع بني أُنيف .

٣ ـ بنو قريظة : وكانوا يسكنون الحَرة المسماة باسمهم حتى اليوم ، ومن أشهر آطامهم بَلْحَان ، وكان لكَعب بن أسد ، وبه يقول الشاعر :

من سَرَّه رُطَبٌ وماءٌ باردٌ فليأت أهلَ المجد من بَلْحَان

٤ ـ بنو هِدْل : وكانوا يسكنون مع بني قريظة .

٥ ـ بنو عمرو : وكانوا أيضاً يسكنون مع بني قريظة .

٦ ـ بنو النضير : وكانوا يسكنون بالنواعم ، ومنهم كعب بن الأشرف ، وكانت أموالهم تصل إلى (الغرس) و (الصافية) ، كما يرجح مؤرخ المدينة العلامة السمهودي . ولهم آطام كثيرة .

٧ ـ بنو مريد : ولهم أطم معروف باسمهم .

٨ ـ بنو ماسكة : ولهم أطمان في القفّ .

٩ ـ بنو مَحَمَّم : وكانت لهم أرض تسمى خَنَافة ، مشهورة بكثرة الخيرات .

١٠ ، ١١ ، ١٢ ـ بنو معاوية ـ بنو زعورا ـ بنو زيد اللات .

١٣ ـ بنو قينقاع : وكانوا عند منتهى جسر بُطان مما يلي العالية ، ويحدد العياشي نهاية هذا الجسر (بالمراكشية والمشرفية) المعروفتين اليوم . وفيه كانت سوقهم ، ومن هؤلاء كان الصحابي الجليل عبد الله بن سلام ، وهو من ذرية يوسف الصديق عليه السلام .

١٤ ، ١٥ ـ بنو حجر ـ بنو ثعلبة . كلاهما كان يسكن زُهْرة ، وهم الفِطْيون ، وكان لهم آطام كثيرة . وكانت زُهرة من أعظم قرى المدينة ، باد أهلها بالدود كما يقول الأخباريون ، وقد يكون ذلك وباء عاماً ، حلَّ بهم وأفناهم ، وكانت زُهرة هذه في منطقة الجُرف إلى جهة البركة ولا يزال بالمدينة بستان يحمل هذا الاسم إلى الآن .

١٦ ـ يهود الجوّانية : وهو موضع قرب أُحد شمالي المدينة ، ولهما أطمان ، هما صِرار والريّان ، وقد صارا بعد ذلك لبني حارثة ، وفيهما يقول نُهَيْك بن سيّاف :

لعل صراراً أن تعيش بِئاره ويُسمع بالريّان تُبنى مشاربه

١٧ ـ بنو عكوة
١٨ ـ بنو مراية
ولهم أطم الشبّعان

١٩ ـ يهود راتج : ولهم أطم يحمل هذا الاسم : قال قيس بن الخطيم :

ألا إنّ بين الشرّعيّ وراتج ضراباً كتخذيم السَّيال المعضّدِ

٢٠ ـ يهود يثرب : وقد بادوا ولم يبق منهم أحد .

٢١ ـ بنو ناغصة : وأصلهم من اليمن ، سكنوا شعب بني حرام .

وقد كانت الأوس والخزرج دخلت في طاعة أمراء اليهود عند نزولها يثرب ، وحاول هؤلاء أن يضطهدوهم ، وبخاصة في عهد أميرهم الطاغية المعروف (بالفطيون) ، وظلوا في جهد وضيق في المعاش ، ليسوا بأصحاب إبل ولا شاة ،

لأن يثرب لم تكن بلاد نَعَم ، وأكثر ما تستعملها إنما في النضح واستخراج الماء ، ولم يكن الأوس والخزرج أيضاً في أول عهدهم بيثرب أصحاب زرع أو نخل ، فليس للرجل منهم سوى الأعذاق اليسيرة والمزرعة الصغيرة يستخرجها من أرض موات ، أما البساتين الكبيرة والأراضي الخصبة والنخل الكثّ ، فهو بيد اليهود وحدهم .

وبعد سنة ٣٠٠ م بقليل لَمّت دولة حمير شعثها للمرة الثانية[١] ، وأصبح ملوكها يحملون لقب (ملك سبأ وذورَيدان وحضرموت ويمنات) وخضعت لها بلاد كثيرة ، وعرفت هذه الدولة الثانية باسم دولة التبابعة[٢] ، وفي حوالي سنة ٣٤٠ م استولى الأحباش على اليمن بغرض نشر الدين المسيحي ولأغراض تجارية ، ثم طردوا منها سنة ٣٧٨ م . وتذكر بعض الروايات[٣] أن ملوك حمير لجؤوا إلى يثرب إبّان الغزو الحبشي ، وإذا كان الأمر كذلك فإن المتوقع أن يكونوا مدّوا يد المساعدة لأبناء عمومتهم الأوس والخزرج ودعموا موقفهم مع اليهود في هذه الأثناء ، وفي الوقت نفسه تأثروا بالديانة اليهودية . ولما تولّى الحكم الملك الحميري أبو كَرِبْ أسعد استطاع أن يبسط نفوذه على كثير من البلاد الواقعة في الطرق التجارية . وخرج إلى تلك البلاد في استعراض عسكري كما اعتاد أسلافه أن يفعلوا ، ويبدو أن أبا كَرِب هذا قد وصل إلى نوع من السيادة[٤] على يثرب واستغل يهودها للتعاون معه ضد الأحباش والنصارى وقد توفي حوالي سنة ٤٤٠ م وخلفه شرحبيل يَعْفُر الذي بنى بعض الأجزاء الخربة من سد مأرب سنة ٤٥٠ م وفي هذه الآونة بدأت قبضة اليهود تضعف بوجود ظل التبابعة على يثرب بشكل من الأشكال ، وبدأ الأوس والخزرج يتنفسون الصعداء ويحلمون بالتحرر ، وكانوا

(١) أول ذكر للحميريين يعود لسنة ١١٥ ق . م وانتهت دولة حمير الأولى سنة ٣٠٠ م .

(٢) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ١٠١ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق ص ١٠٣ .

آنـذاك على وئـام تـام ، فلمـا جـاءهم تبع الأخير[1] أبـو كَرِب بن حسّـان بن أسعـد الحميري ، وكان ذلك في تقديرنا حوالي سنـة ٤٩٤ م وجـدهم على مستوى من القوة غير قليـل ، وحين غـادرهم إلى الشـام والعراق بلغـه أن ابنـه قتـل غيلـة في يثرب فرجع يريد هدمها وإحراقهـا على الأوس والخزرج ، فثبتوا لـه أيـامـاً ، قـال أبو الفرج[2] : (فبينما تبع يريد إخرابها وقتل المقاتلـة وسبي الـذريـة وقتل الأموال ، أي : النخل ، أتاه حبْران من اليهود فقـالا : أيهـا الملـك انصرف عن هـذه البلـدة فإنها محفوظة ، وإنا نجد اسمها كبيراً في كتابنا ، وإنهـا مُهَـاجر نبي من بني إسماعيل اسمه أحمـد يخرج من هـذا الحرم من نحو البيت الـذي بمكـة ، تكون داره وقراره ، ويتبعه أكثر أهلها ، فأعجبه ما سمع منها وكفَّ عن الذي أراد بالمـدينـة وأهلهـا ، وصدّق الحبرين بما حدَّثاه ، وانصرف تبع عما كان أراد بها وكفَّ عن حربهم وآمنهم حتى دخلوا عسكره ودخل جنـدُه المـدينـة ، ولم يكـونـوا قبلهـا يـدخلـون ، لأن الأوس والخـزرج قبعـوا لهم في الآطـام يصـدونهم عن دخـولهـا ويرمـونهم بـالنبـل والحجـارة فلا يستطيعون دخـولهـا ولا يجرؤون عليهم . وإذا كان هـذان الحبران اليهوديان بـدافع من تـدينهما قـد عملا على تجنيب يثرب من الـدمـار على يـد تبع وحفظـا الأوس والخزرج من شر مستطير فـإن اليهـود الآخرين قـد وجـدوا فيهـا الفرصة لاستعادة سلطـانهم في يثرب ، وسـاعـدهم على ذلـك ظهورهم بمظهر النصير لتبع ، في الوقت الـذي وقف فيـه الأوس والخزرج موقف الخـاذلين لـه المتصـدين لوجوده بينهم المتحدين لسلطانه ، الأمر الذي عرضّهم لسخطه وانتقـامـه وتبييتـه لهم الشر والإبادة ، وسنذكر جزءاً مما فعله في مكان آخر . والخلاصـة أنـه غـادرهم حين بـارح يثرب منهوكين مكسورين فرجع اليهـود إلى غطرستهم وعـادوا سيرتهم الأولى في السيطرة على جميع سكان يثرب .

---

(١) الأغاني ١٥ : ٣٣ ثقافة .

(٢) المرجع السابق .

٥ ـ غلبة الأوس والخزرج عليهم

ثم أدال الله للأوس والخزرج من اليهود ﴿ وتِلْكَ الأيامُ نُداولُها بيْنَ النَّاسِ ﴾[١] ، وإذا كانت الروايات التاريخية قد أجمعت على أن الأوس والخزرج إنما انتصروا على اليهود بوساطة مساعدة خارجية ، فإنها اختلفت في مصدر تلك المساعدة على رأيين : قيل : إنها من تبايعة اليمن . وقيل : إنها من غساسنة الشام . وكلهم بالطبع يمتون إليهم بنسب عريق ، إذ يرجع نسب الجميع إلى اليمن وإلى قحطان ، وليس من الصعب أن نقول : إن الأوس والخزرج في الواقع لقوا المساعدة من التبابعة والغساسنة جميعاً ، أفضت بهم مساعدة التبابعة ومعاودتهم يثرب إلى الانتعاش وبدء الصمود أمام اليهود لولا موقفهم من تبع الأخير واغتيالهم ابنه ، وأدت بهم مساعدة الغساسنة إلى الانتصار النهائي عليهم . ويقدّر سيديو[٢] تاريخ هذه المساعدة الغسانية بسنة ٤٩٢ م .

وعليه لم تدم سيطرة اليهود الأخيرة غير عامين اثنين فقط وذلك على عهد أميرهم الفطيون ، وإن كنا نميل إلى تقديرها بحدود سنة٥٠٠ م وهي السنة التي تولى فيها الحكم أول ملك غساني قوي معروف ، وبذلك تكون مدة تسلط اليهود الجديد حوالي عشر سنين . وهي مدة كافية لتنمر اليهود الذي يدفع بالخزارج إلى طلب النجدة من الغساسنة . وتختلف الروايات مرة أخرى في السبب المباشر لحدوث هذه المساعدة العسكرية التي دعمت موقف الأوس والخزرج أمام اليهود وحققت لهم النصر عليهم :

أ ـ فصاحب الأغاني يرى أن مالك بن العجلان[٣] وفد إلى أبي جبيلة

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

(٢) تاريخ العرب ـ سيديو ـ ترجمة عادل زعيتر ص ٤٥ .

(٣) الأغاني ٢٢ : ١٠٢ ثقافة .

الغساني ـ وهو يومئذ ملك غسان ـ فسأله أبو جبيلة عن قومه وعن منزلهم ، فأخبره بسوء حالهم وضيق معيشتهم وتعرضهم للظلم والمهانة من اليهود ، فاستاء أبو جبيلة من ذلك وقال له : والله ما نزل قوم منا بلداً قط إلا غلبوا أهله عليه ، فما بالكم ؟ ثم أمره بالمضي إلى قومه وقال له : أعلمهم بقدمي ، فإني سائر إليهم لاستنقاذهم . . . الخ .

ب ـ والدكتور محمد حسين هيكل[1] يرى أن المسيحيين العرب الذين كانوا يعيشون في الشام ، ويقيمون دولة عربية تابعة للدولة الرومانية الشرقية وهم الغساسنة ، كانوا بحكم نصرانيتهم يمقتون اليهود أشد المقت ، لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح ونكلوا به ، وكانوا يتحينون الفرص للإيقاع بهم ، واستعملوا موضوع غيرتهم على الأوس والخزرج وسيلة للاشتفاء من اليهود ، وكسر شوكتهم والقضاء على هيمنتهم ، فجاء أبو جبيلة إلى يثرب بجيوشه واستدرج اليهود بوساطة مالك بن العجلان ، وقتل منهم عدداً غير قليل ، ثم رجع إلى بلاده .

ج ـ ويذكر ابن الأثير[2] أن أبا جبيلة إنما جاء إلى يثرب بطلب من الأوس والخزرج الذين طفح عندهم الكيل ، ولم يبق في مكنتهم تحمل الضيم أكثر مما تحملوا ، وبخاصة عندما بدأ الفطيون يتعرض لنسائهم ، والعرب جميعا يغارون على النساء ويموتون من أجل الشرف ، وأضعاف ذلك كان عند الأوس والخزرج بالذات ، كان الفطيون رجلاً فظا غليظاً فاجراً ، فرض على اليهود ألا تتزوج امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زوجها فافتضّها وأزال بكارتها ، وبلغ به تطاوله وعتوه أنه أراد أن يقوم بمثل تلك المحاولات مع الأوس والخزرج ، ومبالغة في إذلالهم أراد أن يجرب ذلك مع أخت مالك بن العجلان السالمي ، الذي كان الأوس والخزرج قد أمّروه على أنفسهم في محاولة لمواجهة العداء اليهودي .

---

(١) حياة محمد ص ١٩٩ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١ : ٤٠٠ والوفاء ١ : ١٧٧ .

وقد يكون أرغم بعض ضعفائهم على ذلك وامتنع عليهم بقوته وسلطانه ، فشقَّ ذلك على مالك ، وثارت ثائرته ، فدبّر في نفسه أمراً ، وتظاهر بعدم الاهتمام بالأمر ، ثم اشتمل على سيفه ، ودخل على الفطيون متنكراً مع النساء ، فلما خفّ مَنْ عنده عدا عليه فقتله ، وانصرف إلى دار قومه ، ثم لجأ إلى الغساسنة يستنصرهم على اليهود ، فأنجده أبو جبيلة بجيش كبير قاده بنفسه .

وسواء تمت مساعدة الغساسنة للأوس والخزرج بطلب منهم ، أو إثر حديث تمّ بين مالك وأبي جبيلة ، أم بدافع العداء بين المسيحية واليهودية ، فإن نتائجها كانت في صالح الأوس والخزرج ، حيث وضعت حداً لمهانتهم ، وعكست ميزان القوى في يثرب ، فأصبح المحكومون حاكمين والمغلوبون غالبين ، ولم تقم لليهود بعدها قائمة .

نزل أبو جبيلة بجيشه بذي حُرُض[1] ، وأظهر أنه يريد اليمن ، وذو حُرُض المقصود هنا : مكان عند وادي قناة قرب أحد ، وهو الذي قال فيه حكيم بن عكرمة الديلمي وهو يتشوق إلى المدينة :

لعمركَ لَلبَلاطُ وجانباه	وحَرّة واقم ذات المنار
فجمّاء العقيق فعرْصتاه	فمفضى السيل من تلك الحرار
إلى أحُدٍ فذو حُرُض فمبنى	قباب الحيّ من كنفَيْ صرار
أحبُّ إليّ من فج ببُصرى	بلا شك هناك ولا ائتمار
ومن قَرْيات حمصَ وبعلبك	لو أني كنت أُجْعل بالخيار

---

(1) معجم ما استعجم ٢ : ٤٣٩ وصحيح الأخبار لمحمد بن بلهيد ١ : ١٥٨ والمناسك للحربي ص ٤٢٢ وبلوغ الأدب للألوسي ١ : ١٨٦ .

وقال زهير بن أبي سلمى :

أمن آل سلمى عرفت الطلولا   بذى حُرُض ماثلات مثولا

وقال كثيّر :

اربَعْ فحيٍّ معارف الأطلال   بالجزع من حُرُض فهنّ بوال
فشراجَ ريمة قد تقادم عهدها   بالسفح بين أُثيِّت فثُعال

وأجمع أن يمكر باليهود حتى تُقبِل رؤوسهم وأشرافهم ، لأنه خشي إن هو واجههم بالحرب أن يتحصنوا في آطامهم ، فيمتنعوا منه ويطول حصاره إياهم دون طائل فيضطر إلى الانسحاب ، وهو يعرف تماماً ـ كما قدمنا ـ ما للآطام من قوة ومنعة . ثم أرسل إلى اليهود أن أبا جبيلة الملك قد أحبَّ أن تأتوه ، فلم يبق كبير منهم إلا أتاه ومعه خاصته وحشمه ، رجاء أن يعودوا منه بعطاء ، فلما اجتمعوا ببابه أمر أن يدخلوا عليه رجلاً رجلاً ، وكان أمر رجالاً من جنده أن يقتلوا كل من دخل عليه منهم ، حتى أتى على آخرهم ، وفي ذلك قالت سارة القرظية ترثيهم :

بنفسي أمة لم تغن شيئاً   بذى حُرُض تعفّيها الرياح
كهول من قريظة أتلفتهم   سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل   يمُرُّ لأهلها الماءُ القَراح
ولو أرِبوا لأمرهمُ لجالت   هنالك دونهم جَأْوا رَداح[1]

وقال شاعر يهودي آخر مخاطباً أبا جبيلة أو مالك بن العجلان بعد أن ملك أمر الأوس والخزرج :

---

(١) الأغاني ٢٢ : ١٠٣ وتروى الأبيات في غيره مع اختلاف . وجأواء : الكتيبة العظيمة والرداح : الجرارة .

تسقَّيتَ قِبلــــــةَ أخــــلافهـــــا ففيمن بقيتَ وفيمن تســــــــودُ[1]

فرد عليه مالك : بأنك رجل من اليهود الذين ظلموا وجاروا بينما أنا رجل من بني سالم بن عوف ، فلا علاقة تربطني بك وبما ذكرت من فناء أخيار اليهود :

وَإني امرؤ من بني ســــــالم بْنِ عـــوف ، وأنت امرؤ من يهـــود

وقال الرَّمَق[2] بن زيد الخزرجي يثني على أبي جبيلة في قيامه بهذا العمل العظيم :

لم يُقْضَ دَينُـــك في الحســــان وقــد غَنِيتَ وقــد غَنِينــا
الراشقـــــاتِ المُرْشقـــــات الجـــازيـــات بمـــا جُـزِينـــا
أمثــــــالُ غـــــزلانِ الصَّرا ئم يـــأتــزرْن ويرتـــدينــا
الرَّيـــطَ والـــديبـــاجَ والـزَّرَدَ المضـــــاعف والبُرِينـــا
وأبـــو جبيلـــــة خيرُ من يمشي وأوفـــــاهم يمينـــــا
وأبرُّهُمْ برّاً وأعلمُهم بهـــدْي الصـــالحينـــا
القـــائـــدُ الخيـــلَ الصـــوانـــعَ بـــالكمـــاة المُعلَمينـــا
أبقَتْ لنـــا الأيـــام والحرب المهمّـــة تعترينـــــا
كبْشَـــاً لنـــا ، ذكراً يفـــلُّ حســـامُـــه الــذّكَر السَّنينَــا
ومعـــاقــلاً شُمّـــاً وأسيـــافـــاً يَقمْنَ وينحنينــــــــــا
ومحلّـــــــةً زوراءَ تُرجِفُ بـــالرجـــال المُصْلَتَينـــا[3]

---

(١) الشعراء اليهود العرب ص ٨ ـ ٩ والقبلة : الجهة التي يصلي نحوها . والمراد هنا خيار اليهود وأشرافهم ، والأخلاف : الضروع ، أي أنه أتى عليها حلبا ، ولم يبق من رعاياه منهم من يسود عليهم .

(٢) الرمق : لقبه واسمه : عبيد بن سالم بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج .

(٣) الوفاء ١ : ١٨١ والصرائم : جمع صريمة وهي القطعة من معظم الرمل . والبرين : جمع برة=

وكان الرَّمَق رجلاً ضئيلاً ، فقال له أبو جبيلة بعد أن سمع شعره : عسل طيب في وعاء سوء ، فذهبت مثلاً ، فقال له الرمق : إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه .

وقال الصامت بن أصرم القوقلي أو النوفلي :

سائل قريظة من يُقَسِّم سَيْبها ... يوم العُرَيْض ومن أفاء المغنما
جاءتهم الملحاءُ يخفق ظلُّها ... وكتيبةٌ خشناءُ تدعو أسْلَمَا
عمى الذي طلب الهمام لقومه ... حتى أحلَّ اليهود الصَّيْلَما[1]

وقال أحد بني بليّ يمدح مالكاً :

فلْيشهدنّ بما أقول عصابةٌ ... بلويَّةٌ وعصابةٌ من سالم
هل كان للفطيون عُقْر نسائكم ... حكم النصيب وليس حكم الحاكم
حتى حباه مالكٌ من عِرْسه ... حمراءَ تَضْحَك عن نجيعٍ قاتم[2]

قالوا وصورت اليهود مالكاً في بيعهم ومعابدهم ، فكانوا يلعنونه كلما دخلوها ، فقال مالك في ذلك :

تحامى اليهود بتلعانها ... تَحامِي الحمير بأبوالها
وماذا عليَّ بأن يلعنوا ... وتأتي المنايا بإذلالها[3]

= بتخفيف الراء ، وهي كل حلقة من سوار وقرط وخلخال . وهذا الجمع من ملحقات جمع المذكر السالم كسنة وسنين ، وقُلَة وقُلِين . ومحلة زوراء : بعيدة ، فيها ازورار ، أي ميلان . والمصلتين : بضم الميم وفتح اللام : الذين شهروا سيوفهم . وبكسر الميم وفتح اللام : الرجال الماضون في حوائجهم .

(١) الملحاء : الكتيبة العظيمة ، والصيلم : الداهية .
(٢) الوفاء ١ : ١٨٠ .
(٣) الأغاني ٢٢ : ١٠٥ الوفاء ١ : ١٨٢ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤ : ٢٤٣ .

وقد راجعت قائمة ملوك الغساسنة التي أثبتها كل من نولدكه[1] وجواد علي ، فلم أجد من بين أسماء ملوكها من يُدعى أبو جبيلة ، وهي على النحو التالي :

١ ـ أبو شمر جبلة (حكم حوالي ٥٠٠ م) تقريباً

٢ ـ الحارث بن جبلة (حكم ما بين ٥٢٩ ـ ٥٦٩ م)

٣ ـ أبو كرب المنذر بن الحارث (حكم من ٥٦٩ ـ ٥٨٢ م)

٤ ـ النعمان بن المنذر (حكم من ٥٨٢ ـ ٥٨٣ م)

٥ ـ الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر (؟)

٦ ـ الحارث الأعرج بن الحارث الأصغر (؟)

٧ ـ أبو حجر النعمان (بين ٥٨٢ ـ ٦١٤ م)

٨ ـ عمرو ؟ (؟)

٩ ـ حجر بن النعمان (؟)

١٠ ـ ؟ ؟ ؟

١١ ـ جبلة بن الأيهم (حوالي سنة ٦٣٥ م)

ولهذا فإن من المحتمل أن يكون الذي هبّ لمساعدة الأوس والخزرج أحد أمرائهم الأوائل الواقعين قبل أول ملوكهم أبي شمر جبلة ، اسمه بالفعل أبو جبيلة ، حين كانت دولتهم بصدد التكوين في حدود التاريخ الذي حدده سيديو وهو سنة ٤٩٢ م أو أن الذي هبَّ لمساعدتهم أبو شمر جبلة نفسه وأنه تولى الحكم قبل عام ٥٠٠ م . وهناك احتمال ثالث ، وهو أن يكون أبو جبيلة هذا واحداً من قواد أبي

---

(١) امرأة غسان ـ تيودور نولدكه ـ ترجمة بندلي جوزى . وقسطنطين زريق ط بيروت ١٩٣٢ والمفصل لجواد علي ٤ : ١٥٥ .

شمر ورجلاً من رجاله أرسله إليهم نـائبـاً عنـه في أداء هـذه المهمـة . وأرجح هـذه الاحتمالات جميعاً في نظري أن تكون هـذه المسـاعـدة تمت حوالي سنـة ٥٠٠ م التي تولى فيها الملـك أبو شمر لا في السنـة التي حـددهـا سيـديو ، قـام بهـا شخصيـاً أو بوساطة أحد رجاله . وقد يكون توليه الملك وشهرتـه بين العرب هي التي ذكرت الخزرج بقرباه منهم وإمكان طلب المساعـدة منـه وعلى كل فـإن المهم في الأمر أن هـذه الحركـة وضعت حـداً لعتو اليهود وقلّ امتنـاعهم بعـد ذلـك وخـافوا خـوفـاً شديداً ، ولجأ كل قوم منهم إلى أحد الحيين يحميـه ويعقِـد الحلف معـه ويواليـه ، وجعلوا كلما هـاجمهم أحـد من الأوس أو الخزرج بشيء يكرهونـه ، لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، وإنما يذهب اليهودي إلى جيرانـه من الأوس أو الخزرج فيعرض عليه ظلامته ويقول : إنما نحن جيرانكم ومواليكم ، وبذلك انهار طغيانهم إلى غير رجعـة ، ولكن الأحقـاد بقيت متغلغلـة في نفوسهم ، فعمـدوا إلى سيـاسـة الـوقيعـة والتفريـق بين الحيين ، حتى جعلـوهم يتحـاربـون ، وفرغـوا هم للتجارة والحصول على الثروة واستعادتها بأسلوب جديد ، وأول حرب جرت بينهم هي حرب سمير وآخرها حرب بعاث .

وتفرّدَ يـاقـوت في انتصـار الأوس والخـزرج على اليهـود برأي ينقض كثيراً مما أوردناه ويسم الموقف بكثير من المنطق ، حيث ينسب ذلك الانتصـار إلى قوة الأوس والخـزرج أنفسهم ، فيقـول[1] متحـدثـاً عن ثعلبـة العنقـاء جـد الأوس والخزرج : [فلما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة ، وبهـا نـاس كثير من بني إسرائيل ، متفرقون في نواحيها ، فاستوطنوها ، وأقـاموا بهـا بين قريظـة والنضير وخيبر وتيماء ووادي القرى ، ونزل أكثرهم بالمدينة إلى أن وجد عزة وقوة ، فـأجلى اليهـود عن المـدينـة واستخلصهـا لنفسـه وولـده ، فتفرق من كان بهـا من اليهـود وانضموا إلى إخوانهم الذين كانوا بخيبر وفدك وتلك النواحي ، وأقام ثعلبـة وولـده

---

(١) معجم البلدان ٤ : ٣٨٥ .

بيثرب ، فابتنوا فيها الآطام وغرسوا فيها النخل فهم الأنصار : (الأوس والخزرج)] . وقد ينسجم رأيه مع ما أوردناه سابقا إذا حملنا قوله على الانتصار الأولي غب مقدمهم إلى يثرب حيث سمح لهم سكانها من العرب وأفخاذ اليهود بمجاورتهم ، فكلامه يعني أنهم فرضوا وجودهم فرضا وسكنوها اغتصاباً ، ولكنه مع ذلك بالغ في تشريد اليهود ، فإن الأوس والخزرج في تلك الآونة لم يكونوا من الحول والطول بحيث يفعلون ذلك . هذا بالإضافة إلى أن بطون اليهود ظلت بيثرب حتى أجلاهم عنها الرسول ﷺ .

وكنت أتوقع أثناء تجميعي لمواد البحث أن أجد عدداً مجزياً من القصائد في شعر الأوس والخزرج لتخليد انتصارهم على اليهود والتخلص من بغيهم وسلطانهم ، ولكنني لم أظفر بسوى مقطعات يسيرة لا تصلح لأن تعطي الصورة الواضحة لتلك المواقف الحاسمة ، أو تعبر عن مشاعر قوم كسروا شوكة البغي والعدوان ، وصاروا سادة البلاد المتحكمين فيها ، بعد أن كانوا عمالاً تابعين لا تسمع لهم كلمة ولا يقبل لهم رأي . والشيء الثابت الذي لا يقبل الجدل أنهم فعلاً كانوا مضطهدين من اليهود بشكل من الأشكال ، ثم استطاعوا أن يكسروا الطوق ، ويحطموا الأغلال ، بأنفسهم أو بمساعدة بني عمومتهم ، ويحتلوا مكانتهم التي وجدهم الإسلام عليها ، وذلك بغض النظر عن أي تشكيك قد يواجه به بعضهم الروايات التي أوردناها ، كما تقتضي محنة التشكيك التي يقابل بها تاريخنا اليوم ، فالشيء الطبيعي أن يتحرك وجدان الشعراء من الاوس والخزرج فيسجلوا ما يمكنهم تسجيله من آثار النشوة بذلك النصر والفرحة بالغلبة ، ولعل ذلك حصل فعلاً ولكنه لم يصلنا وضاع في جملة ما ضاع من تاريخ هذين الحيين ، اللذين عفّى الزمن على كثير من آثارهم . فإذا كان الأمر كذلك فإنه يكفيهم فخراً معزتهم بالإسلام ونصرهم للإسلام . ومرحى للأنصار ! .

٦ ـ لمحة عن آطام يثرب

قـالت أنيسـة : دع بـلادَك والتمسْ ... داراً بطيبـة ربَّـةِ الآطـام[1]

تكتبْ عيالـك في العطـاء وتفترضْ ... وكـذاك يفعـل حـازمُ الأقـوام

هـذان البيتـان لشـاعر تـوفي في عصر بني أميـة ، يـدعى جيهـاء أو جبيهـاء الأشجعيّ ، واسمه يزيد بن عبيـد بن بكر بن أشجع ، وهو ممن غلبتِ ألقـابهم على أسمائهم ، كالنابغة والأخطل والفرزدق . وللبيتين السابقين أكثر من دلالـة واحـدة يمكننا استنباطها بسهولة ، منها :

أن الشاعر كان يمكنه أن يقول يثرب مكان طيبة مع سلامـة الوزن ، ولكنـه لم يفعل ، وذلك فيما يبـدو تحـاشيـاً منـه للوقوع في الكراهيـة التي أشرنـا إليهـا في كلام سابق ، وإلا فما يمنعه أن يقول : داراً بيثرب ربة الآطام ؟

ومنهـا أن الشـاعر من عنيزة ، وهي أهم مـدن القصيم وأقـدمهـا تـاريخـاً ، ولا يزال أهلها حتى هذا العصر أكثر سكان تلك المناطق تعلقاً بطيبة ربة الآطام ، ويهاجرون إليها ويتخذون منها سكناً . وقد قلنا إن القصيم يـدخل ضمن الـدائرة التي تمثل فيها يثرب نقطة المركز .

ومنها : أن طيبة كانت مركزاً يلجـأ إليـه النـاس لتقييـد أسمائهم في دواوين العطاء ، وقد كانت كذلك منذ أعزها الله بالإسلام ، ومنـذ عهْـد الخليفـة الراشـد عمر بن الخطاب ، ثم شاءت قدرة الله أن تتلقفه منها مدن أخرى وتنتزعـه انتزاعـاً دميت له سككها وبكته حِرارها .

ومنها : كثرة آطامهـا بصفـة متميزة ظـاهرة هيـأت للشـاعر أن يصفهـا بربـة

---

(١) المناسك ص٥٩ تعليق .

الآطام مع الثقة بأن الناس سيفهمون ما يعني ، لشهرتها بين العرب بذلك ، وهذا أهم ما يعنينا من البيتين . فالآطام خاصية من خصائصها في الجاهلية لا يضاهيها فيها بلد آخر ، وظاهرة مميزة لها تعرف بها بين المدن التي عاصرتها[1] .

جاء في اللسان[2] : الأطم : حصن مبني بحجارة ، وقيل : هو كل بيت مربع مسطح ، وقيل : الأطم مثل الأجم[3] ، يخفف ويثقل ، والجمع القليل آطام وآجام . والكثير : أطوم : وهي حصون لأهل المدينة . ابن سيده وغيره : الأطم : حصن مبني ، ابن الأعرابي : الأطوم : القصور ، وفي حديث بلال : إنه كان يؤذن على أطم . الأطم بالضم : بناء مرتفع ، وجمعه آطام ، وفي الحديث : « حتى توارت بآطام المدينة » ، يعني بأبنيتها المرتفعة .

وقد كانت الآطام[4] عماد أهل المدينة في الدفاع ، وكانت تبعث في نفوس ساكنيها طمأنينة لم تعهد في غيرها من مدن بلاد العرب[5] ، ولم يكن لها سور أو حائط يحميها ويمنع الداخلين إليها ، على نقيض المدن القديمة ، فعند الأخطار يتحصنون في آطامهم ويسدّون منافذ الطرق ، ويرمون أعداءهم من فوق سطوحها بالسهام والحجارة ، ولم يكن يشبهها في ذلك إلا الحِيْرة ، فقد كانت هي أيضاً خالية من الأسوار ، وتعتمد في دفاعها على المعاقل والحصون ، ثم أخذت مكة هذا الطابع من أختها يثرب أيضاً ، وأول من ربّع بيتاً في مكة هو حميد بن زهير ، كانت قريش قبله تبني البيوت المستديرة وتسميها الآجام ، ومفردها أجم ، وذلك لكراهية منها أن تضاهي بناء البيت بالتربيع ، وكانوا يخافون

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٨ : ٣١١ .

(٢) اللسان ، وديوان قيس بن الخطيم ص ٢٦٨ .

(٣) الأُجُم : البيت المستدير كما رجح الأستاذ محمود شاكر في تعليقه على جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار ص ٤٤٣ .

(٤) المفصل ٤ : ١٣١ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٨ : ٣١١ .

العقوبة في ذلك ولا يتجرؤون عليه ، ولـذلـك كانوا كلما مروا بجميـد وهو يبني بيته بلغ منهم العجب مبلغه ، أن لم يسقط عليه كِسَفٌ من السماء أو يأتـه عـذاب أليم ، وارتجز شاعرهم :

اليـــومَ يُبنَى لجميـــد بيتُـــه　　إمـا حيـاتُـه وإمـا مـوتُـه

فلما لم تصبه عقوبة ولم يحل به عـذاب - كما كانوا يتوقعون - ربعوا بيوتهم ، وفصلوا بين هندسة بيوتهم والأوهام .

وعرفت الطائف الآطـام في فترة متـأخرة[1] من يثرب أيضـاً ، وكان لـذلـك سبب يـذكره المـؤرخـون ، فقـد حـدث أن نشبت الحرب بين فرعي ثقيف بالطائف : وهم بنو مالك والأحلاف ، واقتتلوا فيما بينهم قتـالاً شـديـداً لم يتحقق فيـه النصر لأحـد الفريقين ، فعمـد كل فريق منهم إلى الاستعـانـة على الآخر بمن يستطيع من العرب ، فسارت بنو مالك تبتغي الحلف من دوس وخَثْعم وغيرهما ، وخرجت الأحلاف إلى يثرب تبتغي الحلف من الأوس والخـزرج ، فقـدم مسعـود ابن متعب على أحيحة بن الجلاح الشاعر الأوسي الفارسي ، وهو من بني جحجبا ، وكان سيد الأوس والخزرج في زمانه . وسيـأتي الكلام عنـه بمزيـد من التفصيل في مكان آخر إن شاء الله ، فطلب منه الحلف ، فقال أحيحة : والله مـا خرج رجل من قومـه إلى قوم قـط بحلف أو غيره إلا أقر لأولئـك القـوم بشر ممـا أنف منـه من قومه ، فقـال لـه مسعود : إني أخوك - وكان صـديقـاً لـه - فقـال : أخوك الـذي تركته وراءك ، فارجع إليه صالحه ولو بجدع أنفك وأذنك ، فإن أحـداً لن يَبَرّك في قومك إذا خالفته . فانصرف عنه ، بعد أن زوَّدَه بسلاح وزاد ، وأعطاه غلامـاً كان يبني الآطام بيثرب ، خبيراً بتشييدها ، ليستعمله مسعود في إقـامـة مثلهـا في الطائف ، ويتفادى بها هجمات الأعـداء ، فبنى لـه أطما كبيراً ، فكان أول أطم بني

---

(١) الكامل لابن الأثير ١ : ٤٢١ .

بالطائف ، ثم توالى بناء الآطام فيها عندما أدرك أهلها مدى أهميتها ، من حيث أسلوب بنائها ووظيفتها الدفاعية التي لم يكن لهم بها عهد في بني قومهم الأولين . فلم يجيء الإسلام إلا والآطام منتشرة ومعروفة عندهم ، ففي حصار[1] رسول الله ﷺ للطائف مر بلِيَّة وهي إحدى قراها ، وابتنى بها مسجداً ثم أمر بهدم حصن مالك بن عوف النصري قائد المشركين في حنين ، ولكن الطائف رغم تعرفها على أهمية الآطام فإنها لم تستغن عن الأسوار كما هو الحال في يثرب ، وقد يكون ذلك راجعاً لجدتها عليهم وعدم تمرسهم بها ، ومما يؤكد بقاء الأسوار فيها أن منهزمي ثقيف[2] من حنين إلى الطائف ، احتموا داخل مدينتهم وأحكموا إغلاق أبوابها واستعدوا للقتال من خلف الأسوار .

ولئن كان كثير من الأخباريين يعزون إنشاء الآطام بيثرب إلى اليهود ، فإن الدلائل الأخرى تشير إلى أنها كانت من إنشاء الأوس والخزرج ، نقلوها معهم من اليمن بعد أن طوروا فيها ووسعوا أغراضها ، فقد كان في اليمن منشآت مماثلة للآطام[3] .

يقول بروكلمان[4] : إن حضارة بلاد العرب الجنوبية حيث كان المناخ أكثر ملاءمة للزراعة ازدهرت منذ الألف الثاني قبل الميلاد فأنشأت السدود وشيدت الحصون والقصور والهياكل التي ما تزال قائمة حتى اليوم في تلك الأصقاع . وهذا يفسر إلى حد بعيد وجود ما يماثلها عند اللخميين في الحيرة ، وهم قوم من اليمن أيضاً ، كما عرفت الآطام عند بني عمهم[5] الغساسنة في الشام على نطاق أقل

---

(١) الطبري ٢ : ٨٣ .

(٢) الطبري ٣ : ٨١ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٨ : ٣١٢ .

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ١ : ١٣ .

(٥) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ١ : ٤٤ .

انتشاراً ، وذلك لاتصالهم بالحضارة البيزنطية التي لم تعهد هـذه الأنمـاط من البنـاء وإنما اعتمدت على اتخاذ الأسوار ، ولكن أبا جبيلة الغساني كان يعرف قيمة الآطـام الحربية ، فحينما خفَّ لنصرة أبنـاء عمومتـه من الأوس والخزرج ، لم يجـاهر اليهود بالحرب ، وإنما داورهم وخادعهم ، لعله بحكم موروثات أسلافـه بمـدى أهميـة تلـك الحصون والآطام ، ليأمن احتماءهم بهـا ، فلا يطول مكثـه أو يـذهب حصـاره لهم دون جدوى تذكر .

وهذا الرأي من نسبة إنشاء الآطام للأوس والخزرج ، يستقيم بشكل أقوى إذا أخـذنـا في الاعتبـار رأي الشريف العيـاشي السـابق في ترجيحـه أن وصول اليهود ووصـول الأوس والخـزرج إلى يثرب كانـا في فترة متقـاربـة . وحين نعلم أن اسم الحصن[1] بـاللسـان العبري (خيبر) وليس أطما ، وبـه سمـوا واحـة خيبر ، وسمـوا مجموعة حصونها (خيابر) . بل إن لامـانس وهو من المتعصبين ضـد العرب[2] يرى في كتابه (مهد الإسلام) : أن اليهود ليسوا أول من سكن يثرب وأن الآطـام إنمـا بنيت على نسق قصور اليمن . وعليه فلا يصح بعد هذا ـ في تقـديرنـا ـ أن ينسب إنشاء الآطام أو تسميتها بهذا الاسم إلى اليهود ، اعتماداً على فرضيـة ولفنسون الـذي قال[3] : إن كلمة أطم (مأخوذة من اللغة العبرية ، فيقال أَطَمَ عينيـه : أغمضها ، وأطمَ أذنيـه سـدهمـا ، والأطم في الجـدران والحيطـان ، هي النـوافـذ المغلقـة من الخارج ، والمفتوحة من الداخل ، ويستعمل في السُّور ، أي الحائـط الضخم . . . وعلى ذلـك يمكننـا أن نفترض أن اليهود أطلقـوا على الحصن اسم أطم لأنـه كان في إمكانهم أن يغلقوا أبوابه ، وإن كانت له نوافذ من الخـارج وتفتح من الـداخل) ، لأنه لا مجال للفرض ما دام بين أيدينـا نصوص صريحـة تثبت أن الآطـام أنشئت

---

(١) المغانم المطابة ص ١٣٥ .

(٢) حسـان بن ثـابت للدكتور محمد طـاهر درويش ص ٨٦ الطبعـة الثـانيـة ـ دار المعـارف بمصر ١٩٧٦ م .

(٣) اليهود في بلاد العرب ١١٦ ـ ١١٧ .

على نسق يمني . وأن اليهود إنما كانوا يسمون الحصن خيبراً لا أطماً . هذا ومن جهة أخرى فقد قدمنا أن البلاذري[1] قال : إن أول من أنشأها وعرف قيمتها السكنية والدفاعية هم العمالقة ، فعلى هذا وذاك هي منشآت عربية محضة لا دخل فيها للعبرانيين . ولأهمية هذه الآطام كان الأوس والخزرج يؤرخون بها ، فيقولون ـ مثلاً ـ عام إنشاء الأطم الفلاني ، أو عام الواقعة التي حدثت عند الأطم الفلاني وهكذا . . ويذكر أبو إسحاق الحربي أن[2] زيد الخيل وَفَدَ على الرسول ﷺ فدخل المسجد ، والنبي ﷺ يخطب فقال : إني خير لكم من العزّى وأمهاتها ، وما حازت مناع ، كل ضار غير نفّاع ، ومن الجبل الأسود الذي تعبدونه من دون الله ، فقام زيد الخيل ـ وكان من أجمل الرجال وأحسنهم ـ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا زيد الخيل بن مهلهل . قال : بل أنت زيد الخير ، ما وُصِف لي رجل إلا رأيته دون ما وصف لي ، غيرك ، فإنك تفوقُ ما وُصف لي » . ثم انصرف ، فقال النبي ﷺ : « أي رجل إن سلم من آطام المدينة . . » كأن الرسول ﷺ كان يخشى عليه بعد إسلامه أن يغتاله بعض الرابضين في الآطام ممن لم يخالط الإسلام قلوبهم ، تخذيلاً للعرب عن الإسلام . وأبقى ﷺ تلك الآطام على حالها ولم يهدمها ، بل إنه شهد حين مقدمه إلى يثرب قوم حسان بن ثابت يبنون أطمهم (فارع) فلم ينههم ، بل أتموه ، وهو الحصن الذي كانت فيه صفية عمة الرسول ﷺ مع حسان يوم الخندق ، كما ذكرنا في حديثنا عن منازل الخزرج ، كما أذن لبني ساعدة في استكمال بناء أطمهم (معرض) ، بل إن بعض الآثار وردت بالنهي عن هدم تلك الآطام ، واستمرت ـ فعلا ـ في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولم تهدم وتخرب إلا في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما وجد بعض الناس

---

(١) فتوح البلدان ٢٩ ـ ٣٠ .

(٢) المناسك للحربي ص ٣٨٠ .

يستخدمها للتخفي والامتناع عن الطلب ، ورسوم بعض هذه الآطام باقية حتى اليوم ، كأطم الضحيان للشاعر أحيحة بن الجلاح ، وأطم الشاعر كعب بن الأشرف ، إلا أن بعض تلك الرسوم بدأ يزول بسرعة بيد بعض الزراع وأصحاب البساتين من أهل المدينة ، بحكم الرغبة في التوسع الزراعي تارة ، وخوفاً من استيلاء المسؤولين عن الآثار عليها تارة أخرى ، بعد أن بدأ الاهتمام بالآثار يأخذ مكانته في نفوس المتخصصين والمسؤولين في المملكة العربية السعودية ، تبعاً للمرحلة الحضارية الجديدة التي تعيشها المملكة اليوم . وكانت الجرافات والآليات الحديثة مصدر شر على تلك الآثار والآطام ، التي ثبتت لعوادي الزمن أكثر من خمسة عشر قرناً ، لتلقى مصرعها في القرن الرابع عشر الهجري تحت سمع وبصر المتعلمين والمثقفين ، وليت قومي يعلمون .

وبلغ عدد الآطام في يثرب عدداً كبيراً أوصله بعضهم إلى السبعين ، ولكني أرى أن عددها لا بد أن يكون أكثر من ذلك ، لأن كثيراً من الأفراد والعشائر كانوا يمتلكون أكثر من أطم واحد ، فإذا علمنا أن عشائر الأوس والخزرج وعشائر اليهود تناهز السبعين فكيف يمكن التوفيق بين هاتين الظاهرتين ؟ يبدو أن العدد المذكور لم يشمل سوى المشهور منها ، والآطام الكبيرة التي هي آطام الأغنياء وذوي المكانة ، وتكون عادة ضخمة ، لتسع معهم أتباعهم . كما كانت الآطام عموماً تشتمل على مخازن للغلال والثمار والأسلحة والأموال ، كما تشتمل على بئر يشرب من مائها أهل الأطم .

ويجدر بنا بعد هذا العرض أن نذكر بعض هذه الآطام ، ذكراً لا يراد به الاستقصاء ، بل نهدف منه إلى استحضار الصورة في الذهن ولو بشكل مصغر ، عندما نتحدث عن أيام الأوس والخزرج ، وما ورد فيها من أشعار وعن نوعية العلاقات التي كانت تربط بطونهم وفروعهم . وسنذكرها مرقمة مأبجدة طلباً لسهولة الرجوع إليها ، دون أن يعطي ترقيمنا لها أية أهمية خاصة ، أو يشير إلى

معنى يحتاج إلى كثير من التحقيق ويشغلنا عن الغرض الأساسي من البحث ، كسبقها في الإنشاء أو كبر حجمها أو صلتها بالحروب ، أو غير ذلك مما لا طائل تحته هنا ، وهي :

١ ـ المزدلِف : ابتناه سالم وغنم[١] ابنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج ، وكان بمساكنهم على طرف الحرة الغربية ، وصاحبه هو مالك بن العجلان السالمي وكان عند مسجد الجمعة اليوم ، وفيه يقول :

إني بنيت للحروب المزدلِف   قذفتُ فيه جَنْدلاً مثل الدُّلُف[٢]

٢ ـ المسيّر : ابتناه بنو حارثة بن الحارث . وكان في دار بني عبد الأشهل بشرقي المدينة ، لأن بني حارثة كانوا نزلوا معهم في أول الأمر ـ كما سبق أن ذكرنا ـ في المسير يقول مسعود أبو محيّصة الحارثي :

فمن مبلغٌ عني حضيراً رسالةً   فإن كان أمثالٌ بنوك فأبشرِ
فإني زعيمٌ أن تبين ظعينةٌ   ويخرب قصر مثل قصر المسيّر
وإن أخا الأضرار بالسيف والذي   وخال أبو بشرٍ خباب بن منذر[٣]

٣ ـ راتج[٤] : هو أحد آطام اليهود ، وتسمى الناحية به ، ويبدو أنه كان فوق جبل صغير يحمل اسمه أو على سفحه ، ولذا قال جمال الدين المطري : راتج : جبيل صغير غربي وادي بطحان ، وبجنبه جبيل صغير آخر يسمى جبل

---

(١) الوفاء ١ : ٩٩ والمغانم المطابة ص ٣٨١ .
(٢) الدلف : النخل الكثيرة الحمل .
(٣) هكذا جاءت الأبيات في الوفاء وفي المغانم المطابة ص ٣٨٢ ، غير أن المغانم نسبها لمسعود بن محيصة . وبالتأمل نلحظ أن البيت الثالث غير مفهوم ، ولعل كلمة (والذي) : أصلها والدى . وخال : أصلها وخالي أبو بشر ، وقد اكتفى محقق المغانم الأستاذ حمد الجاسر تعليقا على هذا البيت بقوله : كذا في الأصل .
(٤) المغانم المطابة ص ١٤٩ وديوان قيس بن الخطيم ص ١٢٥ .

عبيد ، وهذا الجبل كما هو معلوم في منازل بني سلمة ، ولا يمنع وجوده في منازلهم أن يكون ملكاً لأحد اليهود ، وقال بعضهم : إنه كان لبني زعورا بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو . وقد كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج ويوم من أيامهم في حرب حاطب يعرف بيوم السرارة على أحد قولين ، ولذا قال قيس ابن الخطيم :

ألا إن بين الشرعبي وراتج ضِراباً كتخذيم السيال المعضد

على أن العياشي يرجح أن يكون راتج مكان المحلة المعروفة اليوم بالمصانع في طريق سيد الشهداء .

٤ ـ الشرعبيّ[١] : هو من آطام اليهود أيضاً ، ولعلهم نسبوه إلى شرعب ، لكونه طويلاً ، (الشرعب : الطويل) وقد صار لبني جشم بن الحارث بن الخزرج ، وقد قال فيه قيس بن الخطيم : وفي راتج البيت السابق ، وكان الشرعبي دون جبل ذباب المعروف الآن ، ولأهله كان بستان في المكان المسمى بالشوط ، ومكانه بين ملعب التعليم وحارة النصر اليوم كما سبق أن أشرنا . والشوط في اللغة : العدْو ، وفيه يقول قيس بن الخطيم[٢] :

وقد علموا أنّا فلَّهمْ حديدُ النَّبيت وأعيانُها
وبالشّوطِ من يثربٍ أعْبُدٌ ستهلِكُ في الخمر أثمانُها
يهونُ على الأوس إتلافُهمْ إذا راحَ يخطر نشوانُها

٥ ـ الرِّعْل : ابتناه بنو عبد الأشهل ، وصاحبته هي ضمرة بنت مر بن ظفر ، وهي[٣] أمُّهم ، وله يقول كعب بن مالك :

---

(١) المغانم ص ٢٠٢ ومراصد الاطلاع ٢ : ٧٩٠ .
(٢) المغانم ص ٢١١ وقيل : إن البستان المذكور كان من أموال قيس بن الخطيم نفسه .
(٣) المغانم ص ١٥٧ ومعجم ما استعجم ٢ : ٦٦١ .

منعنـــــا الرعـــل ، إذ أسلمتمـــوهُ بفتيـــانٍ مـــلاوثـــة جِـــلادِ

ولما انهزم بنو عبد الأشهل أمام بني حارثة ، ولحقوا بأرض بني سليم يستنصرونهم على بني عمهم ، قال حضير بن سماك يوماً : ارفعوني أنظر إلى الرعل ، فقال إساف بن عدي بن زيد بن عدي بن جشم بن حارثة بن الحارث بن الخزرج :

فـلا وبنـات خـالـك ، لا تراه سجيسَ الـدهر ، مـا نطـق الحَمَـامُ
فـإن الرّعْـل ، إذ أسلمتمـوهُ بسـاحـة واقم منكم حرامُ

٦ ـ جُذْمان : موضع فيه أطم للخزرج[١] ، سمي بذلك لوجود نخل حوله ، جذم نخلَه تبع اليماني حين مر بالمدينة ، أي قطعة . وقال قيس بن الخطيم حين ظهر الأوس على الخزرج في حرب بعاث :

كأنّ رؤوس الخـزرجيين إذ بـدت كتـائبنـا تترى مـع الصبح : حنظـل
فـلا تقربـوا جُـذْمـان ، إن حِرارَه وجنّتـه تـأْذَى بكم فتحمّلـوا[٢]

وقال آخر مفتخراً على الخزرج[٣] :

هلم إلى الأحـلافِ إذ رقّ عظمهمْ وإذ أصلحوا مـالاً بجُـذْمـان ضـائعـا

٧ ـ الضَّحْيَـان : ابتنـاه أحيحـة بن الجـلاح بن الحريش بن جحجبـا ، بالعصبة ، بعد أن خرج مع قومه إليها ، عندما اضطرهم بنو عمرو بن عوف بقباء إلى النزوح من بينهم ، بعد أن قتل بنو جحجبا رجلين منهم هما : رفاعة وغنم ، وكان عرض هذا الأطم قريباً من طوله ، ولا تزال آثاره بالعصبة قائمة إلى اليوم

---

(١) المغانم ص ٨٧ .
(٢) أذي يأذى = تأذّى يتأذى .
(٣) المغانم ص ٩٩ .

بحجارته السود ، وكان يرى من مسافة بعيدة لارتفاعه ورأسه الأبيض وبه يقول أحيحة :

وقد أعددتُ للحِدْثان حصناً ... لو أنّ المرء ينفعه العُقول
طَويلَ الرّاس أبيضَ مشمخِرًا ... يلوح كأنه سيفٌ صقيل

وقال أيضاً :

إني بنيتُ واقماً والضاحيا ... بنيتُه بغرّة من ماليا
والشرّ مما يألف العواصيا ... أخشى رُجَيْلاً ورُكيْبَاً عاديا

٨ ـ أُجَشّ[١] : بالتحريك وتشديد الشين معجمة ، ابتناه بنو أنيف البلويين عند بئر لاوة .

٩ ـ بَرَج[٢] : ابتناه بنو القِمَّعة من بني النضير .

١٠ ـ فاضجة[٣] : من آطام بني النضير .

١١ ـ واقم[٤] : من أشهر آطام المدينة ، وإليه نسبت إحدى الحرار (حرة واقم) ابتناه بنو عبد الأشهل ، وكأنه سمي بذلك لحصانته ، من قولهم : وقمه الأمر : إذا رده عن حاجته وقصْدِه ، فقد كان حصناً قوياً يرد عن أهله ، وصاحبه هو حضير الكتائب سيد بني عبد الأشهل ، وهو أيضاً أحد سادات العرب ، قال شاعرهم :

نحن بنينا واقماً بالحرة ... بلازب الطين وبالأصِرَّة

---

(١) مراصد الاطلاع ١ :: ٣١ .
(٢) مراصد الاطلاع ١ : ١٧٨ .
(٣) المرجع السابق ٣ : ١٠١٥ .
(٤) المرجع السابق والمغانم المطابة ص ٢٢٤ ، ومعجم ما استعجم ٢ : ٤٣٧ .

وقال خفاف بن ندية السلمي :

لو أن المنايا حِدْن عن ذي مهابة ... لكان حضير حين أغلق واقما
يُطيف به حتى إذا الليل جنّه ... تبوّأ منه مضجعاً متناعما
وفجّعن بالرَّحَّال عروةَ : قومَهُ ... وأدركْن صيّاد الفوارس هاشما

وللبيت الأول من شعر خفاف روايتان أخريان هما :

لو أن المنايا هِبْن من ذي مهابة ... لهِبْن حضيراً يوم أغلق واقما
فلو كان حيّاً ناجياً من حمامه ... لكان حضيراً يوم أغلق واقما

وبعض الروايات تجعل واقماً لآل أبي لبابة ، وتجعل مكانه في منازلهم بالمسكبة شرقي مسجد قباء ، وكان يملكه رجل منهم يُدعى ساعدة بن عابس ، ومما قيل فيه :

نحن بنينا واقماً والمسكبة ... قبلُ ، وكان للجفان ملعبة
يزينُها فعمٌ عريضُ المَنْقَبة ... يَبْرقُ في الصبح كلون المذْهَبَة

ومما يؤيد الرواية الأولى حديث ربيعة بن عبد الله بن الهُدَيْر ، قال : سمعت طلحة بن عبيد الله يقول : خرجنا مع رسول الله ﷺ نريد قبور الشهداء ، فلما أشرفنا على (حرة واقم) تدلينا منها ، فإذا القبور بمَحْنِيَتِه ، قلنا : يا رسول الله . . هذه قبور إخواننا ، قال : بل قبور أصحابنا ، فلما جئنا قبور الشهداء قال رسول الله ﷺ : هذه قبور إخواننا . وقال صاحب مراصد الاطلاع : تقع حرة واقم في الحرة الشرقية من حرتي المدينة ، قال المرار :

بحرّة واقم والعِيسُ صُعْرٌ ... ترى لِلُحى جماجمها تَبيعا[1]

هذا وقد سبق أن ذكرنا في حديثنا عن أطم الضحيان : أن واقماً من آطام

---

(١) صُعْر : جمع أصعر ، وهو البعير الملوى العنق من داء ونحوه ، والتبيع : الخادم والمطالب بالثأر .

أحيحة بن الجلاح ، وهو كما نعلم من بني جحجبا الذين كانت مساكنهم في العصبة ، وهي غربي قباء ، ولعله كان اسماً لعدة آطام أريد من إطلاقه عليها وصفها بالمنعة والصد والرد .

١٢ ـ الرّيان ، ١٣ ـ صِرار : كلاهما كانا ليهود الجوانية قرب أحُد ، وقد دخلا بعد ذلك في ملكية بني حارثة بن الحارث ، يقول نهيك بن سياف :

لعل صراراً أن تعيش بئاره ويُسمَع بالريان ، تُبنى مشاربه

١٤ ـ فارع : كان لبني مغالة ، وصاحبه هو ثابت والد الشاعر حسان بن ثابت ، وكان غربي الحرم ، ثم أدخل فيه ، وفيه يقول حسان :[1]

أرقت لتَوْ ماض البروق اللوامع ونحن نشاوَى بين سَلْع وفارع
أرقتُ له حتى علمت مكانه بأكناف سلع ، والتلاع والدوافع
طوى أبرَق العزَّافِ يَرعُد متنُه حنينَ المتالي نحو صوت المُشايع

١٥ ـ بَلْحان : كان بحَرّة بني قريظة شرقي المدينة ، وصاحبه هو كعب بن أسد القرظي ، وكان شاعراً مرموقاً ، له مناقضات مع قيس بن الخطيم ، فله يقول كعب :

لا تعدم الأوسُ منا في مواطنها ناباً لمن نابها في الحرب ميمونا[2]
لا تُستخفُّ إذا كان الصياح ولا تُعطي السوابغَ إلا أهلها فينا

ولهذا الأطم يقول الشاعر :

من سَرَّه رطبٌ وماءٌ بارد فليأت أهلَ المجد من بَلْحان

---

(١) الديوان ص ١٥١ والمتالي : النياق يتلوها صغارها . والمشايع : اللاحق من صغارها ، أو الراعي يهيب بها ، وأبرق العزاف : اسم موضع .

(٢) معجم الشعراء ص ٢٣٢ والناب : السيد والرئيس .

١٦ ـ مزاحم : ابتناه بنو الحبلى بين ظهراني بيوت بني الحبلى ، وصاحبه هو عبد الله بن أبيّ بن سلول . قال قيس بن الخطيم[١] :

صَبَحنا بها الآطام حول مزاحم قوانسُ أولى بيضِنا كالكواكب

١٧ ـ المستظِل[٢] : كان لأحيحة بن الجلاح ، وهو الذي تحصن فيه حين قاتل تبعاً أبا كرب . ثم صار لبني عبد المنذر في دية جدهم رفاعة بن زبير .

١٨ ـ الأطول ، ١٩ ـ الأشنق : كانا لبني عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة ، من الخزرج بين سلع وحرة الوبرة .

٢٠ ـ منيع : كان لبني سواد بن غنم بن كعب بن سلمة ، على ظهر حرة الوبرة جنوب مسجد القبلتين .

٢١ ـ الأغلب : هو من آطامهم أيضاً .

٢٢ ـ خيط : وهو بلفظ واحد الخيوط ، وهولبني سواد بن غنم أيضاً ، وكان شرقي مسجد القبلتين على شرف الحرة . وصاحبه هو قيس بن أبي كعب .

٢٣ ـ الشمّاخ : هو لبني غنم بن عوف ، وكان في الحرة الغربية مما يلي العصبة .

٢٤ ـ القواقل : كان لبني سالم بن عوف ، في طرف بيوتهم ، وقد كان بنو سالم وبنو غنم ابنا عوف يسمون القواقل ، لأنهم كانوا إذا آووا أحداً قالوا له : قوقل حيث شئت ، أي اذهب حيث شئت فلا بأس عليك ، أي إنهم يحمونه فلا يخشى هلاكا .

٢٥ ـ السُّنْح : وكان لبني جشم بن الحارث بن الخزرج الأكبر ، وهو بمنطقة العوالي .

---

(١) الديوان ص ٨٦ والمغانم ص ٣٨٠ .

(٢) الأصمعيات (تعليق) ص ١٢٠ .

٢٦ ـ الأجرد : وهو لبني خدرة بن عوف ، وكان على بئر البصّة .

٢٧ ـ شاس : وهو لبني عطية ، قبلة رحبة مسجد قباء .

٢٨ ـ العذق : وهو لبني أمية بن زيد ، وكان بالعوالي .

٢٩ ـ الموجا : وهو لبني وائل بن زيد .

٣٠ ـ الزيدان : وهو لبني واقف ، قال أبو قيس بن رفاعة :

وكيف أرجو لذيذ العيش بعدهمُ ... وبعد من قد مضى من أهل زيدان

٣١ ـ السعدان : وكان لبني لوذان بن عمرو بن عوف (السميعة) .

٣٢ ـ الشُّنيف : وهو لبني عمرو بن عوف بقباء ، وله ولأطم واقم يقول كعبُ بن مالك :

فلا تتهدد بالوعيد سفاهةً ... وأوعد شُنيفاً إن عصيت وواقما

٣٣ ـ منيف : أي المشرف . ابتناه بنو دينار بن النجار ، وصاحبه مالك بن كعب بن عبد الأشهل ، وكان أثناء بنائه إذا وضع حجراً ومعه امرأته يقول : للأبد . . وله يقول الشاعر :

يا عين فابكي مالكاً ... ويعزّ ذلك هالكا

ولقد بنيتَ مشيّداً ... دون الكواكب سامكا[1]

٣٤ ـ مُعرِض : اسم لأطمين ، أحدهما كان لبني قريظة ، والثاني لبني عمرو ابن ساعدة ، وكان آخر أطم بني بالمدينة ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يبنونه ، فاستأذنوه في إتمامه فأذن لهم ، وله يقول أبو أسيد الساعدي :

---

(١) المغانم ص ٣٩٦ .

ونحن حمينـــا عن بضـــاعـــة كلهـــا ونحن بنينـــا معرضـــاً فهـــو مشرف[1]
فـــأصبح معمـوراً طـو يـــلاً قـــذالُـــه وتخرَبُ آطـــــام بهـــــا وتَقصّف

ولعـل بعـد هـذا العرض السريـع لأسماء الآطـام والجهـات المقـامـة عليهـا ، تستطيع أن ترسم في ذهنك خارطة لتوزيعها الحربي ، وتدرك علاقتهـا بـالتوزيع البشري فـوق أرض يثرب ، وتعلم أنـــه لا يكاد يـــوجـــد فرع من فروع الأوس والخزرج ، أو من اليهود ، إلا وله أطم يحميـه ويفتخر بـه ، ويعتبره عنوان قوتـه ومصـدر اعتزازه ، وهـذا يؤكـد أهميـة الآطـام وقيمتهـا الحربيـة وصلتهـا بـأيـامهم وتحركاتهم الحربية ويكشف عن أثرها في حياتهم الاجتماعية والسياسيـة ويجعل بحق يثرب ربة الآطام بين المدن العربية .

٧ ـ السمات العامة للمجتمع اليثربي

لعـل الخطـوط العريضـة للمجتمـع اليثربي تكـون قـد ارتسمت في الـذهن من خلال أحاديثنـا السـابقـة ، فمن حيث البنيـة البشريـة كان يضم في داخلـه ثلاثـة عنـاصر ، هي اليهود والأوس والخزرج ، وأفخـاذ قليلـة الشـأن من قبـائـل أخرى ليس لها أثر يذكر في تحريك الحياة الاجتماعية ، وإنما هم تبع للعنصرين الأولين .

وإذا قرأنـــا كـلام السمهـودي[2] نقـلاً عن ابن حـــزم أن بني السَّلَم من الأوس انقرضوا في آخر المائة الثانية من الهجرة بعد أن كان قد بلغ عددهم في الجاهلية ألف مقاتل ، استطعنا أن نخزر عدد أفراد هذا المجتمع على وجه التقريب بمـا يزيـد على مائتي ألف نسمة ، ذلك أننا إذا اعتبرنا عدد المقاتلة في مثل هـذا البطن ألفـاً : كان عدد غير المقاتلة فيه من النسـاء والأطفـال والعـاجزين عن القتـال يمثلون حوالي

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٦ .
(٢) الوفاء ١ : ١٩٦ .

الألفين ، مع أن بني السَّلَم لم يكونوا من البطون الشهيرة فيهم ، ونحن نعلم أن مجموع بطون الأوس والخزرج واليهود وغيرهم يزيد على سبعين بطناً فإذا ضربناها في المتوسط التقريبي للتعداد الذي أشرنا إليه بلغ عددهم فعلاً مائتين وعشرة آلاف نسمة وذلك يعطينا رقما سكانياً مرتفعاً بالنسبة للمساحة التي كانوا يعيشون عليها والموارد القائمة ، ولكن يبدو أن هذا العدد تناقص إبَّان البعثة النبوية ، وذلك أننا لم نجد في المراجع ما يدل على أي ازدحام سكاني أصيل في يثرب ، ولا طارئ بحكم هجرة المسلمين من غير اليثربيين إليها ، ولا ظهر لتلك الكثرة المزعومة أثر في الغزوات مع الرسول ﷺ أو عليه ، ورغم أنه سبق أن ذكرنا تعرّض اليهود للقتل على نطاق كبير على يد أبي جبيلة الغساني ومالك بن العجلان ، وتعرّض بعض فخوذ الخزرج للتفاني في حديقة الموت ، ورغم الحروب المتوالية بين الأوس والخزرج ، فإننا لا نرى ذلك سبباً مقنعاً لهذا التناقص ، ولم نعرف أنهم أصيبوا بكارثة أو وباء عام ذهب بعددهم ، ولذلك فإنني أرى فيما أورده السمهودي نقلاً عن ابن حزم شيئاً من المبالغة يستدعي بعض التوقف ، لكن الذي لا شك فيه أنهم كانوا ذوي عدد مشهود .

والمجتمع اليثربي كان في عمومه يختلف عن بقية المجتمعات العربية المعاصرة له : البدوية منها ، والتي فيها فضل تحضر ، وذلك لوجود هذا الجسم الغريب عن الأرض العربية فيها ، وهو العنصر اليهودي الإسرائيلي ، الذي يقيم حياته في جميع أنحاء العالم وعلى مر العصور والأجيال ، على الاستغلال المادي الجائر ، من جشع واحتكار وربا فاحش ، وعلى الإيقاع وزرع بذور العداوة والبغضاء ، وتغذية الصراع فيما حوله ، ليخلو له الجو ، وينشغل الناس عن معايبه ومخازيه ، ويتعاون مع الغرباء في الخارج ، لتحطيم الوحدات القائمة في الداخل ، وتصديع كياناتها أو إخضاعها لإرادته بطريق غير مباشر ، وقد عصم الله منه بقية أجزاء المجتمعات العربية ووقاها من شره . وكان لوجود هذا العنصر الغريب أثر واضح

على الحياة الاجتماعية في يثرب في الجاهلية والإسلام ، من الدس والخديعة وإثارة القلاقل والفتن ، إلى أن قضى الله بإبعاده إلى غير رجعة في عهد رسول الله ﷺ كما سبق أن أشرنا .

وقد درج الباحثون في التاريخ العام وفي تاريخ الأدب بالذات ، على تقسيم سكان الجزيرة العربية أثناء الفترة الجاهلية التي تمثل مائة وخمسين سنة أو مائتي سنة تقريباً قبل ظهور الإسلام إلى قسمين : حضر وبدو ، أو أهل مدر وأهل وبر ثم يقول بعضهم على هذا الأساس كأبي عبيدة[1] : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل يثرب . ثم عبد القيس ، ثم ثقيف ، وعلى أن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت . ويقول ابن سلام[2] : أشعرهن قرية : المدينة ، شعراؤها الفحول خمسة .

ولعل من الأفضل أن نسمح لأنفسنا بمخالفتهم لأول مرة في هذا التقسيم ، اعتقاداً منا أن في تلك المخالفة اقتراباً من الواقع ، فأنا أوثر أن أقسمهم إلى ثلاثة أقسام هي :

أ ـ مجتمع رعوي يمثله سكان البادية ، الذين تقوم حياتهم على الرعي ، وانتجاع الكلأ والذين لا يرتبطون بالأرض إلا بمقدار ما توفر لهم من ماء وعشب ، واستقرار مؤقت وهم الأكثرية الكاثرة ، كبكر وتغلب ، وعبس وذبيان ، وعلى أساس شعرهم كون النقاد القدماء نظرتهم إلى عمود الشعر العربي ، التي أجملها المرزوقي[3] في قوله : (إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة

---

(١) الأغاني ط دار الكتب المصرية ٤ : ١٣٧ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ١ : ٢١٥ تحقيق الأستاذ محمود شاكر مطبعة المدني بالقاهرة .

(٣) شرح مقدمة ديوان الحماسة للمرزوقي لابن عاشور ص ٩ ولإجمال ما فصله المرزوقي يقال : إن الذي يتطلبه عمود الشعر في المعنى ـ عندهم ـ أن يكون شريفاً صحيحاً مصيباً . وفي اللفظ أن يكون جزلاً مشاكلاً للمعنى المراد . وفي الأسلوب أن يكون متلائماً موحد النسج متخير الوزن يتطلب لفظه ومعناه القافية ، يتم بها أداء المعنى . وفي الخيال قرب التشبيه ومناسبة المستعار للمستعار له .

اللفظ واستقامته ، والإصابة في الوصف ، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما ، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر) بالإضافة إلى تقاليده الأخرى كالبدء بالنسيب والحديث عن الرحلة وحسن التخلص ونحو ذلك .

ب ـ مجتمع زراعي يمثله سكان الواحات ، والمناطق الوفيرة المياه ، كيثرب والطائف والحيرة ، إذ ليست كل الجزيرة العربية صحارى قاحلة أو وديانا جافة ، أما الصورة[1] التي تنطبع في أذهاننا عن هذه الجزيرة من معطيات بعض الأشعار الجاهلية فهي صورة جزئية ناقصة ، فقدت كثيراً من الظلال والألوان والشيات ، والمجتمع الزراعي بلا شك مجتمع أرقى في السلّم الحضاري من المجتمع الرعوي ويتميز عنه بعدة خصائص تظهر في أسلوب حياته ، وتنعكس بالتالي على طريقة تعبيره ، فهو مجتمع مستقر مرتبط بالأرض ، يدافع عنها ويموت من أجلها .

ج ـ مجتمع تجاري : تمثله مكة ، وهو مجتمع أرقى بالطبع في السلّم الحضاري من المجتمعين السابقين وأكثر استقراراً ورفاهاً ، كما أن لديه في الغالب ما يشغله عن ممارسة الشعر أو الإغراق فيه على الأقل ، وبهذا يمكن تفسير قلة شعراء مكة بالإضافة إلى قلة حروبها ، هذا علاوة على ما تقتضيه التجارة من أسفار وتجارب ومخالطة للأمم والشعوب .

ولا شك أن هذه الأنواع الثلاثة من المجتمعات قد اختلفت في مقومات حياتها وفي اتجاهاتها الخاصة ، حتى لقد قال أحد علماء الاجتماع : صفوا لي طبيعة أرض

---

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول للدكتور شكري فيصل ص ٦ .

أصف لكم سكانها . ولا بد أن يكون لجميع ذلك أثر على أساليب تعبيرها شعراً ونثراً .

ومن مظاهر ذلك الاختلاف : قلة الحروب وقلة الأشعار في المجتمع التجاري المكي كما أشرنا .

ومن مظاهر ذلك أيضاً : أن كلمة مال ـ مثلاً ـ كانت تعني في المجتمع الرعوي الإبل والشاء وغيرها من المواشي ، ولعل في قصة[1] زواج بنات الشاعر الجاهلي الفارس ذي الإصبع العدواني دليلاً على هذا المعنى ، فقد سأل كل واحدة من بناته الأربع بعد زواجهن السؤال التالي : ما مالكم ؟ فأجابته الأولى : أنه الإبل ، وأجابته الثانية : إنه البقر ، وقالت الثالثة : إنه المعزى ، وقالت الأخرى : إنه الضأن ، إلى آخر القصة . وقال صاحب الأغاني أيضاً[2] أثناء حديثه عن المرقش الأصغر : ثم انطلق إلى أهله وترك المال الذي كان فيه ـ يعني الإبل التي كان مقيماً فيها ـ حياءً مما صنع .

بينما نجد الكلمة نفسها في المجتمع الزراعي في يثرب تعني المزرعة وحائط النخل ، فيقول شاعرهم أحيحة بن الجلاح ـ مثلاً ـ :

إني أقيم على الزوراء أعمُرها ... إن الكريم على الإخوان ذو المال[3]

ويقول شاعر آخر منهم :

هلمّ إلى الأحلاف إذْ رقّ عظمهم ... وإذ أصلحوا مالاً بجذمان ضائعا[4]

---

(١) الأغاني ٣ : ٨٩ ـ ٩١ ثقافة .

(٢) المرجع السابق ٦ : ١٣٠ ثقافة .

(٣) المرجع السابق ١٥ : ٣٢ ثقافة ومراصد الاطلاع ٢ : ٦٧٤ وعيون الأخبار ١ : ٢٤٠ والزوراء : حائط نخل كان له ، وذو المال : ذو النخل .

(٤) جذمان : موضع سمي بذلك لوجود نخل حوله جذمه تبع اليماني ، وكلمة مال هنا تعني ذلك النخل .

ونجد كتب السيرة والأحاديث تتحدث عن رسول الله ﷺ فتقول ـ مثلاً ـ كان في مال لبني فلان ، أو مرّ بمال لبني فلان ، أي بحائط نخيلهم .

أما في المجتمع التجاري المكي فهي تعني عروض التجارة أو الذهب والورق ، فلما سمع[1] رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام قبل وقعة بدر ندب المسلمين إليهم ، وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها ، فلعل الله أن يُنفِلَكموها . وهو يعني أن فيها عروض تجارتهم .

وهكذا احتل الطابع الزراعي مكانه في أشعار اليثربيين ، ومن ذلك قول أحيحة بن الجلاح :

إني أقيم على الزوراء أعمرُها	إن الكريم على الإخوان ذو المال
لها ثلاث بئار في جوانبها	فكلُّها عُقَبٌ يسقي بإقبال[2]
استغْنِ أو مت ولا يغرُرْك ذو نَشبٍ	من ابْنِ عمٍّ ولا عمٍّ ولا خال
يَلْوُون مالَهمُ عن حق أقربِهمْ	وعن عشيرتهم ، والحق للوالي[3]

وقول غيره :

تكلّفني من تكاليفها	نخيلَ الأساويف والمصنعة
نخيلاً حمتْها بنو مالك	جنودَ أبي كِربَ المُفْضِعة

ويقول كعب بن الأشرف :

ولنا بئر رواء عذبةٌ	من يَرِدْها بإناء يغترفْ
ونخيلٌ من تِلاعٍ ، جمّةٌ	تُخْرِج التمر كأمثال الأكفْ

---

(١) الأغاني ٤ : ١٧٥ .

(٢) العقب : جمع عقبة ، وهي النوبة ، أي يخلف بعضها بعضاً في السقي .

(٣) يلوون : يجحدون .

ويقول أحيحة أيضاً :

تـــأبّري يـــا خيرةَ الفسيـــل   تـــأبّري من حَنَـــذٍ وشُـــولى
إن ضنَّ أهـل النخـلِ بـــالفحـولِ   تروَّحي أجـــــــدر أن تَقيلى[1]
غداً بجَنْبي باردٍ ظليلِ

فهي أرض ذات مياه غزيرة عـذبـة تستخرج من آبـار قريبـة المورد يغترف منها المرء بإناء دون كبير عناء ، وكلها عقب يسقى بإقبال ، ويخلف بعضها بعضاً في سقي نخيل جمّ أصيل كثير الثمار ، ويبدو أن الآبار كانت عندهم مـدعـاة للفخر ولذلك رأينا أحيحة وكعباً ـ وهما من أثرى معـاصريهم ـ يفتخران بهـا ويعتزان ، بل إن أحيحة كان يمتلك تسعـاً وتسعين[2] بئراً كلهـا ينضح عليهـا ، في شمال يثرب وجنوبها حتى قيل : كاد يحيط بأموال يثرب جميعاً .

ويقول قيس بن الخطيم :

ترى قِصَـــدَ المُرّان تهـوي كأنهـــا   تـذرُّعُ خُرصـان بـأيـدي الشـواطب

ويقول سويد بن صامت يصف نخلة بالجودة :

أدِين ومـــــــا دَيْني عليكم بمَغْرَمٍ   ولكن على الشُّم الطـــوال القراوحِ[3]

---

(١) مراصد الاطلاع ١ : ٤٣١ وحنذ : هي إحدى بساتينه ، وشولى : تلقحى من قولهم : شالت الناقة . يصف أحيحة النخل بأنه بجانب بستانه حنذ يتأبر منها دون أن يؤبر .

(٢) الأغاني ١٥ : ٤٧ ثقافة .

(٣) لسـان العرب ١ : ٣٩٧ والشم : الطـوال . ويروى الشم الجلاد : أي الصـابرات على العطش والحر والبرد . والقراوح : التي انجرد كربها ، واحـدهـا قرواح ، وكان الأصـل أن تجمع على قراويح ، فحذفت الياء للضرورة . والمعنى : إنما آخذ بدين على أن اؤديه من مالي ومـا يرزق الله من ثمرة نخلي ، ولا أكلفكم قضاء دين عني .

فليستْ بسَنْهـــــاءٍ ولا رُجّبيّـــــــة ولكنْ عرايـا في السنين الجـوائـح[1]

وقد زاد وجود الحرار بـالمـدينـة من خصوبتهـا ، لأنهـا أرض بركانيـة تغـذي التربة وتمدها بالعناصر التي تزيد قابليتها للخصب والنماء . قال حسان بن ثابت :

لنـــا حَرّةٌ مـــأطـورةٌ بجبـــالهـــا بنى المجـدُ فيهـا بيتــه فتـأهّـلا[2]
بهـا النخـل والآطـامُ تجري خلالهـا جـداولُ قـد تعلـو رقـاقـاً وجَرْولا[3]
إذا جـــدول منهـــا تصرم مـــاؤه وصلنـا إليــه بـالنـواضح جـدْولا[4]
على كل مفهـــاقٍ خسيفٍ غُروبُهـــا تُفرِّغ في حـوضٍ من الصخر أنجـلا[5]
لـــه غَلَـلٌ في ظـلّ كل حـديقـة يعـارض يَعْبـوبـاً من المـاء سلسلا[6]

ويقول أحيحة في الجدول الذي يتدفق في بستانه :

يـــزخر في أقطـــــاره مُغْـــدِقٌ بحـــافتيـــه الشّـــوْع والغَرْيَفُ

وقال مشيراً إلى النخيل :

إذا مــا جئتهـا قــد بعتُ عِــذْقـاً تعـــانــق أو تُقَبِّـــل أو تُفـــدِّى

---

(١) السنهاء : التي أصابتها السنة ، يعني أضرّ بها الجدب . وقيل : هي التي تحمل سنة وتترك أخرى والعرايا : جمع عرية ، وهي التي يوهب ثمرها . رجبية : من قولهم (رجب الرجل النخلة) إذا ضم أعذاقها إلى سعفاتها وشدها بالخوص لئلا تنفضها الريح ، أو وضع الشوك حولها لئلا تصل إليها يد ، وفي حديث السقيفة : (أنا جُذَيْلها المحكّك ، وعُذَيْقُها المرجَّب) . والجوائح : السنون .

(٢) الديوان ص ٢١٠ والمأطورة : المحاطة .

(٣) الرقاق : الأرض المنبسطة الصلبة . والجرول : الأرض ذات الحجارة .

(٤) النواضح : الإبل التي تنقل الماء ، أو يستخرج عليها .

(٥) المفهاق : البئر وافرة الماء . الخسيف : العين الغائرة ، أو بئر حفرت في حجارة فلم ينقطع ماؤها . أنجلاً : وافر الماء . وغروب : جمع غرب ، وهو الدلو العظيمة .

(٦) الغَلل : الماء الجاري بين الشجر . واليعبوب : النهر ، والسلسل : الماضي في جريانه .

أهنتُ المـــــال في الشهـــوات حتى أصـــارتْني أسِيفـــاً عبْـــد عبْـــد
فمن نـــــال الغنى فلْيصْطنِعْـــــه صنيعتـــه ويَجْهَـــدْ كُـلَّ جَهْـــد
أَعلِّمكم وقـــــــــد أرديتُ نفسي فمن أَهْـدي سبيـلَ الرُّشـدِ بعـدي[1]

ووردت الحرة كثيراً في شعر أحيحة وذلك كقوله :

هم نكّبـــــوكَ عن الطريـــــق فبتّ تركب كل لابـــــــــه

وقوله في رثاء الازياد :

ألا يـــــــــا لهف نفسي أي لَهْفٍ على أهـــــل الفقـــــارة أيّ لهف

وسرى ذلك التأثير الزراعي إلى نثرهم أيضاً ، فهذا الصحابي الجليل الحباب ابن المنذر في سقيفة بني ساعدة يقوم بعد أن أتم أبو بكر كلامه فيقول : أنا جُذَيْلها المحكّك ، وعُذَيْقُها المرجَّب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش[2] .

وكان أهل المدينة يعلفون إبلهم النوى لوجود النخيل لديهم ، بينما لا يفعل ذلك أهل مكة وغيرهم ممن ليس لديهم نخيل ، لذلك نرى أبا سفيان يعرف إبل المدينة أو الإبل التي تمر بها من النوى الذي في بعرها ، ومن ذلك ما جاء في الطبري[3] حول وفد خزاعة الذي ذهب يستنجد بالرسول ﷺ عام الفتح على قريش التي نصرت عليهم بني بكر وأعملت فيهم السيف ، وكانت خزاعة على حلف مع الرسول ﷺ ، فخرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة على رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصابتهم به قريش ورزأتهم به حين ظاهرت عليهم بني بكر ، فوعدهم خيراً ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ، فلقوا أبا سفيان بعُسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ليشدّد العقد بينها وبينه ويزيد في مدة

(١) الأصمعيات ص ١٢ .
(٢) الطبري ٣ : ٤٦ .
(٣) المرجع السابق ٢ : ٢٢١ ونهاية الأرب للنويري ١٩ : ٣٢ .

هدنته معهم في الحديبية ، بعد أن رهبوا الذي صنعوا بخزاعة ، فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال : من أين أقبلت يا بديل ؟ قال : سرت في خزاعة إلى الساحل ، وفي بطن هذا الووادي . قال : أو ما أتيت محمداً ؟ قال : لا ، فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فعمد إلى مبرك ناقته ، فأخذ من بعرها ففتّه فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

فمدينة يثرب إذاً تقوم حياتها أساساً على الزراعة ، وكانت بها أودية وآبار كثيرة منتشرة هنا وهناك ، وأشهر أوديتها العقيق وقناة وبُطْحان ، وهذا الوادي الأخير يسميه الناس الآن باسم آخر هو وادي (أبو جيدة) بالإضافة إلى اسمه التاريخي ، وهو بسكون الطاء وضم الباء ، قال الشاعر :

أبا سعيد لم أزلْ بعدكمْ   في كُرَبٍ للشوق تغشاني
كم مجلسٍ ولّى بلذّاته   لم يَهْنَني إذ غاب نُدماني
سقيا لسَلْعٍ ولساحاتها   والعيشِ في أكناف بُطْحان
أمسيتُ من شوقٍ إلى أهلها   أدفع أحزاناً بأحزان[1]

وهناك واديان غير مشهورين وهما وادي مذينيب ، ووادي مهزور . وإذا سقط فيها مطر غزير نزلت السيول في هذه الوديان عاتية شديدة ، بشكل تتعرض فيه المدينة إلى الخطر ، ومن ذلك ما حدث في عهد عثمان رضي الله عنه ، مما اضطره إلى بناء سد يقيها شر الفيضان[2] وفي العصر الحاضر أقيم سد كبير على وادي العقيق وآخر على وادي بُطْحان للغرض نفسه . وكان بعض هذه المياه في الجاهلية يتخلف في شكل برك ومستنقعات ، وقد يتسرب بعضها بعد تلوثه بالجراثيم إلى الآبار مما نشأ عنه انتشار بعض الحميات في المدينة ، تلك الحميات التي

---

(١) معجم البلدان ١ : ٤٤٦ .

(٢) الرحلة الحجازية للبتنوني ص ٢٥٩ .

كانت سبباً في مرض كثير من الصحابة عقب الهجرة ، الأمر الذي جعل الرسول ﷺ يدعو الله أن تنتقل هذه الحمى منها إلى بلاد أخرى[1] ، أو إلى مهيعة غير مسكونة .

وبغض النظر عما كانت تحدثه هذه المستنقعات من آثار سيئة ، فإن جو يثرب كان في عمومه خير من جو مكة وألطف ، ولم يعان أهلها ما عانى أهل مكة من شح في الماء ، فالماء متوافر فيها ـ كما قلنا ـ ومن الممكن الحصول عليه بسهولة ، ولهذا كان في إمكانها زرع النخيل وإنشاء البساتين والحدائق العامرة بالرمان والكروم والليمون والتين والموز والمشمش والخوخ ومختلف الخضراوات ، والحبوب ، وكان فيها وفيما حولها مائة صنف من ثمرات النخيل ، ولانشغالهم بالزراعة كان جيرانهم من البدو يحقرونهم ويسمونهم نبطيين . وروى الحربي[2] عن طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ المدينة وواديها بُطْحان نجلٌ ، تجتزئ عليه الإبل ، أي واسع فيه ماء ظاهر يقال : استنجل الوادي ، واستنجلت الأرض : إذا خرج منها الماء .

ولما نزل تبّع اليماني[3] حول يثرب بعث رائداً إلى مزارع المدينة ، فأتاه فقال : قد نظرت ، فأما قناة[4] فحبّ بلا تين ، وأما الحرار فلا حب ولا تين[5] وأما

(١) الوفاء ١ : ٣٨ ـ ٣٩ .

(٢) معجم ما استعجم ١ : ٢٥٨ .

(٣) المغانم المطابة ص ٨٨ ومراصد الاطلاع ١ : ٣٢٦ .

(٤) وادي قناة : شمالي المدينة وجنوبي جبل أحد مباشرة ، وهو جزء من وادي إضم .

(٥) من أسماء المدينة (ذات الحرار) والحرار في بلاد العرب كثيرة ، والحرة : كل أرض ذات حجارة سود نخرة ، كأنما أحرقت بالنار . وقيل : إذا كانت كذلك وهي مستديرة فهي حرة ، وما كان مستطيلاً منها ليس بواسع فهو لابة ، ويقال أيضاً : كراع . وأكثر الحرار حول المدينة ، وتسمى مضافة إلى أماكنها ، كحرة واقم ، وحرة الوبرة ، وحرة دَثم ، وحرة بني قريظة . . وهكذا . وتقع المدينة أساساً بين حرتين : شرقية وغربية ، وتسميان أيضاً لابتيها والحرات كثيرة في جزيرة العرب .

الجرف فالحب والتين[1] . وعرف اليثربيون تبعاً للزراعة الإبل النواضح واهتموا بها وبرعيها وقد سبق قول حسان :

إذا جــدول منهــا تصرّم مــــاؤه   وصلنــا إليــه بــالنـواضــح جـدولا

ويقول أحيحة مفضلاً النخل على الإبل :

وتصبــح حيث يبيت الرّعــــاةُ   وإن ضيّعــوهــــا وإن أهملــوا
ولا يصبحــون يبغّــونهــــا   خــلال المــلأ كلهم يســـأل

وعرفوا تبعاً لـذلـك استئنـاس الكلاب ، وقـد[2] كانت لأحيحـة مجموعـة من الكلاب يطلقها من حول أطمه الضحيان تنبهـه عنـد مقـدم الأعـداء أو الضيفـان حتى لا يؤخذ على حين غرة من أمره .

وهذه الخيرات الوفيرة والمياه الغزيرة في يثرب لم تفلح في خلق مناخ حضارة ملائم ، ولا مكّنتْ أهلها من معالجة مشـاكلهم بـالتؤدة والرويّـة ، شـأن الإنسان المتحضر عادة ، بل عاشوا وسطاً بين المجتمع المكي التجاري والمجتمع الرعوي البدوي ، وكانوا للبـداوة أقرب سبيـلاً ومنـوالاً . فقـام الصراع في يثرب بـادئ ذي بـدء بين اليهود والأوس والخزرج متخـذاً المظـاهر المختلفـة ، وانتهى بغلبـة الأوس والخزرج

---

(١) هو موضع على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشام (الميل ١٦٠٠ م تقريباً) وبه بئر جشم ، وبئر جمل . قـالوا : سمي الجرف ، لأن تبّعاً مر بـه فقـال : هـذا جرف الأرض ، وكان يسمى قبل ذلك : العِرْض ، وفيه قال كعب بن مالك :

إذا مـا هبطنـا العِرْض قـال سراتنـا   عـلامَ إذاً لم نمنـع العِرْض نـزرع

وله ذكر في غير ما حديث ، قال كعب بن الأشرف اليهودي :

كل حـاجـاتيَ قـد قضّيتُهـا   غير حـاجـاتي على بطن الجُرُف

(المغانم المطابة ص ٨٨ ومراصد الاطلاع ١ : ٣٢٦)

(٢) الأغاني ١٥ : ٤٨ ثقافة .

بمساعدة الغساسنة كما قدمنا ، ومنذ ذلك الحين خنع اليهود ظاهرياً ، وأصبحوا يعيشون في كنف الأوس والخزرج في أحلاف عديدة ومتنوعة ، حسب ما يحقق مصالحهم ، وسلكوا أسلوب الوقيعة وإثارة الإحن بين الإخوة من الأوس والخزرج ، وقنعوا بالسيطرة الاقتصادية والاستيلاء على موارد الثروة والتجارة ، وكان منهم الصاغة والصناع وأصحاب الحِرف التي كانت غالبية العرب تأنف منها ، كما هو المعروف عن يهود بني قينقاع[1] ، ثم نشبت الحرب بين الأوس والخزرج أنفسهم ابتداء من يوم سُمير وانتهاء بيوم بعاث ، وأحد البلويين وهو المجذّر بن زياد البلوي كان أحد المسلمين الذين قتلوا يوم أحد بثأر من ثارات الجاهلية ، قتله الحارث بن سويد بن الصامت غيلة ، لأن المجذّر قتل أباه في حرب بعاث .

فلم تكن العلاقات بين عناصر المجتمع اليثربي إذاً مستقرة ، تسمح بالحياة الرغدة الهانئة ، وإنما هي هدوء يسبق العاصفة ، وعواصف يبدو معها الهدوء مطلباً بعيد المنال ، ولكنهم في فترات الهدوء القليلة استطاعوا أن يتفرغوا لبعض الأنشطة الخارجة عن نطاق الزراعة والحروب كالصناعة والتجارة والبناء ، فقد كان البناء يبلغ في بعض أحيائهم إلى أربعة طوابق[2] .

وكان المجتمع اليثربي يميل إلى الغزل واللهو والغناء ، وعرفوا باتخاذ القيان ، فلما دخل النابغة الذبياني المدينة وأحسّوا بالإقواء في شعره ، لم يروا من اللياقة مواجهته به ، فكلفوا قينة تغني له في شعره بطريقة تظهر له فيها ما كان يرتكبه من إقواء ، فتنبه إلى ذلك بنفسه ، ولما خرج أحيحة بن الجلاح إلى تبّع الأصغر أبي

---

(١) نهاية الإرب ١٧ : ٦٧٦ .

(٢) حسان بن ثابت للدكتور محمد طاهر درويش ص ٩١ نقلاً عن هيوارت في تاريخ العرب ١ : ١٣٣ .

كرب الذي كان يحاصر المدينة ، خرج ومعه قينة غنته بعد مقابلة تبّع في شعر له كما سنورد ذلك في مكان آخر .

وعن عائشة[1] رضي الله عنها قالت : كانت جارية من الأنصار في حجري فزففتها ، فدخل رسول الله ﷺ ولم يسمع غناء ، فقال : أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قلت : نعم قال : فبعثتم معها من يغني ؟ قلت : لم نفعل ، فقال : يا عائشة أوما علمتم أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ؟ ألا بعثتم مع الفتاة من يقول :

أتيناكمْ أتيناكمْ ... فحيونا نحييكم
ولولا الحنطة السمراء ... لم نحلل بواديكم

ومن أرق ذلك الغزل قول حسان يخاطب صاحبته النّضيرة[2] :

أنضيرَ ما بيني وبينكمُ ... صَرْمٌ ، وما أحدثتُ من هَجْرِ
جودي فإن الجود مكرمةٌ ... واجْزي الحسامَ ببعض ما يَفْري
وحلفتُ لا أنساكمُ أبداً ... ما ردَّ طرفَ العيْنِ ذو شُفْر
وحلفتُ لا أنسى حديثك ما ... ذكر الغويُّ لذاذة الخمر

وكان بعضهم يقبل على شرب الخمر ، ويعرف منها الصبوح والغبوق ، فهذا أحيحة يقول :

ولو أني أشاءُ نعمت حالاً ... وباكرني صَبوح أو نشيل[3]

---

(١) أبجد العلوم للقنوجي ص ٢١٠ .
(٢) الديوان ص ٨ والصرم : الهجر . ويفري : يقطع . والشفر : أصل منبت الشعر في الجفن . فذو الشفر : الجفن .
(٣) النشيل : اللبن ساعة يحلب .

ولاعبني على الأنمـــاط لُعْسٌ   على أفـــواههن الـــزنجبيـــل

ولها مجالس يجتمعون فيها قد ينسون إزاءها بعض العـداء ، على أن مثل هـذه المجـالس تكون أكثر انتشـاراً ويـزداد عـددهـا وتتنـوع كيفيـاتهـا في فترات سلمهم المتقطع ، يذكر أبو الفرج[1] : أن حسان بن ثابت جمعه مجلس شرب مع كعب بن أسـد وسـلام بن مشكم اليهـوديين ، وقيس بن الخطيم الأوسي ، وعبـد الله بن أبي ، وهو خزرجي مثله ، وكانوا في موادعة وقد وضعت الحرب أوزارهـا بينهم ، فقـال قيس بن الخطيم لحسّان : تعال أشاربك ، فتشاربا في إناء عظيم ، فـأبقى حسـان من الإنـاء شيئـاً ، فقـال لـه قيس : اشرب . فقـال حســان وقــد عرف الشر من وجهه : إن خيراً من ذلك أن أجعل لك الغلبة ، فقـال : لا . لا بـدّ أن تشربـه ، فأبى حسان ، فقال سلام لقيس : يا أبا يزيـد ، لا تكرهـه على مـا لا يشتهي ، إنما دعوناه لإكرامه ، ولم ندعـه لنستخف بـه ونسيء مجـالستـه ، فقـال لـه قيس : أفتـدعوني أنت لتسيء مجـالستي ؟ فقـال لـه سـلام : مـا في هـذا سـوء مجـالسـة . وما حملتُ عليك إلا لأنك مني وأني حليفـك ، وليس عليـك غضـاضـة في هـذا ، وهـذا رجـل من الخـزرج قـد أكرمتــه وأدخلتــه منزلي ، فيجب أن تكرم لي من أكرمتـه ، ولعمري إن في الصحـو لمـا تكتفُـون بـه من حروبكم . فـافترقـوا ، وآلى سلام بن مشكم على نفسه ألا يشرب سنة ، وذلك بسبب ما أدركه ممـا قـد يحـدثـه السكر وما يعقبه من خلاف .

وقال حسان يصف الخمر[2] وساقيها وما تفعله بشاربهـا ، بعـد أن تحـدث عن ديار المحبوبة :

كأنّ فـــاهـــا ثغبٌ بـــاردٌ   في رَصَفٍ تحتَ ظلالِ الغَمَـام[3]

---

(١) الاغاني ٦ : ٣٢٨ .

(٢) الديوان ص ٢٤ .

(٣) الثغب : الغدير بين الظلال . الرصف : الحجارة المتراصفة .

شُجّت بصهبــــاءَ لهــــا سَــوْرةٌ | من بيتِ رأْسٍ عُتِّقتْ في الختــــامْ[1]
عتّقهـــا الحـــانوتُ دهْراً فقـــد | مَرَّ عليهـــا فَرْط عـــامٍ فعـــام[2]
نشربُهـــا صِرفـــاً وممــزوجـــةً | ثم نغنّى في بيـــوت الرُّخـــام
تـــدِبّ في الجسم دبيبـــاً كما | دَبَّ دَبَـاً وَسْـطَ رَقـاقٍ هَيـام[3]
كأسـاً إذا مـــا الشيـخُ والَى بهـــا | خمســـاً تردَّى برداء الغـــلام
من خمر بَيْســـانَ تخيّرتُهـــا | دِرْيَـاقــةً تــورثُ فَتْر العِظـام[4]
يسعى بهـــــا أحمرُ ذو بُرنُسٍ | مُختلقُ الـذِّفْرَى شـديـدُ الحـزام[5]
أرْوعُ للـــدعـــوة مستعجـــلٌ | لم يثنِـه الشّـأنُ خفيفُ القيـام[6]

ولحسان غير هذا من الخمريات ولغيره من شعرائهم . وكلنا نعلم أنه لما نزلت آية تحريم الخمر كسر المسلمون في المدينة دنان الخمر وأراقوها في الشوارع والأزقة حتى كونت من كثرة ما أريق منها وحلاً عظيماً في الطريق لم يجف إلا بعد أيام وكان جلّ السكان آنذاك إنما هم من الأوس والخزرج .

ولما غزا النبي ﷺ بني النضير وأجلاهم عن المدينة[7] خرجوا يريدون خيبر يضربون بالدفوف ويزمرون بالمزامير إظهاراً للنصر والجلد وعدم المبالاة وليغيظوا

---

(١) شجت : مزجت . الصهباء : الخمر . بيت رأس : اسم لقريتين في كل واحدة منهما كروم كثيرة ، تنسب إليها الخمر ، إحداهما بالقدس والأخرى في حلب .
(٢) عتقها الحانوت : حفظها . الحانوت : محل الخمار ، والخمار نفسه .
(٣) الدبا : صغار الجراد . والهيام : ما لا يتمالك من الرمل فهو ينهار أبداً .
(٤) بيسان : مدينة بالأردن مشهورة بالخمر . والدرياقة : كالترياق ، وهو الخمر .
(٥) أحمر : يريد أنه أعجمي . والبرنس : قلنسوة طويلة ، وكل ثوب رأسه منه ، وكان معروفاً عند الروم والمناطق التي حكموها ، ونماذج منه في شمالي أفريقيا الآن لا تزال تحمل نفس الاسم . والذفرى : العظم البارز خلف الأذن . ومختلق الذفرى : مدهون بالطيب .
(٦) الأروع : الذكي النشيط .
(٧) الأغاني ٣ : ٣٧ ، ٧٢ ـ ٧٤ .

في زعمهم المسلمين ، وكانت فيهم يومئـذ سلمى امرأة عروة بن الورد العبسي ، وقـد كان نزل فيهم بامرأته في إحدى أسفار صعلكته طلبـاً للهو والخمر ، فسقوه وقـدموا له كل مـا يريـد من أنواع الخمور ، ولم يكن مع الشـاعر السكّير مـا يـدفع بـه ثمن شرابه ولهوه فرهن امرأته ، ولم يزل يشرب ويلهو حتى غَلِقَتْ وصارت بذلك لهم ، ويبدو أن ذلك كان عرفاً سائداً ، وقال عروة في ذلك قصيدة منها :

سقـــــوني الخمر ثم تكنّفـــــوني ... عـــــداةُ الله من كـــــذبٍ وزور

وقـالـوا : لستَ بعـد فـداء سَلْمى ... بمُغْنٍ مـــا لـــديـــك ولا فقير

فـــلا والله لـــــو مُلِّكتُ أمري ... ومن لي بـــالتـــدبُّر في الأمــور ؟

إذن لعصيتهم في حب سلمى ... على مـا كان من حَسَـك الصـدور[1]

فيـــا للنَـــاس كيف غُلبتُ أمري ... على شيء ويكرهـــــــه ضميري

ولم يكتف اليهـود بعقـد المجـالس لشرب الخمر ودعـوة أصـدقـائهم من الأوس والخزرج إليها ، بل كانت لهم حوانيت خاصة لبيعهـا والمتـاجرة فيهـا فقـد ذكرت بعض الروايـات[2] في سبب مـوت صخر بن عمرو بن الشريـــد السُّلمي شقيــق الخنساء : أنه قدم إلى المدينة مع صديق له يدعى بَلْعاء بن قيس الكنـاني ، وكانـا أجمل رجلين من العرب ، فشربا عند يهودي خمّار ، فحسد جمالها وهيئتها وقال : إني لأحسد العرب أن يكون فيهم هذَين ، فسقاهما شربةً مسمومة ، مرضـا منهـا ، فمر طبيب بصخر بعد ما طال مرضه فأراه ما به ، فقال لـه : اشقٌ عنـك فتشفى وتفيق مما أنت فيه ، فعمد إلى شِفار فجعل يُحميها ثم يشق بها عنه ، فلم يلبث أن مات .

وكان لليثربيين نظـام ثـابت في الزواج يقوم على رضـا الأهل مع غيرة كبيرة

---

(١) الحسك : الشوك ، وهو هنا كناية عن العداوة والحقد .

(٢) الأغاني ١٥ : ٦٢ ثقافة .

على النساء ، من ذلك أن جمعاً من الأوس في إحدى حروبهم مع الخزرج ذهبوا إلى مكة طلباً للحلف مع قريش لتنصرهم عليهم ، وتم الحلف في غياب أبي جهل ، ولما حضر أصر على فسخ هذا الحلف بحيلة ، فلم يجد حيلة غير إثارة حميتهم من جهة النساء ، فخرج إلى الأوس قال لهم : إنكم حالفتم قومي وأنا غائب ، فجئت لأحالفكم وأذكر لكم من أمرنا ما تكونون على رأس أمركم ، قالوا : هات لنرى قال : إنا قوم تخرج إماؤنا إلى أسواقنا ، ولا يزال الرجل منا يدرك الأَمة فيضرب عجيزتها ، فإن طابت أنفسكم أن تفعل نساؤكم ما تفعل نساؤنا حالفناكم ، وإن كرهتم ذلك فردوا إلينا حلفنا ، فقالوا : لا نقر بهذا والله ، وحلفكم مردود ، ثم نهضوا إلى بلادهم راجعين ولسان حالهم يقول : ذُلٌّ بني عمنا خير مما يقوله أبو جهل .

وكان الشاعر منهم يحاور امرأته ويتحدث عنها في شعره ، يقول أحيحة :

إذا ما جئتها قد بعت عذقاً تعانق أو تُقبّل أو تُفدّى

ويقول أبو قيس بن الأسلت عن زوجته أيضاً :

قالت ولم تقصد لقيل الخنا مهلاً . . فقد أبلَغْت أسماعي
أنكرْتِه حين توسَّمتِه والحرب غولٌ ذات أوجاع

وكانت اليثربيات كغيرهن من النساء الجاهليات يشتركن مع الرجال في بعض أمور الحرب . وإن كن لا يغْنين غَناءهم ، بل يقدمن الخدمات للجرحى ويحرضن الرجال على مواصلة القتال ، كما حدثتنا كتب المغازي عن نسيبة بنت كعب وأم عمارة ، فقد حضرتا بعض الغزوات على غرار ما كان عليه نساء قومهما في الجاهلية ، وكما كان شائعاً في البيئة العربية كلها قبل ظهور الإسلام ، ثم استمر بعد ظهوره . وقد كان لسلمى بنت عمرو زوجة الشاعر الفارسي أحيحة بن الجلاح الفضل في إحباط خطته في مباغتة قومها بني النجار ، حيث احتالت للخروج

إليهم ليلاً وإعلامهم بما اعتزم عليه ، فلما أقبل عليهم وجدهم على أتم استعداد لمقابلته وحربه ، فعلم أنه لم يفعل ذلك غيرها فطلقها لذلك .

ومما يدل على المكانة الراقية التي كانت تحتلها المرأة اليثربية أن بعضهم كان يعتز بالانتساب إلى أمه ؛ كالشاعر عمرو بن الإطنابة ، وابن طلّة ، بل إن الأوس والخزرج جميعاً كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى جدتهم قَيْلة ، كما أن اليثربيين لم يعرفوا وأد البنات الذي كان معروفاً في بعض المجتمعات الرعوية من بطون تميم وغيرها .

وعرف اليثربيون تعدد الزوجات ، ويظهر ذلك جلياً من خلال حوادث الهجرة النبوية الشريفة ، حيث كان الرسول ﷺ قد آخى بين المهاجرين والأنصار ، حتى كان الرجل منهم يشرك المهاجري في ماله كله ويعرض عليه التنازل عن إحدى زوجاته ، وذلك كما فعل سعد بن الربيع مع عبد الرحمن بن عوف ، ذلك التنازل الذي قابله المهاجرون بعفة عالية تكافئ موقف الإيثار عند إخوانهم الأنصار ، وكان الطلاق شائعاً بينهم غير محظور ، ومن ذلك أن الرجل في الجاهلية إذا قال لامرأته[1] : (الظباء على البقر) بانت منه . وكان طلاقاً ، والبقر كناية عن النساء . والتقدير : اخترت الظباء على البقر . وقد ثبت من تاريخ حسان أنه طلق امرأته عمرة ثم ندم على ذلك وقال في ذلك شعراً سنذكره في مكانه من هذه الدراسة .

وكانوا إذا طلق أحدهم زوجته طلقة واحدة أمكنه مراجعتها ، أما إذا طلقها ثلاثاً لم تجز له مراجعتها بل تبين منه ، سواء كان ذلك بلفظ واحد أم مفرقاً[2] ، كما كان يجوز للرجل منهم أن يخلف أباه على زوجته إن لم تكن أمه ، ففي الإصابة لابن حجر[3] : أن ابن أبي حاتم نقل من طريق عدي بن ثابت : أن قيس بن

---

(١) مجمع الأمثال ١ : ٤٤٤ .

(٢) المحبر لابن حبيب ص ٣٠٩ .

(٣) الإصابة لابن حجر ٣ : ٢٥٢ ولكنه ذكر في (١ : ٣٣٥) أن اسمه حصن بن صيفي لا قيس ؛ لأن قيساً مات في الجاهلية .

صيفي بن الأسلت رضي الله عنه خطب زوجة أبيه بعد وفاته ، فقالت له : إنما أعدك ولداً لي ، وأنت من صالحي قومك ، ثم أتت النبي ﷺ فذكرت له ذلك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ ، وكانوا يسمون من يتزوج امرأة أبيه (الضيزن)[1] . وكانت بعض نسائهم تشترطن أن يكون أمرها بيدها في صباح عرسها ، فإذا ارتضت الزوجَ فيه يسقط حقها بعد ذلك ، وقد ذكروا منهم سلمى بنت عمرو زوجة أحيحة بن الجلاح ، وكذلك كانت تفعل بعض النساء في البيئات العربية الأخرى ، قال الميداني[2] : (وكانت أم خارجة - هي عمرة بنت سعد ، بن عبد الله ، بن قدار ، ابن ثعلبة - ومارية بنت الجعيد العبدية ، وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان السلمية ، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، والسَّوَّاء العنزية ، ثم الهزّانية ، وسلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد أحد بني النجار ، وهي أم عبد المطلب بن هاشم ، إذا تزوجت الواحدة منهن رجلاً ، وأصبحت عنده ، كان أمرها إليها ، إن شاءت أقامت ، وإن شاءت ذهبت . ويكون علامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاماً إذا أصبح ، وإلا تركته من غير طعام فيعلم أنها له قالية ، فتعود إلى بيت أهلها) .

وكان في نسائهم بعض الشاعرات ؛ كسارة القرظية التي تحدثنا عنها في انتصار أبي جبيلة لأبناء عمومته من الأوس والخزرج ، وهي يهودية ، ولم نجد من بين الأوس والخزرج شاعرات .

وأما معاملتهم لأبنائهم فقد كانت تنطوي على الحنان والمحبة ، وليسر أحوالهم المادية فإنه لم يؤثر عنهم أنهم وقعوا فيما وقع فيه بعض فقراء العرب في المواطن

---

(١) المحبر لابن حبيب ص ٣٠٩ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٣٤٨ .

الأخرى من قتل أولادهم خشية الإملاق ، حيث سفههم القرآن في قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾[1] ورغم غيرتهم على بناتهم فإنه لم يعرف عنهم ـ كما أشرنا ـ أنهم كانوا ممن يئدون البنات ، ومن هنا يظهر عدم دقة ما جاء في مجمع الأمثال[2] : (قال حمزة : وذكر الهيثم بن عدي أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة وكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام وقد قلَّ ذلك فيها ، إلا من بني تميم فإنه تزايد فيهم ذلك قبل الإسلام) لأن الوأد لم يكن معروفاً في المدن العربية كيثرب ومكة وإنما كان معروفاً في بعض القبائل الرعوية لأسباب ذكرها المؤرخون ، منها ما ذكره الميداني نفسه عن بني تميم ، وقد نزل القرآن في ذم وأد البنات ، فقال تعالى : ﴿ وإذا الموؤدة سُئلت بأي ذنبٍ قُتلت ﴾[3] ولعل عدم وجود ظاهرة الوأد بينهم كان تبعاً لعدم وجود ظاهرة الأسر فيما كان بينهم من حروب ، وتبعاً لما كانت تمتاز به أرضهم من خصب ورخاء وإنما كان يدفع غيرهم إلى الوأد خشية العار أو خشية الإملاق .

ولم يتخلوا عن مناصرة الأخ أو ابن العم ، بل كانوا ينصرونهم أخطؤوا أم أصابوا ، وعدلوا أم ظلموا ، وتقوم من أجل ذلك الحروب ، كما وقع ذلك في حرب حاطب وسُمير وغيرهما من الحروب التي نشبت بين الأوس والخزرج ، فإذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس أفراد كل بطن في الرئاسة والشرف وإن كان يجمعهم أصل واحد ، وقد يبلغ العداء لأجل ذلك أشده وتراق الدماء . وكان الأوس والخزرج واليهود في ذلك سواء ، فكما نشبت الحروب بين الأوس والخزرج نشبت بين البطون اليهودية ، حيث اتحد بنو النضير وبنو قريظة على بني قينقاع

---

(١) الاسراء : ٣١ .

(٢) مجمع الأمثال للميداني ص ١ : ٤٢٥ .

(٣) التكوير : ٨ .

وأوقعوا بهم شر وقعة ، وسبب ذلك أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع الخزرج[1] في يوم بعاث ، ومع أنهم دفعوا لهم الفدية عن كل من وقع في أيديهم من اليهود فإن قريظة والنضير لم يرضهم ذلك بل أثخنوا فيهم ومزقوهم كل ممزق ، وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية إلى ما بعد الإسلام ، ولذلك لم ينهض أحد منهم لمساعدة بني قينقاع في حربهم مع المسلمين .

وعرف اليثربيون الرق والاستعباد والمؤاجرة على الأعمال في الزراعة وغيرها ، كما نعلم عن عبودية سلمان الفارسي فيهم قبل الإسلام ، وكما يدل عليه قول أحيحة :

أهنت المال في الشهوات حتى أصارتْني أسيفا عبْدَ عبد

وكما عرفنا من اتخاذهم القيان ، وهن الجواري المغنيات . وقال السمهودي[2] في حديثه عن بني قينقاع : وكان لهم أموال وعبيد .

وعرفوا أيضاً نظام الأحلاف والإجارة ، فللأوس أحلاف من خارج المدينة وللخزرج أحلاف ، ولليهود أحلاف ، وقد تعقد الأحلاف داخل المدينة بين الحيين العربيين أو بينهم وبين اليهود ، ثم إن الفخوذ العربية الصغيرة التي قلنا : إنها كانت تعيش داخل يثرب ولا تنتمي لواحد من هذه العناصر الثلاثة ، كان لا يمكن لها الاستمرار في الحياة إلا بالتحالف مع إحدى الجهات القوية ، وكان الأحلاف الذين هم من هذا النوع لا يتمتعون بكل ما يتمتع به غيرهم من الصرحاء ولا يقتل حليف بصريح ، ويظهر ذلك واضحاً في حرب سُمير التي قامت بين

---

(١) السيرة النبوية ص ١٣٣ للسيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ القاهرة الحديثة للطباعة ـ نشر دار الشروق بجدة ١٣٩٧ .

(٢) الوفاء ١ : ٨٠ .

الأوس والخزرج بسبب قتل حليف مالك بن العجلان ورفْض قاتليه أن يَدُوهُ دِيَةَ الصريح . ومن هؤلاء الحلفاء المجذّر البلوي وإياس بن البكير الليثي ، حيث كانت دية الصريح فيهم عشراً من الإبل بينما لا يُودَى الحليفُ[1] بغير خمسٍ من الإبل ، وقد تكون الدية بينهم أحياناً بالتنازل عن حائط نخل أو أطم من آطامهم ؛ كما رأينا في الحديث عن أطم المستظل ، أو كمية من التمر كما يعبر عنه قول أحيحة في حرب كعب بن عمرو :

أقسمتُ لا أعطيك في كعب ومقتله سيابة[2]

أي أنه لا يديه بتمرة واحدة فضلاً عن كمية من التمر .

وكانوا معروفين بعزة النفس وشرف الهمة ، يقول ابن عبد ربه[3] : ومن أعز الناس نفساً وأشرفهم هماً الأوس والخزرج ، لم يؤدّوا إتاوة قط في الجاهلية إلى أحد من الملوك ، وكتب إليهم تبّع يدعوهم إلى طاعته ويتوعّدهم إن لم يفعلوا ، فكتبوا إليه :

العبدُ تبّع كم يروم قتالنا — وسكانه بالمنزل المتذلّل
إنا أناس لا ينامُ بأرضنا — عضّ الرسولُ ببظر أمّ المرسِل

ثم كان من أمرهم معه ما كان .

وفيما عدا هذا فإن الحياة الزراعية التي كانوا يعيشونها ، وما يتبعها من مشاق وَقَتْهُم من أدواء المجتمعات التجارية ، فلم تظهر بينهم طبقات مُستغِلّة وأخرى مُستغَلّة ، ولم يبرز بينهم أيضاً أي صراع بين أغنياء وفقراء كما حصل في مكة .

(١) الأغاني ٣ : ٣٩ ـ ٤٠ .
(٢) سيابة : بلحة .
(٣) العقد الفريد ٢ : ٥٤ .

تلك الظاهرة التي فتحت الطريق في وجه الإسلام وسهلت وصوله فيها إلى بعض القلوب ، وفي الوقت نفسه اتخذت منه الفئة الطاغية وسيلة للنيل من الإسلام حيث كانوا يعيبون أتباع محمد الأوائل بأنهم من المستضعفين .

٨ ـ النشاط التجاري

كانت التجارة من قديم في يد اليمنيين بجانب نشاطهم الزراعي فلما انحط شأنهم انتقل زمامها إلى مكة التي أصبحت لها رحلتان شهيرتان هما رحلتا الشتاء والصيف ، حيث كان أهلها يشترون سلع اليمن والحبشة والهند ثم يبيعونها في أسواق الشام ومصر ، حتى إن الروم كانوا يعتمدون في كثير[١] من شؤونهم على تجارة مكة ، وقد بلغ من شهرة مكة التجارية أن قالوا : إنها إنما سميت قريشاً[٢] لأنها كانت تتقرش المال أي تجمعه بالاتجار ، وكان عرب الحيرة يحمون قوافل التجارة الفارسية عند مرورها ببلاد العرب مقابل إتاوات كبيرة ، ويشتركون أحياناً في هذه القوافل بتجارتهم الخاصة . ولم تكن يثرب بمعزل عن هذا النشاط التجاري ، بل إنها اشتركت فيه إلى حد كبير بجانب نشاطها الأساسي في المجال الزراعي ، فكانت القوافل تصدر منها للاتجار وتأتيها من القبائل المجاورة للتزود والامتيار ، ففيما كان أبو سفيان[٣] والمشركون راجعين من معركة أحد مر به ركب من عبد القيس وهو بالروحاء . . فقال لهم : أين تريدون ؟ قالوا نريد المدينة . قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمّل إبلكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم . . إلى آخر الخبر . وكان أهل مكة إنما يشترون ما يلزمهم من تمر من أسواق يثرب ،

---

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٥ .

(٢) لسان العرب .

(٣) الطبري ٢ : ٥٣٦ .

فقد جاء عن الزهري[1] : أن عبد المطلب بعد أن زوّج ابنه عبد الله بآمنة بنت وهب أرسله إلى المدينة يمتار لهم تمراً ، فمات بالمدينة عند أخواله بني النجار ، فبعث عبد المطلب ابنه الحارث في طلبه حين أبطأ ، فوجده قد مات . بل إن العلاقة التجارية كانت قائمة بين البلدين قبل ذلك بكثير ، فقد جاءت الأخبار بأن هاشم بن عبد مناف شخص في تجارة له[2] إلى الشام فمرّ بالمدينة ، ونزل فيها على عمرو بن زيد بن لبيد الخزرجي النجاري ، فرأى ابنته سلمى بنت عمرو فأعجبته ، فخطبها من أبيها وتزوجها أثناء رجوعه من الشام في أهلها بيثرب ، ثم حملها معه إلى مكة ، فلما بان حملها ردّها إلى أهلها ، وتوجّه مرة أخرى بتجارته إلى الشام ، وتوفي بغزة ، فولدت له سلمى عبد المطلب جد رسول الله ﷺ .

فالنشاط الزراعي في يثرب إذن لم يقف حائلاً دون اشتراك أهلها في النواحي التجارية وإنشاء الأسواق التجارية فيها ، غير أن التجارة كانت في الأعم الأغلب بيد اليهود وتحت رحمتهم . وأشهر أسواق يثرب في الجاهلية هي :

أ ـ سوق زَبالة :

وكانت هذه السوق تقع في الناحية التي تدعى يثرب ، وهي في شمال المدينة ، كما حددناها في كلام سابق .

ب ـ سوق الجسر :

وكانت على جسر بطحان بين المراكشية والمشرفية الآن ، وتعرف هذه السوق أيضاً بسوق بني قينقاع ، ذكر البخاري في كتاب البيوع أن عبد الرحمن بن عوف لمّا قدم المدينة سأل : هل من سوق فيه تجارة ؟ فقيل : سوق بني قينقاع ، ويبدو أنها كانت أهم أسواق يثرب بحيث يمكن أن يأتيها الناس من كل مكان ،

---

(١) الطبري ٢ : ٢٤٦ .

(٢) الطبري ٢ : ٢٤٧ .

فتزدحم ازدحاماً كبيراً يسمع الناس ضجيجه من بعيد ، فقد أتاها النابغة الذبيـاني عند زيارته ليثرب[1] ، وفي أثناء ذهابه لها التقى بـالشـاعر اليهودي الربيع بن أبي الحقيق نازلاً من أطمه ، فلما أشرفـا على السوق سمعـا منهـا ضجـة كبيرة ، وذلـك لكبرها واتساعها وازدحامها بالحركة والنشاط ، فحاصت بالنابغة ناقتـه ، وكادت توقعه من فوقها ، فأنشأ يقول : كادت تهـال من الأصوات راحلتي . . الخ . وكان لهـذه السوق جوانب أدبيـة أيضـاً على نحو مـا كانت الأسواق الأدبيـة المعروفـة في الجـاهليـة ، حيث كان النـاس يجتمعـون فيهـا عـدة مرات في السنـة الـواحـدة ويتفاخرون ويتناشدون الأشعار .

ج ـ سوق الصفصاف :

وكانت بالعصبة غربي قباء في منازل بني جحجبا على ما مر وهي السوق التي قتل فيه سُمير كعباً الثعلبي الذي قامت بسببه حرب الأوس والخزرج .

د ـ سوق مزاحم :

ويبدو أنها سوق صغيرة ؛ لأن المراجع التي بين أيدينا اكتفت بـذكرهـا ، ولم تزد على ذلـك . والغـالب أنهـا قرب أطم مزاحم الـذي تحمـل اسمـه ، والـذي كان لشيخ الخزرج عبد الله بن أبيّ بن سلول .

والذي نستطيع تسجيلـه حول هـذه الأسواق أن بعضهـا كان للخزرج كهـذه السوق ، وبعضها كان للأوس كسوق العُصبة (الصفصاف) ، وبعضهـا كان لليهود كسوق الجسر أو بني قينقاع .

---

(١) الأغاني ٢٢ : ١٢١ ثقافة .

(٢) المغانم المطابة ـ تعليق الجاسر ص ١٩٥ .

ورغم الذي سقناه من خبر النابغة فإن الطابع العام الغـالب على أسواق يثرب أنهـا كانت تتسم بكثير من المحليـة ، فلم تكن كالأسواق العربيـة الأخرى المشهـورة التي وردت لشهرتها حتى في الأشعار ، كسوق دومة الجندل ، وسوق هجر ، وسوق عمان ، وسوق المشقّر ، وسوق صَحار ، وسوق صنعـاء ، وسوق حضرموت ، وسوق مجنّة ، وسوق عكاظ .

وكانت التجارة الخارجية بيد بعض الأوس والخزرج ، غير أن أكثرها كان بيد اليهود ، فيأتون إلى أهل يثرب بما يحتاجون إليه من تجـارات[1] ، ويقـدمون بـالبر والشعير والزيت والتين والقماش ، وغيرها من الأشياء التي تزخر بها بلاد الشـام ، وكان اليهود بجانب ذلك يقومون بتسقط الأخبار لفائدة الروم ، وظهر ذلك بيّنـاً عند ظهور الإسلام .

ومما يدل على صلة يثرب التجارية مع غيرها من مدن عصرها كمكة ، علاوة على ما أوردناه ، هو قصة إسلام سعد بن عبادة[2] ورفقائه ممن بـايعوا في العقبـة ، حيث اقتفى القرشيون أثر النقبـاء بعـد أن تـأكـدوا من إسـلامهم وتعـاهـدهم مـع الرسول ﷺ ، فأدركوا سعد بن عبادة وأمسكوا به ، وربطوا يديه إلى عنقه بنسْع رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة ، يضربونه ويعذبونه ، فرقّ له قلب أحـدهم وأقبل يذكره بمن يعرف من أهل مكة ليستجيرَ به مما هو فيه ، فقـال سعـد : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبـد منـاف تجـارتـه ، وأمنع القائمين عليها ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن أمية بن عبـد شمس بن عبد منـاف . قـال الرجل : ويحـك . . اهتف بـاسم الرجلين ، واذكر مـا بينـك وبينهما ، قال سعد : ففعلت . فلما علما بذلك قـدمـا لـه مسرعين وأنقـذاه ممـا هو فيه .

---

(١) المفصل ٤ : ١٤١ .

(٢) الطبري ٢ : ٣٦٧ .

وكثيراً ما كانت الأسواق التجارية مجالاً للتسكع من الشباب العاطل أو المتفرغ من العمل ، أو الذي يطلب النزهة عند ازدحام الأقدام ، فيكون ذلك سبباً في نشوء النزاعات والخلافات ، أو الاشتباكات التي تترك آثارها السيئة في النفوس ، وتنبش الحزازات الكامنة ، أو قد تؤدي إلى القتل والقتال ، فقد كان حليف لمالك بن العجلان الخزرجي من ذبيان اسمه كعب الثعلبي ماراً في سوق بني قينقاع فرأى رجلاً من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذه الفرس أعز أهل يثرب فقال رجل : فلان ، وقال رجل آخر : أحيحة بن الجلاح الأوسي . وقال غيرهما : فلان بن فلان اليهودي أفضل أهلها . وقال كعب الثعلبي : مالك بن العجلان أعز أهل يثرب . وكثر الكلام ، ثم قبل الرسول قول كعب الثعلبي ، ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان فقال كعب : ألم أقل لكم : إن حليفي مالكاً أفضلكم ؟ فغضب من ذلك رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يسمى سُمير بن زيد ، وشتمه ، وافترقا ، وبقي كعب ما شاء الله . ثم قصد سوق العصبة التي قلنا : إنها سوق أوسية غربي قباء ، فلما رآه سُمير فيها بقي يراقبه ويتابعه ، حتى وجد فرصة لقتله فقتله ، وبذلك قامت بين الأوس والخزرج أول حرب بينهما وهي حرب سمير التي جرت وراءها الحرب إثر الحرب ، فكانت وبالاً على الحيين وأي وبال .

ثانيا : الكيان السياسي

بالتأمل في حياة العرب الجاهليين بعامة وحياة الأوس والخزرج بصفة خاصة ، تبرز الحقائق الآتية :

١ ـ إن الوعي السياسي كان فيهم ضعيفاً ضيّقاً محدوداً لا يتجاوز حدود القبيلة أو حدود القبائل المنتمية إلى جد واحد[1] .

---

(١) دراسات في النظم العربية والإسلامية ص ١١ .

٢ ـ إن وسط الجزيرة العربية بما فيه الحجاز ونجد لم يكد يعرف نظام الحكومة الدائمة المستقرة ، ولم يستطع أن يقيم ما يمكن أن نطلق عليه اسم الكيان السياسي المستقل .

٣ ـ لم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه ، أو شرطة تقر الأمن والنظام ، وجيش يدرأ عنهم الأخطار الداخلية أو الخارجية ، فإذا حزب أمر ندب رؤساؤهم الناس للقتال ، فلا يتخلف منهم أحد يقدر على حمل السلاح إلا صاحب عذر أو جبان لا قيمة له في ميزان الرجال ، وبقي الحال كذلك حتى في صدر الإسلام .

٤ ـ إنهم كانوا يختارون لهم رئيساً منهم يقودهم في أمر حازب أو لفترة معينة ، ويكون عادة من ذوي اليسار أو من الفرسان المحاربين ، فمنطق القوة هو الذي يحدده ، ومنطق القوة هو الذي يبقيه أو يقصيه .

٥ ـ لم يكلف العرب بدفع أي ضريبة أو إتاوة ، وذلك لعدم وجود الحكومة التي قد تحتاج في بعض شؤونها إلى فرض الضرائب ، كما أن وسط الجزيرة لم يتعرض لسيطرة رومانية أو فارسية ، إلا ما كان من المناذرة والغساسنة ، وإلا ما كان من هجوم الأحباش على مكة ، ذلك الهجوم الذي خرجت منه مكة منتصرة بإذن الله ، مما زادها قوة وتمكيناً في نفوس أهلها ونفوس العرب أجمعين .

٦ ـ كان على الشخص المعتدَى عليه أن يثأر لنفسه بنفسه ، وعلى قبيلته أن تشد أزره ، وقد تُحَلّ بعض الثارات بدفع الديات . أما إذا كان المعتدي من القبيلة نفسها ، فإن الاحتكام غالباً ما يكون لشيخ القبيلة وأعرافها .

٧ ـ إنهم رغم التجمعات الصغيرة ذات الفترة اليسيرة لم يشعروا بشعور المواطن الذي ينتمي إلى أرض ذات حدود ، وأمة أو شعب ذي خصائص ، وتراث أو عقيدة واضحة المعالم ، ونظام حكم أو مفاهيم فكرية وقانونية مسطورة يدين بها

ويخضع إليها ، بل كانت كل تصرفاتهم محكومة بالشعور القبلي وحده وأعراف القبيلة وحقوق القبيلة ولا شيء غير القبيلة :

وما أنا إلا من غزيّة إن غوتْ غويتُ ، وإن ترشد غزيّة أرشد

٨ ـ كانت كل قبيلة تؤلف جماعة منفصلة مستقلة تمام الاستقلال ، وقد يحدث أن تجتمع بعض البطون على حلف واحد لسبب من الأسباب ، ثم لا تلبث عراها أن تتفكك ، وكان في إمكان الفرد أن يرفض رأي شيخ القبيلة ، أو رأي الأغلبية من أبناء قبيلته ، كما فعل مالك بن العجلان ، فقد رفض وساطة رؤساء قومه في إنهاء الحرب بينه وبين قوم سُمير .

٩ ـ لم يكن هناك نظام لنقل سلطة رئيس القبيلة ، غير أنه لا بد أن يكون من كبار السن وذوي المال والنفوذ والفروسية ، وسلطته في الغالب مقيدة بمجلس[1] شورى القبيلة المكوّن عادة من رؤساء الأسر ، ويتمتع العضو في هذا المجلس بحرية النقاش والتحدث في مختلف شؤون القبيلة ، الداخلية منها والخارجية وشؤون الحرب والسلم ، ولم يكن يوجد أي أثر للوراثة في مشيخة القبيلة ، بل هي الصفات والظروف والاستعداد .

١٠ ـ إن مكة وهي أرقى حضارياً من يثرب لم تقم فيها الحكومة ، وإنما هي عهود ومواثيق وكلمة شرف ووفاء بالعهد وخضوع للعرف لا غير . وكل ما استطاعت تحقيقه هو تأسيس مجالس العشائر أو البطون التي تدين لمجلس أعلى هو مجلس الملأ الذي كان يعقد في دار الندوة . وإنما كانت قوة مكة مستمدة من استطاعة قادتها الاتفاق في الأزمات ، والتنازل في أية لحظة من أجل الصالح العام ، وذلك كان نتيجة التطور الذي أصابته مكة كمجتمع تجاري .

---

(١) النظم الإسلامية للدوري ص ٧ والنظم الإسلامية لصبحي الصالح ص ٥٠ والدعوة إلى الإسلام لأرنولد ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٥٢ وبلوغ الإرب للألوسي ١ : ٢٠١ .

١١ ـ إن المراجع والعرب أنفسهم كانوا كثيراً ما يتسامحون في تسمية هؤلاء الرؤساء أو الأمراء المحدودين باسم الملوك كما هو الحال في يثرب .

١٢ ـ إن قيام مملكة المناذرة في الحيرة إنما كان برغبة من الفرس ودعم منهم ، وملك الغساسنة في الشام لم يقم إلا برغبة الروم ومساعدة منهم ، لذلك خضعت المملكتان لهما ودارتا في فلكهما على النحو الذي يشاءان وينفذ مطامعهما ويحقق مصالحهما ، وكم مرة تعرض فيها ملوك المملكتين للإقصاء أو القتل عند ظهور أول بادرة يشتم منها الاعتزاز بالرأي أو التعبير عن عدم الرضا .

١٣ ـ إن يثرب لم تكن مغمورة غير معروفة عند أهل عصرها ، بل إن اسمها ورد في الكتابات المعينية ، وفي جغرافية بطليموس وفي كتابات البابليين والبيزنطيين كما سبق أن ذكرنا .

١٤ ـ إن التاريخ يحدثنا عن بعض من حملوا لقب ملك في يثرب كالأرقم بن أبي الأرقم ، وعمرو بن الإطنابة ، وبعض من عقدت لهم الرئاسة أو الإمارة فيها ، كمالك بن العجلان وأحيحة وأمّة .

أ ـ الأرقم بن أبي الأرقم :

هو من العمالقة سكان يثرب الأولين ـ كما سبق أن أشرنا ـ وتجاوز ملكه يثرب ، فملك ما حولها كخيبر وتيماء وفدك وغيرها ، لذا كانت المراجع تسميه ملك الحجاز ، وهو الذي وقف بقومه ضد الهجرات اليهودية الإسرائيلية إلى يثرب وغيرها ، فلم يصلوا إليها إلا على جسر من الجثث وشلالات من الدماء ، ويمكن أن نسجل هذا الموقف القومي ليثرب وساكنيها في ذلك الوقت المبكر من التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب ، فقد تم هذا الحدث على ما تذكره بعض الروايات التاريخية ـ على عهد موسى عليه السلام ، ورغم ما يشوب تاريخ يثرب من

غموض في العصر الجاهلي ، فإن البحث الأثري ـ لو تم ـ سيكشف عن كثير من الحقائق التاريخية الهامة لتلك الحقبة المجهولة ، وقد أشار بعض الباحثين[1] إلى وجود كتابات جاهلية فيما حول المدينة من وديان وجبال ، وهي تحتاج إلى أثريين متخصصين ليفكوا رموزها ويحلوا ألغازها فيقدموا بذلك لنا خدمة وأية خدمة .

ب ـ مالك بن العجلان :

هو رجل من الخزرج يمثل الانتفاضة على الظلم اليهودي الجائر ، كما يمثل الغيرة على شرف العربي وحمايته من الانتهاك والتلوث ، ثار حوالي عام ٤٩٢ ميلادي[2] على ما يرى سيديو ، أو سنة ٥٠٠ على ما رجَّحنا ، ضد اليهود وغطرستهم وتماديهم في إذلال بني قومه من الأوس والخزرج ، فقتل أمير اليهود وطاغيتهم الفطيون ، ثم استعان ببني عمه من ملوك غسان لوضع الحق في نصابه والحد من طغيان الفئة الباغية من اليهود الحاقدين ، فاستجاب له أبو جبيلة الغسّاني وأنجده ـ كما ذكرنا ـ بل إن رواية الأغاني عن أبي المنهال أن اليهود أقاموا زمناً بعد إيقاع أبي جبيلة بهم ثم دبر لهم مالك مقتلة أخرى ، قال مالك لقومه : والله ما أثخنّا يهود غلبةً كما نريد ، فهل لكم أن أصنع لكم طعاماً ، ثم أرسل إلى مائة من أشراف من بقي من اليهود فإذا أجابوني فاقتلوهم جميعاً ؟ فقالوا : نفعل . فلما جاء رسول مالك إلى اليهود قالوا : والله لا نأتيهم أبداً وقد قتل أبو جبيلة منا من قتل فقال له مالك : إن ذلك كان على غير هوى منا ، وإنما أردنا أن نمحوه وتعلموا حالكم عندنا ، فأجابوه ، ففعل بهم مثل ما فعل أبو جبيلة ، فكان كلما

---

(١) المفصل ٤ : ١٣١ .

(٢) تاريخ العرب العام لسيديو ص ٤٥ .

دخل عليه رجل منهم أمر بـه فقتل ، حتى قتل منهم بضعـة وثمـانين رجلاً ، ثم إن رجلاً منهم أقبل حتى قام على باب مالـك ، فتسمّع فلم يسمع صوتـاً ، فقـال : أرى أسرعَ وِرْدٍ ، وأبعدَ صَدَرٍ ، فرجع وحذَّر أصحابه الذين بقوا ، فلم يأت منهم أحد ، وبذلك رفع مالك شأن قومه وأعلى كلمتهم وثبَّت أقدامهم في أرضهم ، فـآثر اليهود السلامة وعاشوا تابعين ، ولكن ما إن انتهت مهمته حتى عاد رجلاً عاديّاً ليس لـه إلا المكانة والجاه ، مع تعرضـه أحيـانـاً من شبـاب القوم إلى انتقـاص حقـه وعـدم العرفان بجميله ، كما حدث في حرب سُمير ، وكان فارساً شجاعاً وشاعراً معـدوداً ، وله قصيدة غراء عدها[1] صاحب الجمهرة وغيره في المذهبات ، ومطلعها :

إن سُميراً أرى عشيرتَـــــــــــــه قـد حَـدِبـوا دونــه وقــد أَنِفـوا[2]

جـ - عمرو بن الإطنابة :

هو عمرو بن عامر بن زيد منـاة بن عـامر[3] بن مـالـك الأغر بن ثعلبـة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج ، وإنما اشتهر بأمـه الإطنـابـة[4] ، وهي بنت شهاب بن زِبّان ، من بني القين بن جسر ، وكان فارساً شهيراً اشترك في أيام الأوس والخـزرج ، ولكنـه استطـاع أن يـوحـدهم تحت رئـاستـه في مطلـع القرن السادس الميلادي على وجه التقريب ، ولقبه كثير من المؤرخين بملـك الحجـاز[5] ، ومعنى هـذا أنـه كان يمثـل دوراً من أدوار الـوحـدة بين الأوس والخـزرج وامتـداد

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص ٢٢٥ .

(٢) حدبوا : عطفوا .

(٣) معجم الشعراء ص ٨ ورغبة الآمل ٢ : ٢٣ .

(٤) الإطنابة : أصلها المظلة ، وسير الحزام يكون عوناً له إذا قلق ، وقال الشاعر :
(يركضن قد قلقت عند الأطانيب)
وهي أيضاً سير يشد في وتر القوس العربية .

(٥) الأغاني ١١ : ١١٧ ثقافة . وبلوغ الأرب ١ : ٥٧ تعليق الأثري .

سلطانهم على البلاد المجاورة ليثرب ، بالقدر الذي استحق به رئيسهم أن يلقب بملك الحجاز ، ولكنه لم يؤثر عنه أنه دوّن الدواوين ، أو اتخذ الشُّرط وسنّ الأنظمة ، ولم يعلم عنه ما كان معلوماً عن ملوك عصره ، ولذا فإنني أرجح أن قومه ومن حولهم كانوا يدينون له بالمهابة والإعظام والتقدير فقط ويسمعون كلمته ويصدرون عن رأيه ، ولم يتعدّ شأنه ذلك بحال وإن لبس التاج ، فهو رجل ملك القلوب وسيطر على الأنفس حتى دانت له الرقاب ، ومالت لهيبته الأعناق ، فنال الرئاسة فيهم وأعطى ذلك كله المهابة لبني قومه على ما حولهم من بلاد ، وكان زمانه على أيام النعمان بن المنذر ، ولما بلغه أن الحارث بن ظالم قتل خالد بن جعفر غضب لذلك غضباً شديداً ، لأن خالداً كان صديقاً له ، ولأن الحارث بن ظالم قتله غيلة وغدراً ، وذلك مما ترفضه النفس العربية عادة وتأباه ، فقد كان خالد[1] بن جعفر نديماً للنعمان ، وبينما هو ذات يوم عنده يأكلان تمراً وزُبْداً ، إذ دخل عليهما الحارث بن ظالم ، فدعاه النعمان إلى الأكل معهما فقال خالد : من ذا أبيت اللعن ؟ قال : هو سيد قومه وفارسهم الحارث بن ظالم . قال خالد متبجحاً : أما إن لي عنده يداً ، قال الحارث : وما تلك اليد ؟ قال : قد قتلتَ سيد قومك فصرتَ سيدهم من بعده ، يعني زهير بن جذيمة ، وقال الحارث : وأنا سأجزيك بتلك اليد . وانقبضت نفسه وأرعدت يده ، فأخذ يعبث بالتمر ولا يأكل ، فقال له خالد : أيتهن تريد فأُولِكَها ؟ قال الحارث : أيتهن تهمك فأدعها ؟ ثم نهض مغضباً . فقال النعمان لخالد : ما أردت بهذا وقد عرفت فتكه وسفهه ؟ فقال : أبيت اللعن ، وما تتخوف علي منه ؟ فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني . ثم انصرف خالد فدخل قبة له من أَدَم بعد هدأة من الليل ، وقام على بابها أخ له يحرسه ، فلما نام الناس خرج الحارث حتى أتى القبة من مؤخرها فشقها ، ثم دخل فقتله . فلما سمع عمرو بن الإطنابة بذلك قال : والله لو لقي

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١ : ١٨٣ .

الحارث خالداً وهو يقظان لما استطاع أن ينظر إليه ، ولكنه قتله نائماً ، ولو أتاني لعرف قدره . ولما علم الحارث بذلك توعده ، ووصل خبر وعيده إلى عمرو فغضب لذلك ، ثم دعا بشرابه ووضع التاج على رأسه ودعا بقيانه فتغنين له بشعر[1] وضعه في هذه الحادثة وهو :

علِّلاني وعلِّلا صاحبيّا ... واسقياني من المُروَّق ريَّا

إن فينا القيانَ يعزفن بالدفِّ ... لفتياننا وعيشاً رخيَّا

يتباريْن في النعيم ويَصبُبْن ... خلال القرون مِسكاً ذكيَّا[2]

إنَّما همُّهنَّ أن يتحلَّيْن ... سُموطاً وسنْبُلاً فارسيّا[3]

من سموط المَرجان فُصِّل ... بالشَّذْر ، فأَحْسِنْ بحَلْيهنَّ حُليّا

وفتىً يضربُ الكتيبةَ بالسيْف ... إذا كانت السيوفُ عِصِيّا

إننا لا نسرُّ في غير نجد ... إنَّ فينا فتى خزرجيّا

يدفع الضيمَ والظُّلامةَ عنها ... فتجافيْ عنه لنا يا مَنِيّا

أبلغ الحارثَ بن ظالم الرعْد ... يدَ والناذرَ النذورَ عليَّا

إنما يقتلُ النيام ولا يقتلُ ... يقظانَ ذا سلاح كَميّا

ومعي مِشكَّتي معابلُ كالجَمْر ... وأعدَدْتُ صارماً مَشرفيّا[4]

لو هبطتُّ البلادَ أنسَيتُك القتل ... كما يُنسي النسيُّ النسيَّا[5]

ولما بلغ هذا الشعر الحارث ازداد حنقاً وغيظاً فسار حتى أتى ديار بني

---

(١) الأغاني ١١ : ١١٧ ثقافة . وعيون الأخبار ١ : ١٨٤ .

(٢) القرون : ضفائر الشعر ، وكل ضفيرة قَرْنٌ .

(٣) السُّموط : القلائد .

(٤) المشرفي : السيف يجلب من مشارف العراق ، أو من مشارف الشام ، أو من مشارف اليمن .

(٥) النسيُّ : ما نسي ، ويقال : هو نسيُّ قومه : لا يعد فيهم لحقارته .

الخزرج ، ولما جنَّ الليل دنا من قصر عمرو بن الإطنابة ، ونـادى : أيها الملك .. أغثني .. فإني جار مكثور[1] ، وخذ سلاحك ، وكان عمرو قد آلى على نفسه ألا يستنجد به أحد بليل إلا أنجده ، وأجابه ولم يسأله عن اسمه . فأسرع إلى إجابة الحارث وخرج معه ، فلما ابتعد عن منازل يثرب عطف الحارث عليه وقال : أنا أبو ليلى ، فخذ سلاحك فإني مقاتلك ، فاعتركا ملياً من الليل ، وخشي عمرو أن يقتله الحارث فعمد إلى الحيلة ، فقال له : يا حار .. إني شيخ كبير ، وإني تعتريني سِنةٌ من النوم ، فهل لك في تأخير هذا الأمر إلى غد ؟ فقال : هيهات .. ومن لي به في غد ؟ فتجاولا ساعة ، ثم عمد عمرو إلى حيلة أخرى ، فألقى الرمح من يده وقال : يا حارِ .. ألم أخبرك أن النعاس قد يغلبني ؟ وها أنت ترى الرمح قد سقط من يدي ، فاكفف .. فكف ، قال أنظِرْني إلى غد ، قال الحارث : لا أفعل ، قال : فدعني آخذ رمحي ، قال : خذه ، قال : أخشى أن تعجلني عنه ، أو تفتك بي إذا أردتُ أخذه ، قال : وذمَّةِ ظالم لا أعجلتك ولا قاتلتك ولا فتكت بك حتى تأخذه ، قال : وذمَّةِ الإطنابة لا آخذه ولا أقاتلك . فانصرف الحارث إلى قومه وهو يقول :

اعزفا لي بلذةٍ قينتيَّا	قبل أن يُبْكر المنونُ عليَّا
قبل أن يُبْكر العواذلُ ، إنِّي	كنت قِدْماً لأمرهنّ عصيّا
ما أُبالي أراشداً فأصبحاني	حَسِبَتْني عواذلي أم غويَّا
بعد ألاَّ أُصرَّ لله إثْماً	في حياتي ، ولا أخونَ صفيّا
من سلافٍ كأنها دَمُ ظبْيٍ	في زجاجٍ تخاله رازقيّا[2]
بلغتنا مقالةُ المرء عمرو	فأنِفْنا ، وكان ذاك بَديّا

---

(١) مكثور : أي غلب علي أعدائي بكثرتهم .

(٢) الرازقي : ضرب من عنب الطائف ، أبيض طويل الحب .

قـــد هَممْنـــا بقتلـــه إذ برزْنـــا ... ولقينـــــاه ذا ســـلاح كَمِيّــــا
غير مـــا نـــائم تعلـل بـــالحُلْم ... مُعِــــدّاً بكفِّـــه مَشْرفيّــــا
فَمَنَنَّــــا عليـــه بعـــــد علـــوٍّ ... بـوفـاءٍ ، وكنتُ قِــدْمــاً وفيّــا
ورجعْنـا بـالصفْـح عنــه وكان المَـ ... ـنُّ منـــا عليـــه بَعْـــدُ تَلِيّــا

ولكن زيـد الخيـل شاعر طيئ وفـارسهـا لم يعجبـه هـذا التطـاول من الحارث بن ظـالم وغضب من تصرفـه مع ابن الإطنـابـة ، فـأغـار على بني مُرة بن غطفان ، وأسر الحارث بن ظالم وامرأته ، ثم مَنّ عليهما وقال[1] :

ألا هـل أتَى غَـوثـاً ورُومـان أننـا ... صَبَحنـا بني ذُبيـان إحـدى العظـائم
وسُقنـا نســاءَ الحيِّ مُرَّة بـالقنـا ... وبـالخيل تَردِي قـد حَوَيْنـا ابن ظـالم
جَنيبـاً لأعضـاد النـواجي يقُـدنـه ... على تَعَب بين النــــواجي الرواسم
يقـول : اقبلـوا مني الفـداء وأنعِمـوا ... عليَّ ، وجُـــزُّوني مكانَ القــــوادم
وقـد مسَّ حـدُّ الرمـح قُوّارةَ أستِـه ... فصـارت كشـدق الأعلم المتضـاجم[2]
وسـائلْ بنـا جـارَ ابنَ عوفٍ فقـد رأى ... حليلتَـه جـالت عليهـا مَقـاسمي
تُلاعب وُحْدانَ العضاريـطِ[3] بعـدمـا ... جلاهـا بسهْميْـه لقيـطُ بن حـازم
أغرّك أن قيـل ابنُ عـوفٍ ولا أرى ... عَـزيمــك إلا واهيـــاً في العـزائم
غـداةَ سبَيْنـا من خفـاجـةَ سَبْيَهـا ... ومرَّت لهم مِنـــا نُحـوسُ الأشــائم
فمن مبلـغٌ عني الخــزارجَ غـــارةً ... على حيِّ عَـوفٍ مـوجفـاً غير نـائم

وأعود فـأقول : إن ابن الإطنـابـة لو كان ملكاً بـالمعنى الكامل فلمـاذا لم يجـد

---

(١) الأغاني ١٧ : ١٨٧ ثقافة .
(٢) الأعلم : الـذي في شفتـه العليـا أو في جـانبيهـا شق . والمتضـاجم : الـذي في شـدقـه أو شفتـه اعوجاج .
(٣) العضاريط : الخدم والأتباع .

الحارث الحرس على بابه ، ولماذا يتهور فيخرج لمناصرة الحارث بنفسه دون جنوده كما يفعل الملوك ، وليس في القصيدة ما يدل على أن قائلها ملك ، بل يمكن أن يقولها أي شاعر آخر ، بل لعل بعض أبياتها يوحي بذلك كقوله :

إننا لا نسرّ في غير نجد — إن فينا فتىً خزرجيّا
يدفع الضيم والظُّلامةَ عنها — فتجافيْ عنه لنا يا مَنِيّا

ومع ذلك فإنه يمكن أن نقبل ملك ابن الإطنابة على أنه محاولة تمت فعلاً ولم يمهلها الزمن لتتأصل في يثرب ، لكبر سن صاحب المحاولة ، ولعمق الإحساس بالروح القبلية ، ولجراحات بعض الحروب التي كانت قد دبَّت بينهم .

د ـ أحيحة بن الجلاح :

هو أبو عمرو أحيحة بن الجلاح بن الحَرِيش[1] بن جحجبا بن كُلْفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، وهو يمثل الإمارة الأوسية ، فقد كان سيد الأوس على الإطلاق زمن تبّع الأصغر أبي كرب بن حسّان ملك اليمن ، ولكنه في الواقع باسم الأوس والخزرج وقف وقفته الصامدة ضد محاولة تبع غزو يثرب ، وقصة ذلك أن تبّعاً[2] سار في طريقه إلى المشرق على يثرب ، وذلك حوالي سنة ٤٩٤ م وخلَّف فيها أحد أبنائه ، وسار إلى الشام ثم إلى العراق ونزل فيها بالمشقّر ، فبلغه أن ابنه قُتل غيلة في يثرب ، لأن اليثربيين اعتبروا وجوده بينهم مظهراً من مظاهر الخنوع لتبّع ، وكان الأوس والخزرج أشد الناس إباءً وتمنعاً فرجع تبّع مسرعاً إلى يثرب وهو يقول :

---

(١) الأغاني ١٥ : ٣٣ ثقافة .
(٢) سبق أن ذكرنا أن التبابعة اعتادوا مثل هذه المسيرة لتعهد طرق التجارة وإرهاب أعدائهم .

يـا ذا المعـاهـد مـا تـزال تَرُودُ رَمَـدٌ بعينـك عـادهـا ، أم عُـود[1]
منَـع الرُّقـادَ فـما أُغَمِّضُ سـاعـةً نبـطٌ بيثرب آمنـون قُعـود[2]
لا تُسقني بيـديـك إن لم تَلْقَهـا حربـاً كأن أشـاءَهـا مجرود[3]

ثم أقبل حتى دخل يثرب وهـو عـازم على تخريبهـا وقطـع نخلهـا واستئصـال أهلها فنزل بسفح أحد عنـد الجرف ، وأرسل إلى أشرافهـا ليـأتوه ، ومنهم زيـد بن ضبيعة بن زيد بن عمرو بن عوف ، وابن عمه زيد بن أمية بن زيـد ، وابن عمهما زيـد بن عبيـد بن زيـد ، وكانوا يُسمَّوْن الأزيـاد ، وأحيحـة بن الجلاح . وطمع الأزيـاد في أن يملكهم على أهل يثرب وعـزمـوا على الخروج إليـه ، ولكن أحيحـة كان رجلاً محنكاً فطناً ، فحذرهم من ذلك ودلهم على أنه إنما يقصـد قتلهم انتقـامـاً لابنه وقال :

ليت حظي من أبي كرِب أن يردّ خيرُه خبلَـه

فـذهب بيتـه هـذا مثلاً . ورغم أنـه نصحهم بـأن الموقف يتطلب الإقـامـة في الآطام والاحتماء بها . وعدم الخروج إلى تبع فإن قومـه أكرهوه على الخروج إليـه ، فخرج ومعه قينـة لـه وخبـاء وخمر ، فضرب الخبـاء وجعل فيـه القينـة والخمر ، ثم استأذن على تبّع ، فأذن له ، وأجلسه معه على زربيّة تحته ، وتحدث معـه وسـألـه عن أموالـه بـالمدينـة فجعل يخبره عنهـا ، وجعل تبّـع كلما أخبره عن شيء منهـا يقول : كل ذلك على هذه الزربيّة ؟ يشير بذلـك إلى قتل أحيحـة ففطن أحيحـة لذلك ، وعرف الشر في عينيه وما بيَّته له من قتل ، فـاستـأذن للخروج ، ودخل

---

(١) المعاهد : الموضع الذي كنت تعهده ، وقد تكون ذو المعاهـد من ألقـاب ملوك اليمن ، وترود : تطلب ، أي ما تزال تطلبها .

(٢) نبط : يريد الأوس والخزرج ، فقد كان من حولهم يسمونهم نبطاً ، لاشتغالهم بالزراعة .

(٣) الأشاء : صغار النخل ، واحدتها إشاءة . ومجرود : منزوع .

خباءه فشرب الخمر وأمر القينة أن تغنيه شعراً صنعه في حينه ، وجعل تبّع عليه حرساً ، وكانت قينته تُدعى مليكة ، ومن هذا الشعر قوله :

يشتاق شوقي إلى مُليكة لو	أمستْ قريباً ممن يطالبُها
ما أحسن الجيدَ من مُليكة واللبّا	تِ ، إذ زانها ترائبُها
يا ليتني ليلة إذا هجد النا	س ، ونام الكلابَ صاحبُها
في ليلة لا يُرى بها أحَد	يسعى علينا إلا كواكبُها
لتبكني قينةٌ ومِزهرُها	ولْتبْكني قهوةٌ وشاربُها
ولْتبْكني ناقةٌ إذا رحلتْ	وغابَ في سَرْدَحٍ مناكبُها[1]
ولتَبْكني عُصبةٌ إذا اجتمعت	لم يعلم الناسُ ما عواقبُها

فلما نام الحرس تسلل من الخباء ، وترك فيه الجارية وأوصاها إن هم طلبوه أن تقابل الملك وتقول له : إن أحيحة يقول لك : اغْدُرْ بقينة أو دَعْ ، فذهبت كلمته مثلاً . وعدا تبّع على الأزياد فقتلهم ، وطلب أحيحة فلم يجده ، فأرسل وراءه كتيبة ، فوجدوه قد تحصَّن بأطمه ، فحاصروه ثلاثاً ، يقاتلهم بالنهار ويرميهم بالنبل والحجارة ، ويرمي إليهم بالتمر ليلاً ، فلما مضت الثلاث رجعوا إلى تبّع وذكروا له ما كان بينهم وبين أحيحة ، فتركه وأمرهم بإحراق نخله ، ثم شبَّت الحرب بين تبع وجميع الأوس والخزرج وتحَصَّنوا في آطامهم ، وجاء جندي من رجال تبع يجذُّ نخلة فنزل له رجل من بني النجار وقتله بمنجل كان معه ثم ألقاه في بئر وقال :

جاءنا يجذُّ نخلتنا	إنما النخل لمن أبَّرَهْ

---

(١) السردح : الأرض اللينة المستوية .

فـذهبت كلمتـه مثـلاً ، وكان على بني النجـار عمرو[1] بن طلّـة من بني معـاوية بن مـالـك بن النجـار ، ثم إن حبرين من اليهـود على مـا تقـول بعض الروايات حذراه من تخريب يثرب ، لأنها مهاجر النبي العربي ، فأمسـك عنهـا ، فقال الحارث بن عبد العزى الخزرجي يمدح ابن طلّة :

أصحـا أم مـا انتحى ذِكْرَهْ ... أم قضَى من لـذّةٍ وطَرَهْ
بعـدمـا ولّى الشبـابُ ومـا ... ذكرتْ شُبّـانُـهُ عُصَرَهْ

إلى أن يقول :

فيهمُ عمرو بن طلّـةَ لا ... هُمَّ عَمْراً لا يجـدْ قـدَرَهْ

وإذا كان عمرو بن طلّـة الخزرجي أسهم بـاسم قومـه في صـد الغزو التبّعي ؛ فإن الرأي الصائب والقيادة الفعلية كانت لأحيحة منـذ اللحظـات الأولى ، وقـال أحيحة يرثي زملاءه الأزياد :

ألا يـا لهفَ نفسي أيَّ لهْف ... على أهـل الفِقـارةِ كُـلَّ لَهْف[2]
مضَـوْا قصـدَ السبيـل وخلّفـوني ... إلى خلْفٍ من الأبْرام خَلْفي[3]
سُـدىً لا يَكْنفُـون ولا أراهم ... يطيعـون امرأ أن كان يكفي

ولم تكن شهرة أحيحـة قـاصرة على قـومـه فقـط ، بـل كان غيرهم من العرب يعرف لـه شجـاعتـه ويقـدر بطـولتـه وفروسيتـه ، ولـه فيهم حسن الأحـدوثـة والذكر ، فكانوا يلجؤون إليه في الملمات ويطلبون عنـده النصر والعـدة من سلاح أو خيل . فقد سبق أن ذكرنا أنه لجأ إليـه زعيم الأحلاف من الطـائف مسعود بن

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٢١ ، والأغاني ١٥ : ٣٦ ثقافة ، ومعجم الشعراء ص ٥٥ .
(٢) الفقارة : أصلها عظام العمود الفقري ، والمقصود هنا الحرة ، شبهت نتوءات الحرة بالفقار .
(٣) الأبرام : جمع برم ، وهو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر ، والأبرام أيضاً : اللئام .

متعب لينصره على بني عمه ، وكذلك لجأ إليه قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ليعينه على خالد بن جعفر العامري الذي قتل أباه ، ولكن أحيحة اعتذر ، للصلة التي كانت بينه وبين خالد ، فقد سبق لخالد أن امتدحه في شعر[1] قال فيه :

إذا ما أردت العزّ في آل يثرب   فناد بصوت : يا أحيحة تُمنع
ومن يأته من خائف يَنْس خوفَه   ومن يأته من جائع الجوف يشبع
فضائل كانت للجلاح قديمة   وأكرِم بفخر من خصالِك أربع

وكان أحيحة رجلاً عجيباً ، يجمع بين الحرص على المال وعدم التحفظ في طرق تحصيله ، ويقيس به منازل الناس ، ويجعل من لا مال له في عداد الأموات .

استغن أو مت ولا يغررْك ذو نشب   من ابن عمّ ولا عمّ ولا خال[2]

وبين الكرم والجود والأريحية ؛ فقد كان سيد الأوس وفارسهم وشاعرهم وجوادهم ، فما وفد عليه وافد من العرب وعقر ناقته على باب أطمه إلا أعطاه خلفها وقضى حاجته .

وقد كانت كل الأحداث التي خاضها أحيحة محصورة بين سنة ٤٦٤ م وسنة ٥٦١ ، وهما سنتا ولادته ووفاته[3] وهو على هذا يكون من المعمَّرين نسبياً فقد عاش سبعاً وتسعين سنة ، ولكن أبا حاتم السجستاني لم يذكره في كتابه (المعمَّرون) . ومن ناحية أخرى نلاحظ أن وفاته كانت قبل مولد الرسول ﷺ بتسع سنين فقط ، لأن عام الفيل ـ وهو عام مولده ﷺ ـ كان عام ٥٧١ م ولكن

---

(١) الأغاني ١٥ : ٥١ ثقافة .
(٢) الاستبصار ص ٣١٠ .
(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١ : ١٤٩ .

ابن حجر في الإصابة يقول : إن أحيحة مات قبل مولد النبي بدهر ، ثم قال : أما أحيحة الصحابي فهو ابن الجلاح أيضاً ولكنه غير أحيحة الجاهلي الذي تحدثنا عنه ، وإنما هو فيما رجّحه الباحثون حفيد من أحفاده اتفق معه في الاسم واسم الأب ، وما أيسر أن يحصل مثل هذا التشابه في بعض الظروف ، وسنتناول هذه الناحية بمزيد من التحقيق في فصل لاحق .

هـ ـ أمّة بن حرام :

تحدثنا عنه وعن إمارته الخزرجية المتمثلة في سيادته على بني سلِمة ، وذلك في الحديث عن منازلهم ، وتكفي هنا الإشارة إليه .

هذه هي يثرب من الداخل سياسياً ، فهل تهيأت لها ظروف الانفتاح على الخارج ؟ وهل كانت لها صلات بما حولها من مدن وأحياء ؟ أو أنها كانت مدينة متقوقعة على نفسها لا صلة لها بالغير ؟

إن ما عرضناه من حياة هذه المدينة يؤكد لنا أنها كانت مدينة لم تعرف العزلة ولم تعرف التقوقع ، فقد رأينا صلتها بالمراكز التجارية المعاصرة لها ، وإقامتها العلاقات مع المدن المختلفة وأحياء العرب العديدة ، ويمكن أن يقال : إن تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة باليثربيين في شمالي الحجاز[1] ، بل إنهم وصلوا في تجارتهم إلى مصر والشام ، إذ كان يتفرع من[2] مَدْين طريقان يصلان يثرب بهذه البلدان . صحيح أنها لم تصل إلى درجة مكة ؛ لأنها في الأساس بلد زراعي في المكان الأول ، ولكن يمكن أن نعدها كما عدّها غيرنا المركز التجاري الثاني في وسط الجزيرة العربية .

---

(١) تاريخ اليهود في جزيرة العرب في الجاهلية وصدر الإسلام للدكتور إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) ص ١٨ .

(٢) دراسات النظم العربية والإسلامية للدكتور توفيق سلطان اليوزبكي ص ١٤ .

ولما تعرَّض عبد المطلب في مكة للظلم من عمه نوفل ولم يقم أحد من أقربائه لمناصرته[1] خرج أخواله بنو النجار من يثرب برئاسة أبي أسعد بن عدس في ثمانين راكباً لمناصرته ، فلم يرجعوا إلا وقد أخذ حقه .

وقد رأينا صلتها بالغساسنة ، وصلة أهل الطائف وعبس وذبيان وعامر بها ، وكذلك كان لها صلة بمزينة وجهينة وخزاعة وعبد القيس وبني سليم وغيرهم .

أما صلتها بخيبر وتيماء فكانت دائمة لا تنقطع ، ومن أخبار ذلك أنه كان لشَعْيَة أخي[2] السموأل جماعة من الأوس والخزرج يزورونه وينزلون عنده ، للسمر واللهو والمنادمة ، ثم أغار عليه بعض ملوك اليمن ، فانتسفه واستاق أمواله ، وصار رجلاً فقيراً ، فانقطع عنه إخوانه اليثربيون وجفوه ، وشاءت الظروف أن يعود إلى اليسار والثراء فعادوا إليه كما كانوا ، فقال في ذلك :

أرى الخلاّن لَمّا قلَّ مالي ... وأجحفتِ النوائبُ ودَّعوني
فلما أن غَنِيتُ وعادَ مالي ... أراهم لا أبا لك راجعوني
وكان القومُ خلاّناً لمالي ... وإخواناً لما خُوِّلتُ دوني
فلما مرَّ مالي باعدوني ... ولما عاد مالي عاودوني

والخلاصة أن اليثربيين عاشوا في أرضهم أحراراً لا يدينون بالولاء لفرس أو روم ولا لأي سلطة خارجية ، حاولوا إقامة الدولة ونظام الحكومة فأخفقوا في ذلك وفشلوا فشلاً ذريعاً لتحكم الروح القبلية فيهم ، ولقرب تفكيرهم من البيئة التي كانت من حولهم ، واشتعلت الحرب بين أحيائهم في أيام مشهودات كان لها دوي وكانت لها شهرة ، عُرفت بأيام الأوس والخزرج ، وإننا لنحسب أن الصورة

---

(١) الطبري ٢ : ٢٤٩ .

(٢) الأغاني ١٩ : ١٠١ والشعراء اليهود العرب ص ٥٣ .

السياسية لن تكمل ولن تتم في ذهن المتطلع لأخبار يثرب إلا بالحديث عن تلك الأيام ، ولذا نرى لزاماً علينا أن نُلِمَّ بها ونجلِّي بعض أخبارها وأحداثها ولو على سبيل الاختصار .

أيام الأوس والخزرج

إذا القوم عدوا مجدهم وفعالهم　　وأيامهم عند التقاء المناسك
وجدت لنا فضلاً يُقِرُّ لنا به　　إذا ما فخرنا كلٌّ باق وهالك

يفخر حسان بن ثابت بأيام قومه في البيتين السابقين في ثقة واعتزاز ، ويدعي لها الشهرة والذيوع ، وأن الجميع يسلمون بها ويعرفونها لهم ، ويقرون بفضلهم فيها ، عند التقاء مناسكهم واجتماع حشودهم ، فما هذه الأيام التي استحقت هذه الإشادة في زعم حسان ؟

يذكر لسان العرب في مادة (يوم) أن أيام العرب تعني وقائعها وحروبها ، وسميت كذلك لأن الحروب كانت نهاراً ، واليوم عندهم هو النهار ، من طلوع الشمس إلى غروبها .

وللعرب أيام كثيرة في الجاهلية وأخرى إسلامية وأموية . وقد شغلت هذه الأيام حيِّزاً كبيراً من حياة العربي ذهناً وأحاديث وتدويناً .

فلم تكد تفارق ذهنه زمن الإحن والحروب والعصبيات القبلية في الجاهلية والإسلام ، ولم يستطع تفكيره أن يتخلص من سلطانها ، فهي أمام عينيه أمثلة عملاقة للبطولة والفروسية وإدراك الثأر ، ونماذج رائعة للشرف والإباء والنجدة والشهامة ، إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة التي يزخر بها تفكير العربي ، وتتفق مع مزاجه وتكوينه ، فالعربي على مر التاريخ إما بطل أو محب للبطولة ، يقيم لها في نفسه محراباً ، ويحفها بالإعزاز والتقدير .

وكما شغلت الأيــام ذهن العربي وتفكيره ، وضبطت البطـولـة تحركاتـه وتصرفاته واستنفدت قواه وقدراته ، فإنها كانت مجالاً لأحـاديثـه ، يرويها الخلف عن السلف ويتناقلها الرواة جيلاً بعد جيل ، حتى أكسبوا كثيراً من تلك الأيـام جلالاً من الأساطير ، وأضاف إليها الرواة والإخباريون إضافات كثيرة في العصور المختلفة ، مما جعل منها مورداً ثرياً للقصص الطريف ، الـذي كان يجلس النـاس لسماعه باستمتاع من أفواه القصاصين ، وكانت الأحـاديث الجـادة منهـا عن تلك الأيام تؤدي أحياناً إلى إثارة العصبيات وتعود بهم إلى جاهليتهم الأولى ، كما حدث ذات مرة بين الأوس والخزرج بعـد إسـلامهم ، قـال ابن إسحـاق[1] : مَرَّ شـأسُ بن قيس اليهـودي ـ وكان شيخـاً مسنـاً ـ على نفر من أصحــاب رسـول الله ﷺ من الأوس والخزرج ، في مجلس قد جمعهم ، فغاظه مـا رأى من أُلفتهم ومودتهم ، بعـد الذي كان بينهم من حروب وأيام في الجـاهليـة ، أرَّثت بينهم العـداوة والتنـافر ، وزرعت في قلوبهم البغضاء والأحقاد ، فقال في نفسه : ها أنـذا أرى بني قيلـة قـد اجتمع ملؤهم بهذه البلاد . لا والله ، ما لنـا معهم إذا اجتمعوا بهـا من قرار ، ثم فكر في أسلوب للوقيعة بينهم ، فـأمر شـابـاً يهوديـاً أن ينـدس بينهم ، ويـذكرهم بيوم بُعاث وغيره من أيامهم ، وينشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيهـا من أشعـار .. ومن ذلـك قول أبي قيس بن الأسلت في يوم بُعـاث الـذي كان لـلأوس على الخـزرج ، وقتـل فيــه رئيس الأوس يـومئــذ حُضَيْر بن سماك الأشهلي ، ورئيس الخــزرج عمرو بن النعمان البياضي :

على أن قـــد فُجعتُ بــذي حِفــاظٍ ... فعــــاودني لـــــه حـــزنٌ رصينُ
فـــإمّـــا تقتلــوه فــــإنّ عَمْراً ... أعضّ برأســـــــه عضبٌ سَنينُ[2]

ففعل الشاب ذلك ، فقام أوس بن قَيْظي ، أحد بني حارثـة بن الحـارث من

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٥٥٥ ، والإصابة ١ : ٨٧ .

(٢) أعض : ضرب . وسنين : مسنون .

الأوس وجُبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج يتقاولان ، وقال أحدهما للآخر : إن شئتم رددناها جذعة كما كانت ، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا : قد فعلنا ... موعدكم الظاهرة - يعنون الحرة - السلاحَ السلاحَ .! ولم يتمكنوا من السيطرة على تصرفاتهم إزاء هذا الموقف رغم إسلامهم وصحبتهم لرسول الله ﷺ . فخرجوا إلى الحَرة بنية القتال ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم في من معه من المهاجرين ، حتى جاءهم ، فقال : « يا معشر المسلمين الله الله .. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُرِكم ، بعد أن هداكم الله للإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وأكرمكم به ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بين قلوبكم ؟ » . فعرف القوم أنها نزعة شيطانية ، فبكوا ، وعانق بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين .

أما عن التدوين فلعل أبو عبيدة[1] كان أسبق الكاتبين في ذلك ، وعن مؤلفاته أخذ الآخرون ممن ألفوا في حروب العرب وأيامهم . وكان بعضهم يذكرها حسب ورودها في الأشعار ، دون مراعاة للترتيب التاريخي أو القبلي . وقد رتبها أحمد بن عبد ربه عندما تحدث عنها في كتابه (العقد الفريد) على أساس قبلي فتكلم عن حروب قيس وأيام بكر وتميم وهكذا .. إلخ . وذكر بعض رجالاتها وبعض ما قيل فيها من أشعار ، ولكن ابن الأثير[2] المتوفى سنة (٦٣٠ هـ) أورد في تاريخه أيامَ العرب في الجاهلية مرتبة على أساس تاريخي ، وأورد بعض ما قيل فيها من شعر بإيجاز ، ولكنه لم يحددها بالسنوات ، ومع ذلك فإن كتابه يعدّ من المصادر الهامة لأية دراسة تتصل بالأيام . وفي العصر الحديث نجد محمداً أبا الفضل إبراهيم وزميليه قد اهتموا بالأيام اهتماماً خاصاً وألّفوا في ذلك كتابين : أحدهما بعنوان (أيام العرب في الجاهلية) والآخر تحت عنوان (أيام العرب في

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ١٨٢ .

(٢) تاريخ النقائض لأحمد الشايب ص ٦٢ .

الإسلام) اقتصروا فيها على ذكر الأيام المشهورة التي مكنتهم المراجع من تفصيل حوادثها وذكر أسبابها ، ورواية أشعارها وقصائدها ؛ إذ كان غرضهم من الكتابة عنها ـ كما حدّدوه ـ (خبراً يُرْوى أو قصة تُحكى أو مثلاً يُؤْثر أو شعراً يذكر)[1] .

وكان القدماء يهتمون بالأيام ويعتبرونها مصدراً خصباً من مصادر التاريخ ، وينبوعاً صافياً من ينابيع الأدب ، ونوعاً طريفاً من أنواع القصص ، بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث ، وما رُوي أثناءها من شعر ونثر ، ومأثور الحكم والأمثال ، وبارع الحيل ، ومصطفى القول ورائع الكلام ، فلم يكن في مستطاع أي أديب تجاوزها ، ولا في مكنة باحث أو مؤرخ تجاهلها ، فجذور الأدب والتاريخ واللغة إنما ترسخ بمعرفتها ، وتتسع بالإحاطة بها ، فكم من موقف تاريخي إسلامي لا يمكنك تفسيره أو ردّه إلى أسبابه الحقيقية إذا لم تكن على علم بتلك الأيام ، وكم من نص أدبي لا تستطيع فهمه أو إدراك أجوائه الفنية والنفسية إن لم تأخذ بقدر من دقائقها وأسرارها . ولذلك جعلها القدماء من العلوم الضرورية لمعاصريهم ، يثقف بها الخاصة والملوك أبناءهم ، ويزوِّد بها الجميع علمهم وآدابهم .

وقد اتخذ منها بعض المحْدَثين منبعاً للقصص الأدبي الرفيع يغترفون منه ويودعونه بعض أفكارهم واتجاهاتهم ، واتخذوا من جوه المأسوي مادة لبعض ملاحمهم الشعرية ، واستمدوا منه لمسرحياتهم العديدة ، ولا يزالون .

وكان لقيام تلك الأيام بين القبائل العربية أسباب منها المعقول ومنها المرذول[2] ، ومن ذلك الطمع والرغبة في النهب والسلب ، ومنها الغضبُ للكرامة والشرف ، ومنها ما يكون راجعاً للوشايات والوقيعة التي يقابلها الطرفان

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ص (ل) مقدمة .

(٢) تاريخ النقائض ص ٦٣ .

بالتسرع وعدم التأكد من صحتها . وربما كان السبب كثرة المفاخرات والملاحاة التي توغر الصدور وتثير الحفائظ ، كما كان الثأر وحب الانتقام ورفع الضيم والتشبّث بالحرية وحماية الجار من أبرز أسبابها الناجمة عما ذكرنا قبلها من أسباب ، فحرب سُمير التي كانت بداية الشر بين الأوس والخزرج ـ مثلاً ـ كان سببها الأساسي الملاحاة والمفاخرة ، وإن كان سببها المباشر حماية الجار .

ويلاحظ أن نتائج هذه الحروب والأيام تكون غالباً في صالح المظلوم ، وتحل عواقبها الوخيمة بالظَّلمة والباغين ، فعلى الباغي تدور الدوائر . ففي يوم بُعاث ـ مثلاً ـ وهو آخر يوم حصل بين الأوس والخزرج دارت الدائرة فيه على الخزرج ، وهم قوم أذلوا بني عمهم الأوس ، حتى ألجؤوا بعضهم إلى ترك بلدهم ومربع طفولتهم وصباهم . وتكون الغلبة أحياناً قليلة للعادي المهاجم ، للحق التاريخي ، أو لحبْك القصص ، كحرب حاطب بين الأوس والخزرج أيضاً .

وكانت أيام القحطانيين فيا بينهم ، كأيام البُردان والكُلاب الأولى وحليمة واليحاميم وأيام الأوس والخزرج : معرضاً لأطماع الأمراء وعتوّهم ، ولمظالم الأقربين وإحنهم ، ولتعارك العرب في سبيل غيرهم من الفرس والروم ، كما هو الشأن في يومْ حليمة بين المناذرة والغساسنة .

ومن الملاحظ أيضاً أن المجتمع التجاري في مكة نجا من بعض شرور هذه الأيام ، فقد كان لقريش أيام الفجار مع غيرهم ، ولكن لم تقم حروب بين البطون القرشية ، بين الإخوة وأبناء العمومة ، كما هو الحال في المجتمع الرعوي والمجتمع الزراعي .

وقد كان متوقعاً ألا تنشب الحروب بين الأوس والخزرج في المجتمع الزراعي الذي كانت طبيعة الأمور تقضي ببعده عن مثل هذه المواقف ، ولكن يبدو أنهم رغم تحضرهم النسبي واستقرارهم ، لم يتخلصوا من الروح الأعرابية تخلصاً تاماً . بل

بقُوا محافظين على أكثر سجاياها ، ومنها النزعة إلى التخاصم والتقاتل ، وقد ألهتهم هذه النزعة عن الانصراف الكامل المثمر إلى غرس الأرض والاشتغال بالزراعة كما فعل اليهود ، وعن التقدم والتطور والاشتغال بالتجارة بمقياس كبير على نحو ما فعل أهل مكة ، وقد بقي الحيّان يتخاصمان حتى جاء الرسول ﷺ إليهما فأمرهما بالكف عن ذلك ، ووجّههما وجهة أخرى أنستهما الخصومة العنيفة التي كانت بينهما .

نعم كان أهل مكة في المجتمع التجاري أكثر تحضراً وتهذيباً وميلاً إلى الهدوء والاستقرار ، تحدث بينهم الخلافات كما تحدث في أي مجتمع ؛ فيعالجونها بمنطق الحكمة والرويّة وتبادل الرأي ، ولا بدّ هم واصلون إلى رأي تقتنع به جميع الأطراف وينتهي به الخلاف ، ثم تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي وتتصافى القلوب وتتشابك الأيدي وتخلو النفوس من الضغائن .

أصبح الناس يوماً بمكة وعلى دار الندوة مكتوب[١] :

ألهى قصيّاً[٢] عن المجد الأساطيرُ ... ورشوةٌ مثلما تُرشَى السَّفاسيرُ[٣]

وأكلها اللحم بحَتاً لا خليطَ له ... وقولُها : رحلت عِيرٌ مضت عيرُ

فأنكر الناس ذلك ، وقالوا : ما قالها إلا ابن الزِّبَعْرَي ، ولما أجمع رأيهم على ذلك مشوا إلى بني سهم ـ قوم ابن الزبعري ـ وذكَّروهم ما يقتضي عرف قريش من إنكار للملاحاة والمهاجاة بين بطونها ، لما في ذلك من تأريث للعداوة والبغضاء ، وحِمْلٍ على المخاصمة والتدابر ، وقالوا لبني سهم : ادفعوهُ إلينا نحكم فيه بحكمنا ، قالوا : وما الحكم ؟ قالوا : نقطع لسانه .. قالوا : فشأنكم ، واعلموا أنه والله

(١) طبقات فحول الشعراء ١ : ٢٣٥ .

(٢) قصي : أراد به عبد مناف .

(٣) السفاسير : جمع سفسير ، وهو السمسار . وأراد بالرشوة : ما فرضه قصي على قريش في أموالها عند كل موسم حج ، من خراج يصنع به الرفادة .

لا يهجونا رجل منكم إلا فعلنا به مثل ذلك ، وكان الزبير بن عبد المطلب يومئذ غائباً جهة اليمن ، وهو شاعر بني عبد مناف ، فانتحت بنو قصي بينهم وتبادلوا الرأي ، فقالوا : لا نأمن الزبير إن بلغه ما قال هذا ، أن يقول شيئاً ، فيفعل به ما اعترمنا فعله بابن الزبعْرَي ، وكانوا أهل تناصف ، فأجمعوا على تخليته ، لكن حذَّروه من الآثار السيئة التي يتركها مثل هذا الشعر في النفوس ، فقال بعض الناس ، من جناة الغي لابن الزبعري ، يوغرون صدره على قومه الذين أسلموه للعقاب : أسلمك قومك ولم يمنعوك ولو شاؤوا منعوك ، فلم يُصغ لكلامهم الخبيث الذي أرادوا منه الصيد في الماء العكر ، وقال :

لعمرُك ما جاءتْ بنكْرٍ عشيرتي ... وإن صالحتْ إخوانَها لا ألومُها
يودُّ جناةُ الغيّ أن سيوفَنا ... بأيماننا مسلولةٌ لا نَشيمُها[1]

وإذا كان هذا شأن مكة ؛ فإن شأن يثرب كما قلنا اختلف عن ذلك ، فقد وقعت بين أهلها حروب متتابعة ، وما كانت لتقع لولا هذه العصبية الضيقة ، يثيرها في الغالب أفراد لا منازل كبيرة لهم في المجتمع ، فإذا وقع على أحدهم اعتداء نادى قومه للأخذ بثأره ، ورغم ذلك نجد لديهم نمطاً يختلف عما كان عليه الحال في المجتمع الرعوي ، فكثيراً ما قام بعضهم يذكر بالرحم والقربى ، علّه ينهنه من شرّة الحروب ، ويصطلم الضغائن ، يقول قيس بن الخطيم[2] :

إنا ولو قدَّموا التي عَلِموا ... أكبادُنا من ورائهم تجِفُ
لَمّا بدتْ غدوةً جباهُهُمُ ... حنَّتْ إلينا الأرحامُ والصحف

وينطبق عليهم في الغالب قول البحتري :

إذا احتربَتْ يوماً ففاضتْ دماؤُها ... تذكرت القربى ففاضَتْ دموعُها

---

(١) نشيمها : نغمدها .

(٢) الديوان ص ١١٦ .

ودامت حروب الأوس والخزرج على ما تذكر بعض الروايات مائة سنة ، أولها حرب سُمير ، وآخرها حرب بعاث ، قبل هجرة الرسول ﷺ بخمس سنين ، ويحصرها سيديو[1] بين سنتي ٤٦٧ وسنة ٦١٥ ميلادية ..

ولا نعرف الأساس الذي بنى عليه سيديو تقديره ، غير أن أمامنا قول ابن كثير في حرب حاطب : إن بينها وبين حرب سُمير مائة سنة وإنها آخر حروبهم إلى يوم بعاث ، فنعلم أن ما ذكرته هذه الرواية من استغراق حروبهم مائة سنة لا يشمل يوم بُعاث ، وإذا عرفنا أن قائد حرب سُمير من الأوس هو أحيحة بن الجلاح المولود سنة ٤٦٤ م والمتوفى سنة ٥٦١ م . وأن سنّه إذ ذاك لا بد أن يكون حوالي أربعين سنة ؛ لأنه قاد حركة الثورة ضد تبّع حوالي سنة ٤٩٤ م وهو على رأس الثلاثين ، وظفر الأوس والخزرج بمساعدة الغساسنة حوالي سنة ٥٠٠ م ، أي حين كان عمر أحيحة حوالي ست وثلاثين سنة ، كان معنى هذا أن حرب سُمير وقعت سنة ٥٠٤ م تقريباً ، وكان الزمن التقريبي لحرب حاطب هو سنة ٦٠٤ م وبينها وبين حرب بعاث حوالي ثلاث عشرة سنة ؛ لأن حرب بعاث انتهت بالتأكيد قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بخمس سنوات ، أي حوالي سنة ٦١٧ م ؛ ذلك أن الهجرة الشريفة تمت سنة ٦٢٢ م . والترتيب الزمني لتلك الحروب على ما ذكره ابن الأثير ، كالآتي : حرب سُمير ، حرب كعب بن عمرو ، يوم السَّرارة ، حرب ربيع الظفري ، حرب فارع ، حرب حاطب ، ويتبعها يوم الربيع ويوم البقيع ، حرب الفجار الأول ، يوم معبّس ومضرّس ، يوم الفجار الثاني ، يوم بعاث .

وكانت أيامهم من أشهر حروب الجاهلية ، لأنها اقترنت بذكر جماعة من كبار الشعراء الجاهليين والمخضرمين من العرب واليهود ، كقيس بن الخطيم ،

---

(١) تاريخ العرب العام ص ٤٥ .

وأحيحة بن الجلاح ، وأبي قيس بن الأسلت ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة وكعب بن الأشرف ، والربيع بن أبي الحقيق ، وغيرهم ، وكان الشعر في البيئة العربية من أهم وسائل الشهرة والخلود .

١ ـ حرب سُمير (٥٠٤ م) :

ظل الأوس والخزرج بعد انتصارهم على اليهود بمساعدة أبي جبيلة الغساني ورئاسة مالك بن العجلان السالمي الخزرجي ، على اتفاق ووئام تامّين ، وأصبحت لهم الرئاسة في يثرب ، وانخذل اليهود ، وانصرف الحيان للبناء والتعمير ، ففلحوا الأرض وعمَّروا البساتين واستنبتوا النخل ، فكثرت عندهم الخيرات وعمَّ بلادهم الرخاء فلم يَحْلُ ذلك لليهود ، ولم يرضِ ما في نفوسهم من حقد دفين ، فاستعملوا ما في جعبتهم من حيل لإيغار الصدور وإثارة البغضاء بين الحيين ، ليصفو لهم الجو ويتحكموا في يثرب عن طريق التجارة والثراء والمال ، ما دام قد فاتهم الحكم والسلطان ، فحرب سُمير وهي الحرب الأولى بين الحيين مهَّدَ لها اليهود بخبثهم وتخطيطهم الخاص ، هذا هو السبب الخفي ، أما السبب المباشر الظاهر لهذه الحرب فقد أشرنا إليه في كلام سابق ، وهو أن وافداً من ذبيان[1] اسمه كعب الثعلبي نزل على مالك بن العجلان ، واختار الإقامة في يثرب حليفاً له ، وخرج كعب ذات يوم إلى سوق الجسر (سوق بني قينقاع) فرأى رجلاً من غطفان بيده فرس ينادي في الناس : ليأخذ هذه الفرس أعز أهل يثرب ، ... إلى آخر القصة ، وغضب رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف اسمه سُمير بن زيد[2] وأنكر أن يكون أعز أهل يثرب من الخزرج ، وشتم كعباً ثم خرج من السوق ، وبنو عمرو بن عوف كما نعلم فرع من الأوس يسكنون قباء ،

---

(١) الكامل لابن الأثير ١ : ٤٠٣ وأيام العرب في الجاهلية ص .

(٢) سماه صاحب الأغاني ٣ : ٣٩ سُمير بن يزيد .

وكان يسكن معهم فرع أوسي آخر ، هم بنو جحجبا ، الذين منهم الشاعر الفارس أحيحة بن الجلاح ، في أول الأمر ، ثم انتقلوا غرباً إلى العصبة كما قدمنا . أما بنو سالم بن عوف الذين منهم الفارس الشاعر مالك بن العجلان فهم فرع من الخزرج كانوا يسكنون مع فرع خزرجي آخر شديد القرابة منهم ، وهم بنو غنم بن عوف ، وكانوا يسكنون بطرف الحرة الغربية غير بعيدين من قباء ، والسوق التي جرى فيها الخلاف بين سُمير وحليف مالك بن العجلان في جسر بُطحان شمالها بحوالي أربعة أو خمسة أكيال .

وانقضت مدة من الزمن التقى بعدها سُمير بكعب في سوق العصبة ، فتحركت فيه شهوة الانتقام وصمّم على قتله ، فجعل يتابعه حتى وجد فرصة لقتله فقتله ، ولما وصل الخبر لمالك بن العجلان ثار لمقتل حليفه ، وتألم للطعنة التي سدّدها سمير إلى حلفه وجواره ، ومحاولة إظهاره عند القوم بمظهر العاجز الضعيف ولكنه مع ذلك لم يتسرّع ، وهو الرجل الأريب المحنّك الذي سبق أن دافع عن الحيين معاً في مغالبة اليهود ، بل أرسل إلى بني عمرو بن عوف : إنكم قتلتم منا قتيلاً فأرسلوا إلينا بقاتله ، فلما جاءهم رسول مالك اضطرب الأمر في أيديهم ، وصار كل واحد منهم يرمي الآخر بقتل كعب ، فقال بنو زيد : إنما قتلته بنو جحجبا ، وقال بنو جحجبا : إنما قتلته بنو زيد قوم سُمير ، الذين هم من بني عمرو بن عوف ، ثم فكروا في حيلة للخلاص من هذا المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه ، فأرسلوا إلى مالك : إنه قد كان في السوق التي قتل فيها صاحبكم ناس كثير ، ولا يُدْرى أيّهم قتله . وكان بوسع مالك أن يصدقهم ، لولا أنه تأكد لديه بما لا يقبل الشك أن سُميراً هو القاتل ، وحينئذ أرسل مرة أخرى إلى بني عمرو بن عوف بالذي بلغه من ذلك ، وطلب منهم أن يرسلوا إليه سُميراً ليقتله جزاء قتله كعباً ، فأرسلوا إليه : إنه ليس لك أن تقتل سميراً من غير بينة ، وكثرت الرسل بينهم في ذلك ، يسألهم مالك أن يعطوه سميراً ويأبون أن يعطوه إياه ، وتخلل

ذلـك شيء من التهـديـد والـوعيـد ، وكره بنـو عمرو أن تنشب حرب بينهم وبين مالـك ، وفي الوقت نفسـه كانوا لا يريـدون تسليم سُمير ، ففكروا في حيلـة أخرى علّها تنطلي على مالك ، فـأرسلوا إليـه : إن صـاحبكم حليف ، وليس لكم فيـه إلا نصف الديـة ، وكانت ديـة الحليف فيهم خمسـاً[1] من الإبل وديـة الصريح عشراً ، فغضب مالك وأبى إلا أن يأخذ الـديـة كاملـة أو يقتل سميراً ، وتصلَّب أيضـاً بنو عمرو ورفضـوا أن يعطـوه إلا ديـة الحليف ، وهي نصف الـديـة ، ولمـا طـالت المراسـلات بينهم دون جـدوى دعـوه أن يحكّم بينهم وبينـه عمرو بن امرئ القيس الشاعر ، أحد بني الحارث بن الخزرج الأكبر وهو جد عبـد الله بن رواحـة شـاعر النبي ﷺ ، فقبـل بـذلـك ، وذهبـوا جميعـاً إلى بني الحـارث وعرضـوا الأمر على عمرو بن امرئ القيس ، فقضى على مـالـك بن العجـلان بنصف الـديـة ، حسبمـا يقتضيه العُرف بيثرب ، وأبى مالـك أن يرضى بـذلـك ، وآذن بني عمرو بن عوف بالحرب ، واستنصر قبائل الخزرج فرفض بعضها مناصرتـه ، لاعتقـادهم بمجـاوزتـه الحد ومخالفته العرف السائد في مطلبه ، ومن القبـائل التي خـذلتـه بنو الحـارث ، فقال مالك يـذكر خـذلانهم لـه وحـدب بني عمرو على سمير ، ويحرض بني النجـار - وهم من الخزرج - على نصرته :

إن سُمَيْراً أرى عشيرتَـه ... قـد حَـدِبـوا دونـه وقـد أَنِفـوا[2]
إنْ يكنِ الظن صـادقـاً ببني النَّجَّـار ... لا يَطْعَمُـوا الـذي عُلِفُـوا[3]

إلى آخر القصيدة .

وقال عمرو بن امرئ القيس[4] الذي رفض مالك حكومته :

---

(١) الأغاني ٣ : ٣٩ ثقافة .
(٢) جمهرة أشعار العرب للقرشي ص ٢٢٥ .
(٣) يريد أنهم لا يخذلون من كانوا قد نصروه .
(٤) الجمهرة ص ٢٣٧ ، وبلوغ الأرب ٣ : ٤١٠ ، ومعجم الشعراء ص ٥٥ ، وديوان حسان مع بعض الاختلافات ص ١٦٦ .

يـــا مـــالِ والسَّيِّـــد المعمَّمُ قـــد يُبْطِرُه بعضُ رأيـــــــهِ السَّرِفُ[1]

.... إلــــــــــــخ

وقال درهم بن زيد أخو سُمير في ذلك أيضاً :

يـــا قـــوم لا تقتلـــوا سميراً فـــإنَّ القتـــلَ فيـــــه البـــوارُ والأَسَفُ

.... إلــــــــــــخ

ثم أرسل مالك إلى بني عمرو يؤذنهم بـالحرب ، ويعـدهم يومـاً يلتقون فيـه ، وتحاشد الحيـان ، وتواعـدا في فضـاء واسع من رحـاب قبـاء ، ولـما التقى الجمعـان اقتتلوا اقتتالاً شـديـداً وانصرفوا وهم منتصفون جميعـاً ، ولهـذا سمي هـذا اليوم من أيام حرب سُمير بيوم الفضاء وهو مكان بين بئر بني سالم وبئر قباء قرب الصّفينة .

ثم التقوا مرة أخرى عند أطم بني قينقـاع ، أي في مكان بعيـد عن منـازلهم ، فـاقتتلوا حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفر لـلأوس على الخـزرج ، وعرف هـذا اليوم بيوم أطم بني قينقاع ، وكان على رأس الأوس فيه : أحيحة بن الجلاح ، وفي ذلك اليوم طعن أحيحة نضلة بن مالك بن العجلان سيد بني سالم .

واستمرت هـذه الحرب في أيـام متقطعـة وأمـاكن مختلفـة ، ثم إن سـويـد بن الصامت الملقب بالكامل[2] ـ وكان الرجل عند العرب إذا كان شـاعراً كاتبـاً راميـاً سموه بـالكامل ـ قـال لقومـه الأوس : يـا قوم .. ارضـوا هـذا الرجـل من حليفـه ولا تقيموا على حرب إخوتكم فيفني بعضكم بعضـاً ، ويطمـع فيكم غيركم . فـأرسلت الأوس إلى مالك يدعونه إلى أن يحكم بينهم وبينـه ثـابت بن المنـذر بن حرام وهو من بني حرام من الخزرج ، فأجابهم مالك إلى ذلك ، وخرجوا حتى أتوا ثـابت بن

(١) المعمم : الذي يقلده الناس أمورهم ، والسرف : الفاسد .

(٢) تذكر بعض المراجع أنه رجل آخر غير سويد .

المنذر فقالوا : إنا حكمناك بيننا ، فقال : لا حاجة لي في ذلك . قالوا : ولم ؟ قال : أخاف أن تردوا حكمي كما رددتم حكم عمرو بن امرئ القيس ، فقالوا : إنا لا نرد حكمك فاحكم بيننا . قال : لا أحكم حتى تعطوني موثقاً وعهداً لترضون بما أقضي به بينكم ولتسلّمنّ تسليماً . فأعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم ، فحكم بأن يودَى حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه : الصريح على ديته والحليف على ديته ، وأن تعدّ القتلى من الجانبين ، فيكون بعض ببعض ، ثم يعطوا الدية لمن كان له فضل في القتلى من الفريقين ، فرضي مالك بذلك وسلمت الأوس . وتفرقوا على أن يكون على بني النجار نصف دية جار مالك ، معونة لإخوتهم وعلى بني عمرو بن عوف نصفها ، فرأت بنو عمرو أنهم لم يُخرجوا إلا الذي كان عليهم ورأى مالك أنه حفظت كرامته وأدرك ما كان يطلب ووُدِيَ جارُه دية صريحة .

ونلاحظ على هذه الحرب أنها كانت بسبب حماية الجار ، وأنها كانت فاتحة شر اتصلت حلقاته ، انتهت ظاهرياً بحكم ثابت بن المنذر ، ولكنها تركت حزازتها في النفوس وجعلتها مستعدة للاصطدام في أي وقت آخر ، أي أنها سهلت بينهم عملية القتل والثأر . ونلاحظ أيضاً أنها اعتمدت على اللقاءات المتقطعة التي قد تقتصر أحياناً على الاحتكاك غير المسلح ، وأنها لم تشترك فيها كل البطون من الجانبين ، بل كان بعض عقلاء القوم يحاولون إنهاءها وحصر نطاقها ، كعمرو بن امرئ القيس وسويد وثابت بن المنذر .

٢ ـ حرب كعب بن عمرو :

كان ميزان النصر في حرب سُمير في صالح الخزرج ، وانتهت كما رأينا بالحكمة والحيلة ، ولكن الجروح لم تندمل ، والسخائم لم تنتزع ، تلاقت الأيدي ولكن القلوب ظلت تتقد بالحقد والكراهية وتتحين الظرف المناسب والفرصة الملائمة

لتطفو على السطح ، وتكشف عن مكنونها ، فقد تزوج كعب بن عمرو[1] المازني الخزرجي امرأة من بني سالم ، ومنازلهم ـ كما نعلم ـ تقع قريباً من بني جحجبا الأوسيين ، وكان يذهب إلى زوجته في بني سالم ، فكمن له جماعة من بني جحجبا وترصدوه ، وفي غفلة منه طلعوا عليه وفاجؤوه بالضرب ، ولم يكتفوا بذلك بل تمادوا في ضربه حتى قتلوه ، ولما سمع أخوه عاصم بن عمرو ، غضب لذلك غضباً شديداً ، وخرج لبني جحجبا في بني النجار جميعاً ، لأن بني النجار سبعة فروع ، منهم بنو مازن الذين يرجع إليهم كعب بن عمرو ، وكانوا ينزلون قبلي بئر البصة ، فتلاقوا بالرحابة[2] وحدث بينهم قتال شديد ، ثم انهزم بنو جحجبا وولوا هاربين ، وكان معهم رئيسهم أحيحة بن الجلاح ، فجدّ في طلبه عاصم ليقتله بأخيه فلم يستطع إدراكه ، لأن أحيحة كان قد سبقه إلى باب أُطْمه الضَّحْيان ، فرماه بسهم فأخطأه ووقع على باب الحصن وكان أحيحة قد دخل ، ورجع عاصم وأصحابه محنقين غاضبين ، وبعد أيام قرّر عاصم أن يتسلل إلى أحيحة ليلاً ويقتله في داره ، وبلغ أحيحة ذلك فقال[3] :

نُبِّئتُ أنك جئتَ تَسري بين داري والقبابهْ[4]
فلقد وجدتَّ بجانب الضَّحيان شبّاناً مُهابهْ
فتيانَ حربٍ في الحديد وشامرين كأُسْد غابهْ
هُمْ نكّبوك عن الطريق فبتَّ تركب كلَّ لابهْ[5]
أعُصَيْمُ لا تجزع فإن الحربَ ليستْ بالدُّعابهْ

(١) ابن الأثير ١ : ٤٠٣ ـ ٤٠٥ ، والاستبصار ٣٠٧ ـ ٣١٥ ، وتاريخ النقائض ص ٨٠ ، وأيام العرب في الجاهلية ص ٦٩ .
(٢) الرحابة : أحد آطام المدينة ، ويسمي بعض المؤرخين هذا اليوم : يوم الرحابة .
(٣) ابن الأثير ١ : ٤٠٤ .
(٤) القبابة : اسم أطم .
(٥) اللابة : الحرّة .

فـأنـا الـذي صبَّحتكم بـالقـوم إذ دخلـوا الرُّحـابـهْ
وقتلتُ كعبـاً قبلهـا وعلـوتُ بـالسيف الـذُّؤابـهْ
أقسمتُ لا أعطيـك في كعب ومقتلـه سيـابـهْ[1]

وكان من عـادة أحيحـة أنـه إذا أمسى خرج من أطمـه الضحيـان ، وجلس جلسة طويلة بجانبه في الهواء الطلق ، ثم أرسل كلابه تحميه وتنبح دونه كل من يأتيه من الذين لا يعرفهم ، حذراً من أن يفجأه عدوه ، ولما أقبل عاصم بن عمرو يريده ليقتله نبحته الكلاب ، ولكنه رمى لها بما يلهيها فسكتت ، وتنبّه أحيحـة لذلك ، وحدّثه قلبه بحدوث شر ، فقام مسرعاً ودخل أطمه ، ورمـاه عـاصم بسهم فأخطـأه ووقع مرة أخرى بـالبـاب ، فلمـا سمع أحيحـة وقع السهم صرخ في قومـه وأتباعه ليمسكوا بعاصم ، ولكن عاصماً جرى وأعجزهم طلبه ، وقال :

أبلـغ أحيحـة إنْ عرضْتَ بـداره عني جـوابَـهْ
وأنـا الـذي أعجلتُـه عن مقعـد ألْهى كـلابَـهْ
ورميتُـه سهماً فـأخطـأه وأغلـقَ ثَمَّ بـابَـهْ

وجمع أحيحة قومه وقرر أن يبـاغت بني النجـار ويـأخـذهم على غرة ، وكان أحيحـة متزوجـاً من سلمى بنت عمرو إحـدى نسـاء بني النجـار ، وكان لـه منهـا ولد ، وهو ابنه عمرو بن أحيحة ، وهو فطيم يومئـذ ، فلمـا رأت عزم أحيحـة على غزو قومها والغـدر بهم عمـدت إلى ابنهـا فربطت على بعض أطرافـه بخيـط ، فحزّ الخيـط في جسم الطفل وأخـذ يبكي بكاء متواصـلاً ، وهي تحملـه وتحـاول إسكاتـه ولا يسكت ، وبـات أحيحـة سـاهراً معها يقـول : ويحـك مـا للطفـل يصيح ويبكي ..؟ وهي تقول : والله ما أدري لبكائه سبباً ، ولما لم يبق من الليل إلا أقله أطلقت الخيط عن الطفل فهدأ ونام ، ثم صاحت وقالت : وارأساه .. وما كان بها من وجع ولا ألم ، وإنما أرادت أن تشغل أحيحة عن قومهـا وتجهـد قواه بـالسهر ،

---

(١) سيابة : بلحة .

وبات يعصب لها رأسها ويمرضها ويقول : ليس بك بأس ، حتى إذا ما كاد الليل أن ينقشع قالت له : قم فإن الألم زال عني وسكن وجعي ، وأنا شاكرة لك اهتمامك وحسن حدبك علي ، وثقل رأس أحيحة بالنوم فنام باستغراق ، ولما تأكدت من نومه قامت وتناولت حبلاً وأوثقته برأس الأطم وتدلّت منه ، وانطلقت إلى قومها فأنذرتهم بما كان من نية أحيحة ، وأخبرتهم بما بيّته مع قومه ضدهم ، فأخذوا حذرهم واستعدوا لمواجهته ، وبذلك أنقذتهم من موت محقق ، وفوجئ أحيحة عند الفجر وهو يهاجم بقومه منازل بني النجار شمالي جسر بطحان ، بالنبال تتساقط عليه وعلى قومه من كل جانب ، فعلم أنه خدع ، وأن أحداً بلّغ أسراره لأعدائه ، وتذكّر موقف زوجته فرجع بقومه وهو يقول : هذا عمل سَلْمى ، خدعتني حتى أصابت ما أرادت وفوّتت الفرصة علي ، فلما رجع ضربها حتى كسر يدها ، ثم طلّقها فلحقت بأهلها ، وعرفت بعد ذلك بالمتدلية ، ثم تزوجها بعده هاشم بن عبد مناف ، فولدت له عبد المطلب جد الرسول ﷺ ، وقال أحيحة في هذه الحرب مُذهَبته الشهيرة التي مطلعها[1] :

صحوت عن الصبا ، والدهرُ غُولُ ... ونفسُ المرء آونةً قَتولُ[2]
ولَوْ أني أشاءُ نعمتُ حالاً ... وباكرني صَبُوحٌ أو نَشيلُ[3]

ونلاحظ أن بني جحجبا في هذه الحرب يمثلون طرف الصراع ضد الخزرج أيضاً ، والطرف الثاني من بني النجار ، وهؤلاء هم الذين حكم رئيسهم ثابت بن المنذر بن حرام في حرب سُمير ، وكأنّ الجحجبيين بقي في نفوسهم شي من تلك الحكومة ، أو أن العداء للخزرج عموماً استحكم فيهم ، وهذا يؤكد مدى الأثر السيء الذي تركته حرب سمير في نفوس الحيين .

---

(١) الجمهرة ص ٢٣١ والكامل ١ : ٣٠٣ ـ ٤٠٥ .
(٢) غول : مغتال .
(٣) النشيل : اللبن ساعة يُحلب .

ورئيس هذه الحرب من بني جحجبا هو أحيحة بن الجلاح ، وهو نفسه كان رئيساً في حرب سمير كما سبق أن أشرنا .

٣ ـ يوم السَّرارة :

هناك اختلاف بين المؤرخين في ضبط اسم هذا اليوم وفي تصنيفه بين أيامهم ، فالبكري يضبطه بسين مهملة مشددة مفتوحة مع تخفيف الراء ، ويجعله أحد أيامهم في حرب حاطب . بينما السمهودي[1] يشدد الراء أيضاً ، ثم يقول : إن السَّرَّارة اسم لحديقة كانت بمنازل بني بياضة ، وهي غير الحديقة التي كانت على عهده بقباء تحمل الاسم نفسه ، ولم يتعرض لتصنيفه . لكن ابن الأثير[2] يعدُّه يوماً مستقلاً سابقاً لحرب حاطب ، وهو الترتيب الذي اعتمدناه في الحديث عن أيامهم ، ولعل رأي البكري في جعله ضمن أيام حاطب أقرب للتصور والنسق التاريخي ، كما سيأتي في الحديث عن قواد هذه الحروب في ترجمة أبي قيس بن الأسلت ، ويبدو أن ضبط البكري أيضاً أقرب إلى الصواب ، فعليه جاء قول شاعرهم عبيد بن نافذ :

لكن فرارَ أبي الحباب بنفسه ... يوم السّرارة سيء منه الأقرب

والشعر كما ترى من البحر الكامل ولو شددنا الراء لاضطرب وزنه .

ومن حيث الموقع فإنني أميل إلى أن السّرارة هذه كانت بقباء ، أو قريب منها ، وذلك لأن قباء هي منازل بني عمرو بن عوف من الأوس ، وهم أحد الأطراف المعنية في هذه الحرب ، كما أن بني الحارث الخزرجيين ، وهم الطرف الثاني فيها كانوا بالعوالي ، وهي أقرب إلى قباء من الموضع الذي حدده البكري

---

(١) الوفاء : ٣٢٢ ، ٤٢٢ .

(٢) الكامل ١ : ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .

بين الشرعيّ وراتج ، فهذان الموضعان شمالي سَلْع إلى الشرق قليلاً ، والمعقول أن يتحاربا في موضع يأتي إليه كل واحد منهما من منازله ، لا أن ينقلا الحرب إلى منازل غيرهم ، وهو مجرد ترجيح وتخمين لا غير .

والسبب المباشر لهذه الحرب أن رجلاً من بني الحارث بن الخزرج لقي رجلاً من بني عمرو بن عوف خارجاً من بئر أرِّيس (وهي البئر التي كانت غربي مسجد قباء بنحو ثلاثين متراً) فرماه بنبل كان معه فقتله ، فلم يتصرف بنو عمرو بالأسلوب الذي يحقن الدماء ، وهم قوم اشتركوا في حربين سابقتين ، بجانب بني عمومتهم يني جحجبا ، وذاقوا مرارة المعارك وما فيها من شرور ، بل عمدوا إلى الغدر بالقاتل فقتلوه بياتاً ، وهو أسلوب لا تقبله النفوس اليثربية في الغالب ، فقد كانوا رغم عداوتهم لا يقتلون رجلاً في داره ولا في نخله ، ولما علم أهله بذلك عزموا على مقاتلة بني عمرو بن عوف فأرسلوا إليهم يؤذنونهم بالحرب ، والتقوا بالسّرارة التي رجحنا أن تكون بقباء ، وقاد الأوس حضير بن سماك والد الصحابي الجليل أسيد بن حضير ، وقاد الخزرج عبد الله بن أبيّ بن سلول أبو الحباب ، الذي كان رأس المنافقين إبّان الدعوة المحمدية في المدينة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً أربعة أيام متوالية انهزمت فيها الأوس ، ففخرت الخزرج عليهم ، وقال حسان قصيدته التي مطلعها[1] :

لعمرُ أبيك الخيرِ حقّاً لَما نبا	عليّ لساني في الخطوب ولا يدي[2]
لساني وسيفي صارمان كلاهما	ويبلغُ ما لا يبلغُ السيفُ مِذْودي[3]
وإن نالني مالٌ كثير أجُدْ به	وإن يُهتصَرْ عودي على الجُهْد يُجْهَد

(١) الجمهرة ص ٢٢١ وابن الأثير ١ : ٤٠٥ والديوان ص ٧٢ وتاريخ النقائض ص ٧١ .

(٢) نبا : تجافى وتباعد .

(٣) المذود : اسم آلة من الذود ، والمقصود هنا : اللسان ، لأنه يذاد به .

وقال قيس بن الخطيم[1] :

تروّحْ من الحسنــــاء أم أنت مُغْتَــــد ... وكيف انطــلاقُ عـــاشــقٍ لم يُــزوَّد

تراءت لنـــا يــوم الرحيـــل بمقْلَتَيْ ... غريرٍ بملتفٍّ من الســـــدْر مُفْرَد[2]

.... إلــــــــــــــخ

٤ ـ حرب الحصين بن الأسلت :

سبب هـذه الحرب أن رجـلاً من بني مـازن بن النجـار[3] نـازع الحصين بن الأسلت أخا الشاعر الأوسي المعروف أبي قيس بن الأسلت ، فقتله الحصين ، وهما من بني وائل بن زيد ، ولكن بني مازن لما علموا بالأمر ترصدوا للحصين وقتلوه جزاء قتله صاحبهم ، فبلغ الخبر أخاه أبا قيس ، فلم يرضه أن ينتصف بنو مازن من أخيه ، وأقسم ليثأرن له ، ولم يكتف باستثارة قومه بني وائل ، بل جمع من حوله الأوس جميعاً .

وكذلك فعل بنو مازن ، جمعوا من حولهم كل الخزرج ، حتى لم يكد يتخلف من الحيين أحد ، ونشب القتال بينهم واستحرت نـاره ، حتى كثرت القتلى بين الفريقين ، واستطاع أبو قيس بن الأسلت أن يقتل الذين قتلوا أخاه ، ثم دارت الدائرة عليه وعلى قومه الأوس واشتفى منهم الخزرج ، وأقبل الأوس على بعضهم يتلاومون ، حتى أن وحْوح بن الأسلت لام أخاه أبا قيس على فشل قيادته ، وحمَّله وزر هزيمة الأوس ، وقال له : لا تزال مهزوماً من الخزرج . فرد عليه أبو قيس شعراً فقال :

---

(١) ديوان ابن الخطيم ص ١٢٤ وابن الأثير ١ : ٤٠٧ وتاريخ النقائض ص ٨١ وديوان حسان ص ٧٦ .

(٢) تراءت لنا : تعرضت لنا لنراها ، وغرير : ظبي ، وأصل الغرة قلة التجربة .

(٣) ابن الأثير ١ : ٤٠٧ .

أبلـغْ أبـــا حِصْن[1] وبعضُ القــول عنـــدي ذو كَبـــارهْ
أنّ ابنَ أمٍّ المرء ليس من الحـــــديـــــد ولا الحجـــارة
مـــــاذا عليكم أن يكـــون لكم بهـــا رَحْــلاً عمـــاره[2]
يحمي ذمــــارَكُمْ وبعضُ القـــــوم لا يحمي ذِمَـــاره
يبني لكم خيراً ، وبُنيــــانُ الكريم لــــه أَثَـــاره[3]

ولعل من الغريب حقاً أن يشترك في هـذه الحرب الحيان جميعاً ، ويكون قائد الأوس فيها شاعراً هو في الوقت نفسه أخ القتيل ، ثم لا نظفر فيها من الشعر إلا بخمسة أبيات . إنه شيء يثير التساؤل ويبعث على الدهشة . ولا يخلو الحال في رأيي من أن يكون الإخباريون قد بالغوا في نقل الأحداث التاريخية ، فأشركوا الحيين جميعاً في هـذه الحرب ، أو أنهـا اختلطت عليهم بغيرهـا من الحروب ، أو تكون الذاكرة الأدبية عجزت عن استيعاب ما ورد فيهـا من أشعـار ، وقصرت في ذلك تقصيراً بيناً ، وهو ما أصاب تراث الأنصار بصفة عامة كما أشرنا غير مرة .

٥ ـ يوم الربيع :

اختلف البـاحثـون في ضبـط اسم هـذا اليـوم فبعضهم يضبطـه[4] بـالتكبير ، ويقول : إنه بلفظ ربيع الأزمنة ، وزاد بعضهم : والربيع : الجدول الصغير بلغة أهل المدينة ، وضبطه آخرون[5] بالتصغير ، قالوا : وهو تصغير رَبْع .

---

(١) أبا حصن : كنية وحْوح بن الأسلت . وذو كبارة : ذو عِظَم .
(٢) الرحـل : مسكن الرجـل ومـا يصحبـه من أثـاث . والعمارة : أصغر من القبيلـة أو هي الحي العظيم .
(٣) الأثارة : البقية من العلم تؤثر .
(٤) الوفاء ٢ : ٣١٠ وديوان ابن الخطيم ص ٢٦٤ .
(٥) مراصد الاطلاع ٢ : ٦٠٣ .

واختلفوا أيضاً في سبب التسمية ، فقيل[1] : إنه اسم لموضع قرب المدينة حدثت فيه حرب بين الأوس والخزرج حملت اسمه . وقيل[2] : هو اسم حائط في ناحية السفح جرت فيه الحرب المعروفة بين الأوس والخزرج . ولعل المقصود بالسفح في هذا الرأي : سفح سلع ونحوه ، فلا يمكن أن يكون خارج المدينة في رأيي ، إذ ما الذي يحملهم أن ينقلوا حربهم إلى مكان خارج ديارهم ؟ وقيل : إنه[3] اسم لرجل يدعى ربيع الظفري ، ولعل هذا الرأي قريب من الواقع أيضاً ، وبخاصة عندما نجد أن هذه الحرب قامت فعلاً بين بني ظفر من الأوس ، وبني مالك بن النجار من الخزرج ، قالوا : كان ربيع الظفري يمر في مال لرجل من بني النجار إلى مال له[4] ، فمنعه النجاري ، فتشابكا وقتله ربيع ، فعزم قومهما على القتال .

وكما اختلفوا في ضبط اسم هذا اليوم وفي تحديد مكانه وسبب تسميته ، اختلفوا أيضاً في تحديد مكانه بين أيام الأوس والخزرج ، فبينما يذكره بعضهم يوماً[5] مستقلاً كابن الكلبي ، نجد ابن الأثير يجعل منه يومين : أولهما باسم يوم ربيع الظفري ، وترتيبه بعد حرب الحصين بن الأسلت ، كما أوردناه هنا ، وثانيهما باسم يوم الربيع ضمن أيام حرب حاطب ، ويحدد زمنه بعد يوم الجسر من أيام حاطب أيضاً .

والنصوص الشعرية التي بين أيدينا تتحدث عن هذا اليوم بطريقة فيها شبه

---

(١) المرجع السابق .

(٢) ابن الأثير ١ : ٤١٢ .

(٣) المرجع السابق ١ : ٤٠٨ .

(٤) المقصود من كلمة مال هنا : البستان . أي أن طريقه إلى بستانه كانت تمر في بستان النجّاري .

(٥) ديوان ابن الخطيم ص ٢٦٥ .

تناقض ، فشعراء الأوس ينسبون فيه النصر إليهم ، وشعراء الخزرج كذلك يفاخرون الأوس بانتصارهم في هذا اليوم ، ولكن يمكن الجمع بينهما بافتراض أن كلا الحيين أثخن في الآخر ، أو بأن الحرب فيه كانت على أيام ، مرة لهم ومرة عليهم ، ونحن نستطيع أن نقبل هذا الرأي إذا سقنا عبارة ابن الأثير : (فاقتتلوا قتالاً شديداً كان أشد قتال بينهم) ، فيوم الربيع كان إذن أشد من الحروب التي سبقته ، وفي ذلك فرصة لأن ينال كل جانب من الآخر بغيته ويثخن فيه ، ويجد منه بعد ذلك شعراء الحيين ما يُفخر به . بالإضافة إلى أن طابع شعر الحرب عند الجاهليين بعامة قائم على الدعاية والإعلام والتطاول والمبالغة ، وإلا فكيف يقبل من عمرو بن كلثوم التغلبي ـ مثلاً ـ أن يقول :

إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ ... تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا
ملأنا البرّ حتى ضاق عنا ... وظَهْر البحر نملؤه سفينا

قالوا : وانتهت هذه الحرب بافتداء القتلى والصلح بين الحيين . وقال فيها أحد شعراء الخزرج ، وهو صخر بن سليمان البياضي[1] :

ألا أبلغا عني سويد بن صامت ... ورهطَ سويد بلِّغا وابنَ الأسلت[2]
بأنا قتلنا بالربيع سَراتَكمْ ... وأفلتَ مجروحاً به كُلُّ مُفْلَتِ
فلولا حقوق في العشيرة إنها ... أدَلَّت بحق واجب إن أدلَّتِ[3]
لنَالَهمُ منّا كما كانَ نالَهمْ ... مقانبُ خيلٍ أهلكتْ حين حلَّتِ[4]

---

(١) ابن الأثير ١ : ٤١٢ .

(٢) سويد بن صامت وأبو قيس بن الأسلت ورد الحديث عنهما في موضع سابق .

(٣) أدل : وثق بمحبته ، وامتنّ ، وتجرأ .

(٤) مقانب : واحدها مِقْنَب : جماعة من الفرسان والخيل دون المائة تجتمع للغارة .

فأجابه سويد :

ألا أبلغـــا عني صخيراً رســـالـــةً فقد ذقتَ حربَ الأوس فيها ابنُ الأسلت

قتلنـــا سرايـــاكم بقتـــل سراتنـــا وليس الـــذي ينجـــو إليكم بمُفلَت

وقال فيها غيرهما مما سنذكره في فصول الباب الثاني إن شاء الله .

٦ ـ حرب فارع :

فارع هو أحد الآطام المشهورة في يثرب ، كان لبني مغالة ، ابتناه ثـابت بن المنـذر بن حرام ، والـد الشـاعر حسـان بن ثـابت ، وكان غربي الحرم النبـوي ثم أدخل فيه ، وفيه يقول حسان :

أرقتُ لتَـوْمـاض البروق اللـوامـع ونحن نَشَـاوى بين سَلْـع وفـــارع

ولئن كانت هذه الحرب تمثل حلقة في سلسلة حروب الأوس والخزرج ، التي تتالت منذ أشعل فتيلتها سُمير بن زيد في سوق العصبة ، فإن السبب المبـاشر ليوم فارع هو أن رجلاً بلوياً كان جاراً لمعـاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي والـد الصحابي الجليل سعد بن معاذ ، أتـاه ابن أخ لـه يزوره ، فعنّ لبعض بني النجـار إهانته ، ولم يكتف بذلك بل تجرأ عليه وقتلـه ، ولـما سمع بـذلـك معـاذ استشـاط غضباً ، وأرسل إلى بني النجار : أن ادفعوا إليّ دية جـاري ، أو أرسلوا إلي بقـاتلـه أقتص منـه ، فرفضـوا أن يـدفعـوا لـه الـديـة ، وفي الـوقت نفســه لم يمكنـوه من القـاتل ، وهو وضع أشبـه مـا يكون بـالوضع الـذي سبـق حرب سمير . ولم يرض ذلـك الأوس ، وقـال رجـل من بني عبـد الأشهـل قـوم معـاذ : والله إن لم تفعلـوا لا نقتـل بـه إلا عمرو بن الإطنـابـة ، وعمرو بن الإطنـابـة ـ كما تعلم ـ من أشراف الخزرج ، وممن تملـك على الحيين وسـاد فيهما ، وحمـل لقب ملـك الحجـاز ، ولكن

العصبية الجاهلية عمياء لا تعرف المكانات ، ولا ترعى الحرمات ، وإنما تؤمن بالثارات والتِّرات ، فبلغ ذلك عَمْراً فقال أبياته الشهيرة التي مطلعها[1] :

ألا مَنْ يبلغُ الأكفاءَ عنا	وقد تُهْدَى النصيحةُ للنصيح
فإنكمُ وما ترجُون شَطْري	من القول المزجَّى والصريح
سيندم بعضُكم عجِلاً عليه	وما أثرُ اللسان إلى الجريح
.... إلخ	

فقال الربيع بن أبي الحقيق[2] اليهودي يرد على قول ابن الإطنابة ، وهو من أحلاف الأوس :

ألا من يبلغُ الأكفاءَ عني	فلا ظلمٌ لديّ ولا افتراءُ
فلست بغائظِ الأكفاء ظلماً	وعندي للملمات اجتزاءُ

فلما رأى معاذ بن النعمان تصميم بني النجار على موقفهم تهيأ لحربهم وتجهز بقومه لقتالهم ، والتحم الحيان عند فارع ، ولم تنته الحرب بينهم إلا بعد أن تدخل عمرو بن الإطنابة نفسه وحقن الدماء بحكمته ، فتحمل دية القتيل ، وأصلح بين الحيين ، ولعل أيام رئاسته الفعلية على الحيين واتخاذه التاج ومناداة الناس له بلقب ملك الحجاز ، كانت بعد موقفه هذا ، وقال عمرو بن الإطنابة يفخر بنفسه وبقومه :

صرمتْ ظليمةُ خَلّتي ومَراسلي	وتباعدتْ ضنّاً بزاد الراحل
جَهْلاً وما تدري ظليمةُ أنني	قد أستقلُّ بصَرْمِ غيرِ الواصل
.... إلخ	

---

(١) ابن الأثير ١ : ٤٠٩ .

(٢) المرجع السابق .

وهكذا انتهت الحرب لتبدأ حرب أخرى شأن البيئات غير المحكومة بقانون أو نظام تحميه دولة قوية آمرة ناهية ، وهو ما لم يتحقق ليثرب في العصر الجاهلي .

٧ ـ حرب حاطب (٦٠٤ م) :

إذا كان ابن الأثير جزم بكثير من الأمور حول هذه الحرب من حروب الأوس والخزرج فإن ذلك الجزم فارقه في بعض الجوانب الأخرى .

جزم بأنها سميت باسم حاطب بن قيس[١] ، من بني أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسي ، أحد سادة الأوس في زمانه وأشرافهم المعدودين وشعرائهم المعروفين[٢] ، الذي حمى جاره الذبياني ، ووقف من دونه .

وجزم كذلك بأن الفاصل الزمني بين حرب حاطب وسُمير مائة سنة ، وأنها آخر حروبهم إلا يوم بُعاث .

وجزم أيضاً بإسهام الشاعر يزيد بن فُسْحم الخزرجي فيها ، وذلك بعدوانه على جار حاطب ثم قيامه بقتل أحد بني معاوية من الأوس ، وأن الظفر كان للخزرج على الأوس .

لكننا مع جزمه في هذه الأمور ، نجد كلامه غير واضح بالنسبة لإدخال بعض أيامهم في هذه الحرب ، فقد اضطرب في ذلك كما اضطرب غيره ، وهذه الأيام هي : يوم مضرِّس ومعبِّس ، ويوم الجسر ، ويوم الرِّعل ، ويوم الغُرْس ، ويوم الحديقة ، ويوم الربيع ، ويوم الفِجار الأول ، ويوم الفِجار الثاني ، ويوم البقيع .

---

(١) ابن الأثير ١ : ٤١١ ـ ٤١٢ .

(٢) الأمالى لأبي علي القالي ٢ : ١٤٧ .

هل هذه الأيام حروب مستقلة ؟ أو أنها أيام من حرب حاطب ؟ أو أن بعضها مستقل والآخر جزء منها ؟

ولأجل هذا سمحت لنفسي أن أتخذ رأياً أقلل فيه من هذا الاضطراب ، وأؤكد فيه عبارة ابن الأثير : (وحرب حاطب آخر وقعة كانت بينهم إلا يوم بُعاث) ، لأنها أصرح في نظري من الاعتماد على الترتيب الذي التزمه في ذكر حروبهم حسب زمانها وإلا فهو قد ذكر مضرِّس ومعبِّس ، والفجار الأول والثاني - مثلاً - بعد ذكره ليوم حاطب .

فأنا أرجح إذن أن كل ما ذكرناه قبل قليل من أيام ، داخل في حرب حاطب - ما عدا يوم الربيع - وذلك على النحو التالي :

أ - يوم الغُرْس : ويسمى أيضاً يوم الحديقة[1] أو الحدائق ، كما يسمى أيضاً يوم الدُّرَيْك .

ب - يوم البقيع .

جـ - يوم الفجار الأول .

د - يوم مضرِّس ومعبِّس : ويسمى أيضاً يوم الجسر ، ويوم الرعل ، ويوم الفِجار الثاني ، وهو بعد الفِجار الأول .

أما يوم الربيع فقد رجحنا في موضع آخر أنه يوم مستقل ، سابق ليوم حاطب بزمن ليس بالقصير .

ونعود لسياق الكلام عن حرب حاطب وسببها المباشر ، بعد اقتناعنا بالصورة التي تمت عليها ، فنقول : إن الرجل الذبياني الذي أجاره حاطب[2]

---

(١) ديوان ابن الخطيم ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٧ والمرجع السابق وأيام العرب في الجاهلية ص ٧٢ .

ونزل عليه ضيفاً ، غدا يوماً إلى سوق بني قينقاع (سوق الجسر) ورآه الشاعر يزيد بن فسحم ، وهو من بني الحارث بن الخزرج ، وكان فيما يبدو رجلاً عابثاً أو شاباً طائشاً أو من الحاقدين على الأوس ، وكان بنو قينقاع من أحلاف الخزرج ، فقال لرجل من اليهود : لك ردائي إن كسعْتَ[1] هذا الذبياني ، فأخذ اليهودي منه الرداء وكسع الذبياني كسعة سمعها من بالسوق ، فنادى الذبياني : يا لَحاطب .! كُسع ضيفك وفضح . فلم يلبث أن سمع حاطب بالخبر ، فأقبل مسرعاً إليه وسأله : من كسعك ؟ فأشار إلى اليهودي ، فاستل حاطب سيفه ، وضرب به اليهودي ضربة فلق بها هامته ، وبلغ نبأ ذلك يزيد بن فسحم ، فأسرع خلف حاطب يريد قتله ، فلم يستطع إدراكه ، لأنه كان قد دخل بيوت أهله ، ووجد أمامه رجلاً من بني معاوية من الأوس فقتله بدلاً من حاطب وثأر لصاحبه اليهودي ، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج ، واحتشد الجمعان بالحدائق ، وعلى الخزرج يومئذ عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وعلى الأوس أبو قيس بن الأسلت . وعلم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، وخيار بن مالك ، الفزاريان بالأمر ، فقدما يثرب يحاولان إنهاء هذه الحرب قبل استفحالها بين الحيين ، فتحدثا مع الجانبين حديث الناصح المنبه إلى مخاطر الحروب وشرورها ، وضمنا لتحقيق ما ندبا نفسيهما له ، أن يتحملا كل ما يدعي بعضهم على بعض من حقوق وديات ، فأبوا ورفضوا النصح والوساطة ورجع خيار وعيينة خائبين لم يوفقا فيما جاءا إليه .

أ ـ يوم الغُرْس :

ووقعت الحرب في الحدائق أو الحديقة ، وهي من ضواحي المدينة وظواهرها ، ولم يُعْن القدماء بتحديد مكانها ، إلا أنهم قالوا كلاماً أستبعد صحته كل الاستبعاد فقد قال ياقوت : إنها قرية من أعراض المدينة في طريق مكة ،

---

(١) كسعتَ : ضربتَ دُبُرَه بيدك أو بصدر قدمك .

كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام ، وإياها أراد قيس بن الخطيم بقوله :

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كأنّ يدي بالسيف مخراقُ لاعب

والذي يبدو لي أنها كانت غير بعيدة من الفضاء ، وهو كما حددناه في كلام سابق : بين بئر بني سالم وقباء ، وليست ببعيدة منها أيضاً بئر الدريك التي وردت أيضاً في شعر ابن الخطيم حين قال :

كأنّا وقد أجْلَوا لنا عن نسائهم أسودٌ لها في غيل بيشة أشبلُ
ببئر الدُّرَيْك ، فاستعِدّوا لمثلها وأصْغُوا لها آذانكم وتأمّلوا

ولهذا سمّى بعضهم هذه الحرب حرب الدُّرَيْك . كما أنها ليست بعيدة عن بئر الغُرْس[1] (بضم الغين المعجمة وتفتح ، وسكون الراء) وهي بئر بقباء[2] تقع شرقي مسجد قباء على نحو نصف ميل إلى جهة الشمال ، ولهذا وسمت هذه الحرب بها أيضاً ، حيث أطلقوا عليها اسم الغُرْس ، كما أن بني أمية قوم حاطب وبني الحارث قوم يزيد بن فُسْحم لم تكن مساكنهم ببعيدة عما حددناه ، فالأشبه إذن أن تكون الحديقة أو الحدائق ما بين قباء والآبار التي ذكرنا ، وهو الذي يمكن قبوله عقلاً ، أما أن يتواعدا في قرية خارجة عن نطاق يثرب ، فهو ما لا يستسيغه التفكير أو المقاييس المعهودة منهم .

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه ما أورده السمهودي[3] : أن رسول الله ﷺ حين دخوله المدينة مهاجراً مرّ ببني سالم بن عوف من الخزرج ، فقام إليه عتبان بن

---

(١) الغرس : الفسيل ، والشجر الذي يغرس .
(٢) عمدة الأخبار ص ٢٦٨ .
(٣) الوفاء ١ : ١٨٣ ، والحلقة : الدروع والسلاح .

مالك ، ونوفل بن عبد الله بن مالك بن العجلان وهو آخذ بزمام راحلته يقول : يا رسول الله ... انزل فينا ، فإن فينا العدد والعدة والحلقة ، ونحن أصحاب الفضاء والحدائق والدَّرْك ، يا رسول الله ... قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة[1] خائفاً ، فيلجأ إليها ، فنقول له : قوقل حيث شئت[2] .

وقال قيس بن الخطيم في يوم الحديقة مذهبته الشهيرة[3] :

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب ... لِعَمْرَةَ وحْشاً غيرَ موقفِ راكب
ديارَ التي كادتْ ـ ونحن على منى ـ ... تُحِلُّ بنا لولا نَجَاءُ الركائب

وإذا كان ابن الخطيم في الواقع قال هذه القصيدة بعد حرب بُعاث وهو لم يحضرها ، فإننا رأينا أن نشير إليها هنا لما ورد فيها من ذكر ليوم الحديقة أحد أيام حرب حاطب :

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً ... كأنّ يدي بالسيف مخراقُ لاعب

لأنه اشترك فيها واصطلى بنارها ، فقد كان في هذا اليوم عائداً من حائط له ، فوافق قومه قد برزوا لقتال الخزرج فلم يتردد في الاشتراك معهم ، بل عجَّل في الانضمام لهم دون أن يأخذ الأهبة الكاملة ، ومع ذلك فقد أبلى بلاء حسناً ، وجرح يومها جرحاً شديداً بقي يتداوى منه زمناً طويلاً ، وأُمِر أن يحتمي عن الماء ، وهو ما أشار إليه عبد الله بن رواحة في رده عليه :

رميناك أيام الفجار فلم تَزَلْ ... حميّاً فمن يشرب فلستَ بشارب

---

(١) البحرة : الأرض ، والقرية ، والمقصود هنا : المدينة نفسها ، فمن أسمائها البحرة والبحيرة .

(٢) قوقل : تنقل حيث شئت .

(٣) الجمهرة ص ٢٢٧ والخصائص ١ : ٩٦ وأمالي المرتضى ١ : ٣٣ والمنازل والديار ص ٨١ والديوان ص ٧٦ .

ب ـ يوم البقيع :

وبعد يوم الحديقة (أو الدُّرَيْك أو الحدائق أو الغُرْس) التقى الحيان ببقيع الغرقد ، واقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بظفر الأوس ، فقال عبيد بن نافذ الأوسي[1] :

لمـــا رأيتُ بني عـــوف وجمعَهُمَ ... جاؤوا ، وجمْعَ بني النجار قد حفلوا
دعوتُ قومي وسهَّلتُ الطريــق لهم ... إلى المكان الـذي أصحـابُـهُ حُلَـل
.... إلـــــــخ

فأجابه ابن رواحة الحارثي الخزرجي :

لمـــا رأيت بني عـوْف وإخــوتَهمْ ... كعباً وجمعَ بني النجـار قـد حفلوا
قومـاً أباحـوا حمـاكْ بـالسيوف ولم ... يَفعلْ بكم أحـدٌ مثلَ الـذي فعلـوا

وكان رئيس الأوس في حرب حاطب ـ كما سبق أن ذكرنـا ـ الشـاعر أبو قيس بن الأسلت الوائلي ، فقام بها أحسن قيام ، وترك راحته وهجر لذاته ، بل ترك الدار والأهل ، فلم يعد يسمح لنفسه بالذهاب إلى داره أو مقابلة زوجته ، فهو ما بين إزجاء جمع ، وقيادة راية ، وما بين حمحمة أجرد وصلصلة سيف أو تشابك رماح . ونذر ألا يشرب خمراً ولا يلمس ماء أو طيباً حتى يحقق لقومه النصر ، فشحب لونه وتغيرت سحنته ، وجاء يوماً إلى امرأته كبشة بنت ضمير بن مالك بن عدي فأنكرته وكادت تقفل الباب في وجهه ، ولم تعرفه إلا من صوته ، فقالت له : لقد أنكرتك[2] حتى تكلمت فقال عينيته الشهيرة التي منها :

---

(١) ابن الأثير ١ : ٤١٣ .

(٢) المرجع السابق والتنبيه للبكري ص ٣٣ وديوان ابن الأسلت ص ٧٨ .

من يـــذُقِ الحربَ يجـــدْ طعمَهـــا   مُرّاً ، وتحبسْــــــه بجَعْجـــــاع[1]
قـــد حصَّتِ البيضـــة رأسي فمـــا   أطعَمُ نـــومـــاً غير تَهجـــاع[2]

ولم تنته حرب حاطب بانتهاء يوم البقيع ، لكن أبا قيس هو الذي تنازل عن رئاسة قومه ، فترأسهم بعده حضير الكتائب . وتصالح الحيَّان على أن يحسبوا القتلى ، فمن كان عليه الفضل أعطى الدية ، فأفضلت الأوس على الخزرج ثلاثة أنفار ، فدفعت الخزرج ثلاثة غلمة رهناً بالديات ، فغدرت الأوس فقتلت الغلمان .

جـ - يوم الفجار الأول :

ليس هو بفجار كنانة وقيس[3] ، كما يتبادر إلى الذهن ، بل هو يوم من أيام الأوس والخزرج التي توالت في حرب حاطب ، وسمي كذلك لغدر الأوس بالغلمان في أعقاب يوم بقيع الغرقد ، وقد تكون هذه التسمية مجرد تلقيب ليوم البقيع ، وليست يوماً بعينه . وقد رأينا ذكر اسمه في شعر ابن رواحة في قوله :

ومينـــاك أيـــام الفِجـــار فلم تـــزل   حميّـــاً فمن يشرب فلست بشـــارب

---

(١) ابن الأثير ١ : ٤١٣ .
(٢) المرجع السابق والتنبيه للبكري ص ٣٣ وديوان ابن الأسلت ص ٧٨ .
(١) الجعجاع : الموضع الضيق الخشن .
(٢) الحَصّ : حلق البشرة ، والتهجاع : النومة الخفيفة .
(٣) قال الميداني في مجمع الأمثال (٢ : ٤٣٢) : أيام الفجار أربعة أفجرة : الأول بين كنانة وعجُز هوازن . والثاني : بين قريش وكنانة . والثالث : بين كنانة وبني نصر بن معاوية . والرابع وهو الأكبر : بين قريش وهوازن ، بينه وبين مبعث الرسول ﷺ ست وعشرون سنة ، وقد شهده وهو ابن أربع عشرة سنة ، وسمت قريش هذه الحرب فجاراً ، لأنها كانت في الأشهر الحرم ، ويلاحظ أنه لم يذكر من بين هذه الأيام فجار الأوس والخزرج ، ولعل ذلك يرجع في تقديرنا إلى عدم شهرتها أو إلى أن إطلاق الفجار على بعض حروبهم كان إطلاقاً محلياً ، دفعهم إليه ما حدث فيها من شناعة ، تشبيهاً لها بتلك الأيام المشهورة .

د ـ يوم مضرس ومعبّس :

والتقى الحيان بعد ذلك عند حائطي : مضرِّس ومعبِّس بزنة محدِّث ، وهما حائطان كانا لرجل يُدعى دُحَيْنة أو دُحَيّة ، قريبان من آطام بني عدي بن النجار ، والمضرِّس هو : الأسد الذي يمضغ لحمَ فريسته ولا يبتلعه . ونشبت بينهما حرب في هذا المكان حملت اسم الحائطين المذكورين ، استغرقت عدة أيام ، كانت الحرب فيها سجالاً ، ثم انهزمت الأوس حتى دخلت البيوت والآطام ، وكانت هزيمة منكرة لم ينهزموا مثلها ، فلجأ بعضهم إلى المصالحة والموادعة ، وهم بنو عمرو بن عوف ، وبنو أوس مناة ، وامتنع آخرون كبني عبد الأشهل ، وبني ظفر ، وغيرهم من الأوس ، وقالوا : لا نصالح حتى ندرك ثأرنا من الخزرج ، وكان على الأوس حضير بن سماك ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، فركز الخزرج غاراتهم عليهم ، وخصوهم بالهجومات العنيفة . وأغارت بنو سلمة على مال لبني عبد الأشهل يقال له : الرِّعل ، وجرى بينهم قتال شديد جرح فيه سعد بن معاذ الأشهلي جراحاً عميقة ، فاحتمله بنو سلمة إلى عمرو بن الجموح الخزرجي فأجاره ، وأجار الرّعل من الحريق وقطع الأشجار ، وقد رعى سعد بن معاذ هذا الموقف لابن الجموح يوم بعاث .

وبعد توالي الهزائم الشنيعة على الأوس قرر كثير منهم ممن لم يدخلوا في الصلح مع الخزرج أن ينتقلوا من يثرب إلى أي مكان آخر يجدون في أرجائه الاستقرار والطمأنينة ويحفظ عليهم كرامتهم ، وكان أول مكان توجهوا إليه هو مكة ، فأظهروا أنهم يريدون العمرة وهم إنما خرجوا لطلب الحلف من قريش على الخزرج ، وكانت عادتهم أنه إذا أراد أحدهم العمرة أو الحج ، لم يعترض خصمه طريقه ، ولم ينله بشر ، كما لا ينال من ماله الذي تركه وراءه شيئاً ، ويعلق المعتمر على بيته كرانيف النخل فتعلم وجهته فلا يتعرض له ولا لبيته أحد حتى

يعود . ففعل الأوس ذلك وساروا إلى مكة ، وأخذوا يفاوضون قريشاً في الحلف ، وقبل القرشيون محالفتهم ، وفرح الأوس بذلك فرحاً كبيراً ، وراحوا يحلمون بالنصر على الخزرج والظفر بهم ، وكان أبو جهل غائباً عن الحلف فلما قدم أنكره ، وقال لقريش : أما سمعتم قول القائل : ويل للآهل من النازل ، إنهم لأهل عدد وجلد ، ولقلما نزل قوم على قوم إلا أخرجوهم من بلادهم وغلبوهم عليها ، قالوا : فما المخرج من حلفهم ؟ قال : أنا أكفيكموهم ، ثم خرج وأبطل الحلف بحيلة تتصل بموقف القرشيين من النساء بطريقة لا يرتضيها اليثربيون .
وقال حسان[1] يفتخر بانتصار الخزرج في هذا اليوم :

ألا أبلغ أبا قيس رسولاً ... إذا ألقى له سمعاً تبين
يوم نسيتَ الجسر يوم أبي عقيل ... وعندك من وقائعنا يقين

وقال ابن الخطيم[2] :

ألمَّ خيال ليلى أمَّ عمرو ... ولم يُلْمِمْ بنا إلا لأمْرِ
تقول ظعينتي لما استقلَّتْ ... أتترُك ما جمعتَ صريمَ سَحْرِ
.... إلخ

فردّ عليه ابن رواحة :

كذبت لقد أقمتَ بها ذليلاً ... تُقيم على الهوان بها وتسري

وهكذا انتهت حروب يوم حاطب بهزيمة الأوس أمام الخزرج هزيمة نكراء ، لم يستنقذهم منها بعد ذلك غير يوم بعاث .

(١) ابن الأثير ١ : ٤١٥ والديوان ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥ .
(٢) الديوان : ص ١٨١ وتاريخ النقائض ص ٨٨ وديوان ابن رواحة ص ٩٦ .

٨ ـ يوم بعاث (٦١٧ م) :

هو بالعين المهملة ، ولا نظر لمن ضبطه بالغين المعجمة ، لأنه مجرد تصحيف وفي اللسان : إنه اسم حصن من حصون الأوس ، ويذكر ياقوت أن بعضهم يرى : إنه كان مالاً من أموال بني قريظة ، فيه مزرعة تسمى قُورى (بألف مقصورة) .

والشريف العياشي يقول[١] : إنه اليوم مزرعة معروفة باسم المبعوث ، واقعة جنوب منطقة العُريض على أكثر من ثلاثة أكيال من المسجد النبوي في خط المسجد الشرقي ، ثم يذكر أنه وجد حصناً في قاع فسيح يرجح أنه هو ، وتقع منازل بني حارثة من الأوس في شماله ، ومنازل بني عبد الأشهل من الأوس أيضاً في غربه ، وبنو قريظة في جنوبه الغربي . ورأي العياشي هذا يفسِّر موقف اضطراب الرواة في نسبته مرة إلى الأوس ومرة لبني قريظة ، وتحديد العياشي أضبط تحديد رأيته لهذا المكان ، فقد شاهدت بقية هذا الحصن بنفسي وصعدت إلى بعض جوانبه . ومن الغريب أن يجعل بعضهم[٢] بعاث على ليلتين من المدينة ، كالبكري . ونحن نعلم أن المرحلة عبارة عن ٤٥ كيلاً ، فيصير بعاث على قول البكري بعيداً عن المدينة بمسافة قدرها تسعون كيلاً وهو ما لا يتصور ، ولا يقبل أن تتم فيه حرب بين الأوس والخزرج .

ولم تكن حرب بعاث إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج وأفسدت عليهم استقرارهم ، وحرمتهم من فرصة التفرغ للبناء والتعمير ، والأخذ بأسباب الحضارة .

---

(١) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٣٩٩ .

(٢) معجم ما استعجم ١ : ٢٥٩ .

رجع الأوس من عمرتهم خائبين ، لأنهم لم يفلحوا في إقناع قريش بمحالفتهم ومناصرتهم على الخزرج ، وكادوا يسلّمون بالأمر الواقع ، ويلقوا السلاح ويُعطوا السيادة للخزرج ، ولكن اليهود لم يحْلُ لهم انتهاء الصراع على هذه الصورة ، فعمِلوا خلال الثلاث عشرة أو الأربع عشرة سنة من الهدنة على إشعال نار الحرب بين الحيين مرة أخرى ، وعرضت قريظة والنضير الحلف على الأوس لكي تقوّيا عزمهم على محاربة الخزرج ، وصادف ذلك العرض هوى في نفوس الأوس ، فقبلوا به ، وعقدوا عليه الآمال في استرجاع هيبتهم ومكانتهم بيثرب .

يوم الفجار الثاني :

كان تصفية لحساب يوم حاطب ، وإرهاصاً أو فتيلة لإشعال حرب بعاث ، فلما سمع الخزرج بتحالف اليهود مع الأوس ضدهم ، أرسلوا إلى اليهود يؤذنونهم بالحرب إن لم يتخلّوا عن هذا الحلف ، وأن مصيرهم لن يكون أفضل من مصير إخوتهم الأوس ، فانخلعت قلوب اليهود لهذا التهديد ، وأسرعوا إلى الخزرج يؤكدون لهم تخليهم عن الحلف ، فلم يقبل الخزرج منهم ذلك الكلام إلا برهائن تبقى لديهم ، يقتلونهم إن ثبت تعاونهم مع الأوس ، فبعثوا إليهم بأربعين غلاماً منهم ، ففرّقهم الخزرج في دورهم ، ثم إن أحد الخزارج سكر يوماً ثم جلس يتغنى بشعر ذكر فيه ذلة الأوس واليهود ، ومنه :

هلمَّ إلى الأحـلاف إذ رقَّ عظمُهمْ ... وإذ أصلحوا مالاً بُجذمان ضائعا
إذا ما امرؤ منهم أساء عمارةً ... بعثنا عليهم من ذوي العير جادعا

فبلغ غناؤه اليهود فغضبوا ، وقال كعب بن أسد القرظي : نحن كما قال إن لم نغز ، وحمل كعب قومه على محالفة الأوس ، فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كل من عندهم من الرهن من أولاد قريظة والنضير ، ونشبت الحرب بين الأحلاف

والخزرج واشتد القتال بينهم ، وسميت تلك الحرب بالفجار الثاني ، وذلك لقتل الغلمان من اليهود .

مواصلة الحرب في بعاث :

ثم إن عمرو بن النعمان البياضي قال لقومه بني بياضة : إن أباكم أنزلكم منزل سوء ، بين سبخة ومفازة ، وأقسم ألا يمس رأسه غسل حتى ينزلهم منازل بني قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل ، ثم أرسل إلى اليهود ينذرهم بتخلية ديارهم لينزل فيها قومه ، وإلا فليس بينه وبينهم سوى الحرب ، وقيل : إن تهديده لهم كان بقتل الرهن من الغلمان التي سبق أن ذكرناها . فرفض اليهود ذلك ، فقتلت الخزرج رُهنها من اليهود ، وأبى عبد الله بن أبيّ ، وقال : هذا عقوق ومأثم وبغي لا أعين عليه . واستعرت الأحقاد وامتلأت النفوس غيظاً وكمداً ، فاجتمع الأوس وبنو قريظة والنضير على حرب الخزرج حتى لم يتخلف منهم أحد ، لقد بالغ الخزرج في إهانتهم وغطرستهم وطغيانهم ، فليس من بد من محاربتهم ، فإما حياة شريفة كريمة وإما ممات لا قيامة بعده . يشهد بفضله الأعداء بَلْه الأصدقاء .

واجتمع الخزرج عند عُبد الله بن أبيّ يقررون شأن الحرب ويتوعدون الأوس وحلفاءهم اليهود بالفناء التام ، فلم يوافقهم عبد الله وقال لهم : إن هذا بغي منكم على قومكم وعقوق ، فإن كان لا بد من الحرب ، فقاتلوا قومكم كما كانوا يقاتلونكم فإذا ولّوْا فخلوا عنهم . وحذرهم مغبة الانسياق وراء عواطفهم ، فقال له عمرو بن النعمان البياضي : انتفخ والله سحْرك يا أبا الحارث حين بلغك حلف الأوس وقريظة والنضير .. فقال عبد الله : والله لا حضرتكم أبداً ، ولكأني أنظر إليك قتيلاً يحملك أربعة في عباءة إلى مثواك الأخير .

ولم يتـابـع ابنَ أبيّ في رأيــه سـوى نفر قليـل من الخـزرج ، وتـولى عمرو بن النعمان أمر الخزرج ، واستغرق الاستعداد لهـذه الحرب من الطرفين أربعين ليلـة ، وجمع كل واحد منهم حلفـاءه من العرب ، فـأرسلت الخزرج إلى جهينـة وأشجع ، وأرسلت الأوس إلى مزينة ، وجمع حضير الكتائب قومـه من الأوس وخطب فيهم يحرضهم على الاستماتـة في الحرب ، ويـذكرهم مـا فعلت بهم الخـزرج ، حتى قــال قـائلهم : والله لئن ظفرنـا بـالخزرج لم نبق منهم أحـداً ، فقـال حضير : يـا معشر الأوس .. إنكم ما سميتم الأوس إلا لأنكم تؤوسون الأمور الواسعة وتعالجونها .

يـــا قـــوم قــــــد أصبحتمُ دوارا   لمعشرٍ قـــــد قَتلــوا الخيـــــارا

يوشِك أن يستأصِلوا الدّيارا

ثم أشـار عليهم بـأن يعقـدوا اللـواء لأبي قيس بن الأسلت ، ولكن أبــا قيس اعتذر ولم يقبل القيـادة ، فـأعطيت القيـادة لحضير الكتـائب ، واتفقوا ألا يكفوا عن قتـل الخـزرج إن هم ظفروا حتى يقـول الخـزرج : بـزابـز ، وهي كلمـة كانـوا يقولونها إذا غُلبوا .

وكان اللقـاء ببعـاث ، فلمــا رأت الأوس الخـزرج وقـع في نفـوسهم شيء من الرعب وأعظموهم ، وقالوا لحضير : يا أبا أُسَيْد ... لو حاجزت القوم وأرسلت إلى من تخلف من حلفائنا من مزينة ، فطرح قوساً كانت في يده ، ثم قـال غـاضبـاً : أتريـدون مني أن أنتظر مزينـة بعـد أن نظر إليَّ القـوم ونظرتُ إليهم .. والله إن الموت أحب إليّ من ذلـك . والتحم الحيـان بشـدة وعنف ، وسرعـان مـا انهـزمت الأوس وولوا مصعـدين في حرة قُـورَى[1] ، فصـاحت بهم الخـزرج : أين الفرار ؟ فلمـا سمع حضير ذلـك نـزل وطعن فخـذه بسنـان رمحـه وصـاح : واعَقْراه .. والله

---

(١) قورى : موضع قرب بعاث . قال قيس بن الخطيم :

تركنـــا بُعـــاثــاً يـوم ذلـــك منهمُ   وقــورى على رغم شبــاعــاً سبــاعُهــا

لا أبرح مكاني حتى أقتل ، فإن شئتم يـا معشر الأوس أن تسلموا رئيسكم فـافعلوا . فتعطفت عليه الأوس وعادوا للحرب من جديد ، وقام على رأسه غلامـان من بني عبد الأشهل جعلا يرتجزان :

أيُّ غـــلامَيْ ملِـــــك ترانـــــا   في الحرب إذ دارت بنـــا رحـــانـــا

وعدّه الناس لنا مكانا

وكان الغـلامـان ذوي بطش ومصـاولـة ، فقـاتـلا حتى قتـلا . وأصـاب سهم طائش لا يُعرَفُ مـأتـاه عمرو بن النعمان البيـاضي رئيس الخزرج فـأرداه قتيلاً . فتخلخلت صفوف الخزرج وانهزمت دون نظـام ووضعت الأوس فيهـا السـلاح ، وصاح صائح : يا معشر الأوس اسجحوا ولا تهلكوا إخوتكم ، فإنهم والله أفضل لكم من مجاورة الثعـالب ـ يعني اليهود ـ . فـأصغى الأوس إلى الصوت وكفوا ، ولكن قريظـة والنضير انطلقوا بـدافع حقـدهم اليهودي في الخزرج سلبـاً ونهبـاً ، وحملت الأوس حضيراً من الجراح التي به ، وهم يرتجزون :

كتيبــــة زَيَّنَهــــا مــولاهـــا   لا كهلُهـــا هُـــدَّ ولا فتـــاهـــا

وأجـار سعـد بن معـاذ الأشهلي بني سلمـة وحمى أموالهم من الإحراق ، جـزاء موقف سيد بني سلمة عمرو بن الجموح منه يوم الرّعل .

وخرج حضير الكتائب وأبو عمرو الراهب إلى أبي قيس بن الأسلت ، فقال له حضير : يـا أبـا قيس ... إن رأيت أن نـأتي الخـزرج قصراً قصراً وداراً داراً نقتـل ونهدم حتى لا نبقي منهم أحداً .. فقـال أبو قيس ـ وكان رجلاً عـاقلاً وحليمـاً ـ : والله لا نفعل ذلك .

ومات حضير بعد ذلك متأثراً بجراحه فقال شاعر بني سُليم خفاف بن نـدبـة يرثيه حين وصله الخبر وهو في قومه :

أتـــاني حـــديث فكـــذّبتُـــه وقيـــل : خليلُـــك في المَرْمَس
فيـــا عينُ بكّي حضيرَ النَّـــدَى حضيرَ الكتـــــائب والمجلس
ويـومٌ شـديـدٌ أُوارِ الحـديـد تَقطَّـع منـــه عُرى الأنفس
صَلِيتَ بـه وعليـك الحـديـد مـــا بيْن سَلْـع إلى الأعرس[1]
فـأودى بنفسـك يـوم الـوغى ونقَّى ثيـابَـك لم تَـدْنَس

واستعـان اليهود بعد هـذا اليوم مكانتهم بيثرب ، ورأى المنتصر والمهزوم من الحيين سوء مـا صنعـوا ، وتطلعـوا إلى إقـامـة ملـك عليهم ، واختـاروا لـذلـك عبـد الله بن أبيّ بن سلول من الخـزرج المهـزومـة ، لمكانتـه وحسن رأيـه ، وعـدم اشتراكـه في حرب بعـاث ، لكنّ تطـوُّر الأحـوال تطـوراً سريعـاً حـال دون ما أرادوا ، وذلك لبدء الإسلام بيثرب .

وعن عائشة قالت[2] : كان يوم بُعاث يوماً قـدَّمـه الله لرسولـه ﷺ ، فقـدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملأهم وقتلت سرواتهم ، وجرحوا ، فقـدّمـه الله لرسولـه ﷺ لتسهيل دخولهم في الإسلام ، وقد كان بعاث قبل مقـدمـه ﷺ يثرب بخمس سنوات ، بل إن بعض أهل يثرب تسلل الإيمـان إلى قلوبهم قبل يوم بعـاث ، مثل إياس بن معاذ الأشهلي الذي كان مع أبي الحيسر أنس بن رافع حين جاء إلى مكـة قبل بعاث يطلب الحلف من قريش ، وسمع بهم الرسول ﷺ فأتـاهم وجلس معهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حـدثـاً : أيْ قومي .. هذا والله خير مما جئتم فيه . وخالط الإسلام نفسـه فـأسلم ، وبـذلـك كانت له أسبقية لم يظفر بها أحد من قومه ، أكرمه الله بها وخصه ، رضي الله عنـه وأرضاه .

---

(١) الأعرس : اسم موضع بالمدينة .
(٢) معجم ما استعجم ١ : ٢٢٩ .

وكان بُعاث آخر الحروب بين الأوس والخزرج ، ثم جاء الإسلام والتقت الكلمة واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله ، فسموا لذلك الأنصار .

أما الأشعار التي قيلت في يوم بعاث فكثيرة ، وسنوردها في كلامنا عن الشعر اليثربي .

هذا هو شأن تلك الحروب ، سارت بين اللين والشدة ، والعنف والمهادنة ، وكثيراً ما نراهم يذكرون بالقربى والرحم ، ويحاول عقلاؤهم أن يذكروهم بالحرب وشرورها ، ثم هم قد يفلحون في إخمادها كما فعل ابن الإطنابة في حقن الدماء بتحمل الديات ، وقد لا يفلحون . ورغم هذا فإن ذلك العداء بقيت آثاره حتى بعد الإسلام ، ولم يُزل إلا بعد أن قوي الإيمان في قلوبهم وتغلغلت عقيدته في نفوسهم ، ومن أمثلة ذلك ما سبق أن ذكرناه من استجابتهم لاستثارة شاس اليهودي لهم . وللسبب نفسه لم يرضوا أن يؤمهم رجل من الحيين في بداية عهدهم بالإسلام ، فأرسل لهم الرسول ﷺ مصعب بن عُمَيْر يؤمهم ويعلّمهم أمر دينهم .

وخير ما نقوله في هذا المضار هو : إن النزاع الذي كان بين الحيين في الجاهلية انقلب في الإسلام إلى تنافس شريف مثمر ، فكان الحيان[1] يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئاً فيه لرسول الله ﷺ غناء ، إلا قالت الخزرج : والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ في الإسلام ، فلا ينتهون حتى يفعلوا مثلها ، وكذلك الخزرج ، فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته للرسول ﷺ ، قالت الخزرج : لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً ، ثم تذاكروا رجلاً تكون عداوته للإسلام مقاربة لابن الأشرف ، فذكروا سلام بن أبي الحقيق - وهو آنذاك بخيبر - فاستأذنوا رسول الله

---

(١) الطبري ٢ : ٤٩٥ .

ﷺ في قتله ، فأذن لهم ، فخرج إليه منهم خمسة نفر فقتلوه بها ورجعوا سالمين ، وكان حصنه بخيبر فوق جبل يسمى القموص .

لقد أعاد الإسلام لهذه القلوب المتباغضة المتنافرة طمأنينتها ، وآخى بينها وملأها محبة وألفة ووفاء ، فاجتمعوا حول الرسول ﷺ في وحدة متراصة لا تعرف إلا الإخلاص لله ولرسوله ، وأكرِمْ بدين يحوِّل اللهُ به الخوف إلى أمن والعداوة إلى محبة والظلم إلى عدالة : ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ .

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

الحياة الثقافيّة والدّينيّة

الحديث عن هذين الجانبين في حياة أي مجتمع أمر في الحقيقة يستدعي كثيراً من الدقة في البحث والاستقراء والإنصاف في الحكم ، ويستتبع العديد من الجهود المتريّثة الواعية ، وبخاصة إذا كان البحث متصلاً بحياة مجتمع ضارب في أعماق التاريخ ، يكتنف جوانب حياته كثير من الخفاء والغموض . كالمجتمع اليثربي ، فليس بين أيدينا من مخلفاته آثار مشهودة أو مكتوبات مقروءة . كما هو الشأن عند الفراعنة أو اليونان أو الرومان ، وإنما هي نتف قليلة يسيرة ليس في استطاعتها إجلاء الصورة بوضوح كاف يفضي إلى اليقين ، ومعلومات نزرة مبعثرة هنا وهناك في بطون الكتب بمناسبات مختلفة ذات صلة قريبة أو بعيدة . وليست الطريق إلى مثل هذا الحديث معبّدة بكتب أو مقالات وبحوث ، إذ لم يتصد أحد لتناول هذه الناحية أو البحث فيها ، وفي مثل هذه الحالة نجد أنفسنا مضطرين إلى عدم الإيغال في الحديث عن الفترات القديمة ليثرب ، لأنها ستكون بطبيعة الحال أكثر غموضاً وخفاء ، ولأن حديثنا أساساً مخصص للفترة الجاهلية السابقة للإسلام بمائتي سنة تقريباً ، وسيكون معتمدنا في الحديث عن هذه الفترة على بعض النتف التاريخية التي أمكننا جمعها والإلمام بها ، ثم على ما ورد في بعض الأحاديث النبوية والآيات القرآنية والحديث العادي الذي كان يدور بين الناس ، مما له صلة بحياة يثرب قبل الإسلام . ثم نحن بين هذا وذلك نرجع إلى أشعارهم في هذه الفترة الجاهلية نستنطقها ونستوحي منها بعض جوانب الصورة

الثقافية والدينية التي كانت سائدة بينهم ، وسوف لن نعدُوَ - حينئذ - كثيراً من جوانب الصواب ، لأن الشعر الجاهلي كما يقرر دارسوه كان يمتاز بالصدق في التعبير عن بيئته وروح قائليه وحظهم من الضَّعة أو الرقي ، ولأن اللغة وهي الأداة المستخدمة في تلك الأشعار تتأثر كما يقرر علماء الاجتماع[1] أيما تأثر بحضارة الأمة ونظمها وتقاليدها وعقائدها ودرجة ثقافتها ، وأحوال بيئتها الجغرافية والاجتماعية وما إلى ذلك ، فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير وينعكس عليها ، ومن هنا كانت اللغة أصدق سجل لتاريخ الشعوب وأوْعَبه على مر العصور .

أولاً : الحياة الثقافية في يثرب

يدل المعنى اللغوي لكلمة ثقافة على الفطنة والحذق والفهم ، فمعنى ثقف فلان الشيء : حذقه وفهمه وفطن له . كما تعني التهذيب وتقويم المعوج ومن ذلك تثقيف الرماح ، أي تقويم اعوجاجها وتهذيب كعوبها ، كقول عنترة :

ومدجّج كرِه الكماة نزالَه ... لا ممعن هرباً ولا مستسلم
جادت يداي له بعاجل طعنة ... بمثقّفٍ صَدْق الكعوب مقوّم

وقال الشاعر الأموي عدي بن الرقاع :

وقصيدة قد بت أجمع بينها ... حتى أقوّمَ ميلَها وسنادها
نظرَ المثقِّف في كعوب قناته ... حتى يُقيمَ ثقافُه منآدها

وهي من الناحية الاستعمالية كمصطلح فني ، تعني : أسلوب الحياة[2] السائد في أي مجتمع بشري ، من حيث سلوكه وتفكيره ونشاطه العقلي ومعارفه العلمية

---

(١) علم اللغة للدكتور على عبد الواحد وافي ص ٢٥٧ .

(٢) الموسوعة العربية الميسرة للدكتور شفيق غربال وزملائه ص ٥٨١ .

والإنسانية ، وانعكاس كل أولئك في نماذج حضارية ملموسة ، تتمثل في جوانب روحية وجوانب مادية شيئية ، كالآلات والأسلحة والملابس ومنتجات الفنون المختلفة ، كما تشمل سن القوانين وتدوين الدواوين بما فيها النظم الإدارية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، مما يمكن أن يكون مجالاً لنشاط العقل الإنساني ومناطاً لعمل تفكيره ، ومنذ البدايات الأولى للجنس البشري ، والثقافة هي أهم ما يميز المجتمع البشري عن المجتمعات الحيوانية ، ويحدوها في مسيرتها نحو تحقيق الغايات المثلى والأهداف السامية .

ولم تتعرض دائرة المعارف الإسلامية لشرح كلمة ثقافة ، واكتفى محمد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين بقوله : الثقِف هو : الحاذق الفطن . وهذا المعنى نفسه هو الذي جاء في المعجم الوسيط .

أما ابن سلام فقد استعمل كلمة ثقافة بمعنى المعرفة والاتقان وذلك حين تحدث عن الشعر فقال : « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان »[١] .

ولكن ثقافة أي مجتمع في واقعها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمستوى ما تحققه تلك الثقافة من حضارة ومدنية ، فالمجتمع الذي تكون ثقافته ضحلة باسرة لا يمكن أن ينال أي قسط من وسائل الحضارة والتمدن ، بل سيظل يعيش في متاهات البداوة ويتجرع قسوتها وشقاءها .

والبداوة والحضارة متناقضتان لا تجتمعان على صعيد واحد ، ولا يمكن أن تزدهر مدنية في ظل بداوة ، إذ المدنية كلمة مشتقة[٢] من قولهم : مدن المدائن أي : مصرها وبناها . وتمدن : أي تخلق بأخلاق أهل المدن وخرج من حالة

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١ : ٥ .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ٣ : ٥٥٣ .

البداوة إلى حالة الحضارة . وهي في عرف علماء الاجتماع تعني : الحالة الراقية التي توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم العالية والفنون الجميلة والصنائع المناسبة لهذه الحالة فهي على هذا الاعتبار غاية ، تتدرج الأمم في الوصول إلى أوجها الأعلى تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع ، ويرى الفلاسفة أن الإنسان مدني بطبعه ، مفطور بالغريزة على حب التطور والارتقاء .

وهذا الرأي صحيح إلى حد كبير ، فلم يكن الإنسان حين درج على هذه الأرض يملك من وسائل الثقافة والحضارة شيئاً ، ولكنه كان كلما أحس بتحدي الأشياء من حوله ابتكر لها ما يناسبها من أساليب المواجهة فذلل الصعاب وسخر مظاهر الطبيعة المختلفة لخدمته ، ومن صراعه الطويل مع الحياة تكونت ثقافة الأجيال المتتابعة وتقدم الإنسان في دروب الحضارة والتمدن فكانت حضارة وادي النيل وبلاد الرافدين وحضارة اليونان فالرومان وحضارة الفرس والهند والعرب .

والمجتمعات البشرية على مختلف بيئاتها الزمانية والمكانية لا توجد طفرة ، بل لا بد أن تسير على نسق متدرج وأن تخضع لمبدأ النشوء والارتقاء ، فكل المجتمعات التي سمعنا عنها أو رأيناها قد حققت قدراً من الثقافة والحضارة لا بد أن تكون قد مرت بمراحل عديدة من التكوين العقلي والفكري اجتازت فيها ألواناً من السذاجة والفطرة والطفولة ثم وصلت طور النضج والكهولة ، وكذلك كان العرب ، فلم يكونوا بِدعاً بين الأمم حتى نتوقع منهم في العصر الجاهلي ما لا نتوقعه من غيرهم في مثل ظروفهم بل الموضوعية تفرض علينا أن نناقش حياتهم الجاهلية بمنطق التطور الاجتماعي العام حتى تكون أحكامنا أقرب إلى الحقيقة والإنصاف .

وقد شاع بين الناس أن[1] العرب في جاهليتهم كانوا أمة منعزلة عن العالم ،

---

(١) فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين ص ١٢ .

لا صلة لها بمن حولها من أمم وما عندها من مدخرات ثقـافيـة ، وأن الصحراء من جـانب والبحر من جـانب آخر حصراهـا وجعـلاهـا منقطعـة عن غيرهـا تمـام الانقطاع ، لا تتصل بهم في مادة ولا تقتبس منهم أدبـاً ولا تهـذيبـاً ، ولا تـأخـذ منهم أو يأخذون منها في أي مضمار من شؤون الحياة .

والحق أن هذه الفكرة خاطئة كل الخطـأ ، فقـد كان العرب على صلـة دائمة بجيرانهم من فرس وأحباش وروم ، وكانت لهم صلاتهم الخاصة بالهند أيضـاً ، ولكن هذه الصلة كانت محدودة ، ولم تكن درجة التفاعل فيها بالقدر الذي كان قائماً بين الأمم المتحضرة لـذلـك العهـد ، ويرد بعضهم[1] ذلـك إلى المـوقـع الجغرافي وإلى الأحوال الاجتماعية السائـدة . وكان لهـذا الاتصـال عـدة طرق أهمهـا : التجـارة ، وإنشـاء المـدن العربيـة المتـاخمـة للفرس والروم ، والحروب التي تمت بينهم وبين الفرس والأحباش ، والبعثـات اليهوديـة والنصرانيـة التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب ، تـدعو إلى دينهـا وتنشر تعـاليمهـا ، والتي كان نصيب يثرب منهـا نصيب الأسد . كان للعرب في الجاهلية بما فيهم عرب يثرب ، علاقـة تجـاريـة واسعـة مع الهند ، يأتون منها بالتوابل والبهارات واللبان وغيرها من السلع ويذهبون بهـا إلى الشـام ومصر وغيرهـا يبيعونهـا ويجنـون من ورائهـا المكاسب الطـائلـة والأربـاح الوفيرة ، بينمـا كانوا يستبقون بعضهـا لـديهم لـلاقتنـاء والاستعمال ، ولم يكن هـذا الاحتكاك في الواقع قاصراً على الناحية التجارية ، ولا يعقل أن يكون كذلـك ، بل المعقول فعلاً أن تكون له آثاره على التفكير والسلوك والعادات واللسـان ، فهو من جهة يعطيهم الفرصة للمقارنة بين ما عندهم من نماذج حياتية مختلفة وما عنـد أولئـك الأقوام ، كما كان يضطرهم إلى بعض المعـاوضـات اللغويـة ، بجـانب تلـك المعاوضات التجارية ، ونحن وإن كنا نجهل في ذلك التاريخ بالـذات مـدى تـأثر اللغات الهندية باللغة العربية ، فإننـا في الجهـة الأخرى نستطيع أن نضع أيـدينـا

---

(١) المرجع السابق .

على بعض الألفاظ الهندية[1] التي دخلت إلى اللغة العربية من الهند ، وهذه الألفاظ في عمومها كانت أسماء لتلك السلع المستوردة من تلك البلاد ، وكذلك الحال في صلتهم التجارية بالفرس والروم والأحباش والأنباط وقد حكى السيوطي جملة من تلك الألفاظ ، ورد بعضها معرباً في القرآن الكريم بعد أن صقلته الألسنة العربية ووعته ذاكرتهم وفصحته استعمالاتهم .

فمن الألفاظ الهندية[2] : الزنجبيل ، والكافور ، والفلفل ، والاهليلج ، والخيزران ، والنارجيل (جوز الهند) .

ومن الفارسية[3] : السنجاب ، والخز ، والديباج ، والبلور ، والكعك ، والسميد ، والإبريق ، والخوان ، والمسك ، والعنبر ، والصندل ، والقرنفل ، والمنجنيق ، والطبل ، والبخور ، والغالية ، والندّ ، والدبوس ، والحبر ، والكرسي ، والقنينة ، والفتيلة ، والإزار .

ومن الرومية[4] : الفردوس (البستان) ، والقسطاس (الميزان) ، والسجنجل (المرآة) ، والبطاقة (رقعة فيها رقم المتاع) ، والاصطرلاب ، والكتان .

ومن النبطية[5] : الجُدّاد ، أي الخيوط المعقدة ، وأصله : كُدّاد .

ومن الحبشية : الهرْج وهو القتل ، والمشكاة ، وغيرهما .

وقد شاعت تلك الاستعمالات في يثرب كما شاعت في غيرها من البيئات التي

---

(١) ضحى الإسلام للدكتور أحمد أمين ١ : ٢٤٦ .

(٢) المزهر ١ : ٢٨٣ .

(٣) المزهر ١ : ١٢٣ ، ٢٧٥ .

(٤) المرجع السابق ١١ : ٢٧٦ .

(٥) المرجع السابق ١ : ٢٨٣ .

لها احتكاك بالتجارة مع هؤلاء الأقوام ، ووجدت طريقها إلى أشعارهم ، يقول أحيحة بن الجلاح :

ولو أني أشاء نعمتُ حالاً ... وباكرني صَبوح أو نشيل
ولاعبني على الأنماط لُعْس ... على أفواههن الزنجبيل

ويقول حسان يرثي الرسول ﷺ :

ألا دفنتم رسول الله في سفَطٍ ... من الألُوَّة والكافور منضودِ[1]

ويقول حسان أيضاً :

وإذا تشاء دعت بِمقطرةٍ ... تُذكَى لها بألُوَّة الهند[2]

وقال :

أتفخر بالكتّان لما لبسته ... وقد يَلْبَسُ الأنباطُ رَيْطاً مقَصَّرا[3]

وقال أيضاً يصف نفسه وقومه :

وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم ... من المسك والجادي فتيتاً مبدَّدا
ترى فوق أثناء الزرابيّ ساقطاً ... نعالاً وقَسُّوباً ، ورَيْطاً معضّدا
وذا نُطَفٍ يسعى ، ملصّق خدّه ... بديباجةٍ ، تكفافُها قد تقدَّدا

وقال ابن الخطيم :

كأن القرنفلَ والزنجبيل ... وذاكي العبير بجلبابها

---

(١) الديوان ص ٦٠ والسفط : وعاء يوضع فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء ، ووعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة والثياب ، والألوة : عود يتبخر به .

(٢) الديوان ص ٨٧ .

(٣) الديوان ص ١٠٩ .

وإذا قلنا إن اليثربيين كانت لهم تجارات تصل إلى مصر والشام فإن ذلك يقتضي أن بعضهم كان يحسن لسان الروم كوسيلة للتعامل والنطق على الأقل . لأنها هي اللغة التي كانت تسود تلك المناطق في التعامل بين الناس ، ولا ندعي أنهم كانوا يستطيعون نقل العلوم ولكننا نزعم أنه كان لا بد من أن يكون لتلك الزيارات والاحتكاكات أثر على لسانهم كما كان له أثر في العقلية اليثربية بصفة عامة ، وإذا كانت الثقافة الفارسية[1] تمثل حياة كسروية قائمة على مدنية معقدة ونظم مركبة ، وفيها مرافق المدنية المعنة في الحضارة ، وفيها محاسن المدنية ومساويها ، فإن الثقافة العربية سواء كانت في يثرب أم غيرها من الحواضر العربية كانت في الغالب حياة بسيطة سهلة لا تركيب فيها ولا التواء ، يعتمد أهلها البساطة في العيش والبساطة في القول ، ولا تبتعد كثيراً مما في البداوة من وضوح وصفاء .

ومن الغريب أن نجد باحثاً كالدكتور أحمد أمين[2] يعترف بالفوارق العقلية بين الشعوب فيقول : « فالشعوب تقف في العالم على درجات متسلسلة الرقي ، وكل درجة لها مميزاتها العقلية والنفسية » ، وكأنه واحد من النازيين . وهذه فكرة أراد بها الغربيون امتهان الأمم الأخرى وإقناعها بالتبعية وعدم القدرة على الأخذ بأسباب الحضارة ، ولعمري إنها لفرية عظيمة ليس لها سند من واقع أو تاريخ ، والحق أن الظروف المختلفة هي التي تصنع الشعوب ، وكل أمة تمر بأطوار مختلفة في الحضارة والتمدن والتفكير ، ومن الخطأ أن نوازن بين أمة وأمة دون أن نضع تلك الظروف في الحسبان ، وإنما تصح المقارنة بين أمم في طور واحد من الحضارة لا بين أمة متبدية وأخرى متحضرة ، والعقل البشري ـ في الواقع ـ لدى

---

(١) ضحى الإسلام ٢ : ٣٢٠ .

(٢) فجر الإسلام ص ٣٠ .

جميع الأجناس قادر على الابتكار والإبداع متى ما تهيأت له الظروف المطلوبة والجو الملائم ، وكذلك كان العرب . والذي يثلج الصدر أن الدكتور أحمد أمين يعود بعد قليل من عبارته تلك فيدافع عن العرب وحضارتهم .

ولئن كانت الثقافة الفارسية قد تهيأت لها ظروف التدوين المبكر ، وتعرضت للسقوط والتجدد ، فإن الثقافة العربية لم يتهيأ لها التسجيل في كتب مقروءة ، بل كانت كلها في جاهليتها ثقافة شفوية تعتمد على الذاكرة والرواية حتى أواخر الدولة الأموية ، ورغم أن الذاكرة العربية كانت لا تبارى في الاستيعاب فإننا نعتقد أن كثيراً من تراثهم تعرض للتلف والنسيان ، ولذلك نصادف كثيراً من الغموض الكثيف في بحث مناحي الحياة الثقافية اليثربية مما يجعلنا نقنع بالإلماحات ونعمد إلى إكساب الخاص بعض صفات العام طمعاً في جلاء الصورة والاقتراب من الواقع التاريخي لتلك الحقبة .

ولئن كانت الثقافة اليونانية[1] أيضاً قد مرت بالأطوار الطبيعية للعلم ، من بحث في مسائل متفرقة فتنظيم وتبويب ، وجمع للمتشابه وفصل بين الأضداد ، حتى وصلت للعرب إبان بدء العصر العباسي فتمثلوها وأضافوا إليها ما أمكنت إضافته ثم تسلَّمها منهم الغرب في العصر الحديث ، فإن الثقافة العربية لم تظفر بالتبويب والتنظيم إلا في العصر العباسي كما قلنا .

وإذا ذهبنا مع رأي العلامة ابن فارس من أنه كان للعرب معارف كثيرة دقيقة كالإعراب والعَرُوض والنحو يتداولونها ويتوارثونها فيما بينهم فإنه يحق لنا أن ندعي ذلك أيضاً لأهل يثرب . يقول ابن فارس[2] : (والدليل على أن القوم تداولوا الإعراب : أننا نستقرئ قصيدة الحطيئة التي أولها :

---

(١) المرجع السابق ٢١ : ٣٢١ .
(٢) الصاحبي لأبي الحسين أحمد بن فارس ص ٩ ـ ١٠ .

شـــــاقتـــــك أظعـــــانٌ لليْلى دون نـــــــــاظرةٍ بـــــــواكِرْ

فنجد قوافيها كلهـا عنـد الترنم والإعراب تجيء مرفوعـة ، ولولا علم الحطيئـة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون .

وأما العَرُوض فمن الدليل على أنه كان متعارفـاً معلومـاً ، اتفـاق أهل العلم ، على أن المشركين لمـا سمعوا القرآن قـالـوا ـ أو من قـال منهم ـ : إنـه شعر ، فقـال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم : لقـد عرضت مـا يقرؤه محمـدٌ على أقراء[1] الشعر : هزجه ورجزه ، وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربيـة وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلـك ، بل نقول : إن هذين العلمين قد كانـا قـديمـاً ، وأتت عليهما الأيـام وقلاّ في أيـدي النـاس ، ثم جددهما هذان الإمامان) .

وقد روت الكتب أن من بواعث الفراهيدي على التأليف في علم العروض أنه في رحلته من المدينـة إلى مكـة لقي أعرابيـاً يعلم ابنـه الأوزان الشعريـة بطريقـة موسيقيـة موقعـة ، ليست هي فعولن ومفـاعيلن ، ولكنهـا تـؤدي مهمتهـا وتسـد مسدها بعيداً عن كثير من الجفاف .. كأن يقول لـه : نعم لا ، نعم لا لا .. فيعوّد بذلـك سمعـه ولسـانـه على الموسيقى الشعريـة المتـداولـة .. وأين كان يعيش هـذا الأعرابي ؟ كان بين يثرب ومكة أي إنه على مشارف البيئة التي نبحث ، وفي عصر لا يبعد كثيراً عن العصر الذي نناقش مظاهر الثقافة فيه .

---

(١) أقراء الشعر : طرقه وأنواعه وبحوره ، واحدها قرء بفتح القاف .

ومن هنا فليس من الحكمة أن يلهج بعضهم باتهام العرب بجهل هذه المصطلحات العلمية ، وما تشير إليه من معان محددة ، ويقول إن العربي[1] لم يكن يعرف الفاعل والمفعول بالمعنى الذي يفهمه النحوي ، ولا يعرف الطويل والخفيف والمديد ونحوها ، بالمعنى الذي يفهمه العروضي وهكذا ، ثم يقول : إن الكتب ملئت بكثير من الحكايات الظريفة التي كانت تجري بين النحويين والأعراب الوافدين إلى البصرة والكوفة إبان جمع اللغة وتدوين العلوم في العصر العباسي ، حيث لم يكن الأعرابي يستطيع أن يفهم النحوي ، لأنه كان يكلمه بمصطلحات لا علم له بها ، ومثال ذلك عنده : ما حكى الربيع بن عبد الرحمن السُّلَمي ، قال : قلت لأعرابي : أتهمز إسرائيل ؟ قال : إني إذن لرجل سوء . . قال : أتجر فلسطين ؟ قال : إني إذن لقوي . . وقال خلف : قلت لأعرابي : ألقي عليك بيتاً ساكناً ؟ قال : على نفسك فألقه . .

ولعل في كلام ابن فارس السابق مقنع لمن جعل غايته الوصول إلى الحقيقة ويقول د . س مرجليوت في هذا الصدد[2] : (ومن غير الصواب أن نخمن بأن العرب ليس لديهم أي فكرة عن الوزن والقافية ، فإن الحضارة التي كانوا يمثلونها ، كانت من نواحي عدة متقدمة جداً ، وعلى أية حال فإن القرآن حين يتحدث عن الشعر ، يصفه على أنه شيء يستلزم التعلم ، [يقصد قوله تعالى : وما علمناه الشعر وما ينبغي له][3] ، ومن المعقول أن يفترض أنه يشير إلى هذه المهارات التي تتضمن المعرفة بالكتابة « الألفباء » ، لأن القافية العربية تعني التكرار لنفس المجموعات من الأصوات المتناسقة مع مراعاة النظام النحوي ،

---

(١) ضحى الإسلام ١ : ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

(٢) أصول الشعر العربي د . س . مرجليوت ـ ترجمة الدكتور يحي الجبوري ص ٥٥ طبع مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٨ م .

(٣) يس : ٦٩ .

نظراً لأن الـوزن يعتمـد على الاختـلاف بين المقـاطـع الهجـائيـة ، « التفعيـلات » الطويلة والقصيرة وبين النهايات المتفقة مع الشاعر) .

ويبـدو أن أهـل يثرب كان لهم هـذا الـذوق الفني المرهف المثقف ، يقـويـه مـا نقلنـاه من كلام ابن فـارس ، ويؤيـده مـا روتـه أكثر كتب تـاريـخ الأدب واعتبرتـه من الخطـوات الأولى الـوئيـدة في النقـد الجـزئي ، فقـد دخـل النـابغـة الذبياني إلى يثرب ، واجتمع إليه شعراؤها الذين كانت له في نفوسهم مكانـة كغيرهم من الشعراء ، ولكن هـذه المكانـة لم تمنعهم من منـاقشـة العروض مع شيخ الشعراء وحَكَمِهم في سوق عكاظ ، وكان النقاش في شعر النابغـة نفسـه ، قـالوا للنـابغـة : إنك تُقْوي في شعرك أفلا أقلعت عن هذا الإقواء . . . فلم يفهم مـا هـدفوا إليـه ، مع أنه عرف عنه أنه كان يقول : إن في[1] شعري لعـاهـة مـا أقف عليهـا ، فلمـا لم يفهم ، عمدوا إلى قينة جاؤوا بها وطلبوا منها أن تغنيه من شعره :

من آل ميـــة رائـــحٌ أو مغتـــدِ ... عجـــلان ذا زادٍ وغيرَ مُـــزوَّدِ
زعم البـــوارحُ أن رحلتنـــا غـــداً ... وبـــذاك خبَّرنـــا الغرابُ الأسْـودُ

وقوله :

سقـــط النصيفُ ولم تُرِدْ إسقـــاطَـــه ... فتنـــاولتـــه واتقتنـــا بـــاليـــدِ
بمخضّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنـــانَـــه ... عَنَمٌ يكاد من اللطـــافـــة يُعْقَـــدُ

وطلبوا منها أن تمد صوتها بحركـة الروي ، فتشبع الكسرة في مزود واليـد ، وتشبع الضمة في (الأسود) ويعقد ، وحينئذ فطن النـابغـة لـذلـك وأصلح إقواءه وأصبـح النـابغـة منـذ ذلـك اليـوم يقـول : (دخلت يثرب وفي شعري عهـدة[2]

---

(١) الموشح للمرزباني ٤٥ ـ ٤٧ .
(٢) عهدة : ضعف .

وخرجت منها وأنا أشعر الناس) ، ويقول مرجليوت[1] : (ولا بد أن يكون العرب قد امتلكوا ذوقاً أدبياً رفيعاً بحيث أن عرائس الشعر قد أوحت إليهم أكثر مما أوحت إلى اليونان) .

ومما لا شك فيه أن أهل يثرب من اليهود والأوس والخزرج كانوا على معرفة بالكتابة والقراءة . فأما اليهود فقد كان لهم أحبارهم وعلماؤهم الذين يقرؤون لأتباع اليهودية التوراةَ في بيوت المِدْراس بالآرامية والعبرية وبالعربية ، ولعل في هذا الخبر الإسلامي ما يدل على شأنهم في الجاهلية ، فقد روى[2] أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القُفّ[3] فأتاهم في بيت المدراس[4] ، فقالوا : يا أبا القاسم إن منا رجلاً زنى بامرأة فاحكم ، فوضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها ، ثم قال : ائتوني بأعلمكم ، فأتي بفتى شاب ، ثم ذكر قصة الرجم .

وذكر مثل ذلك أيضاً بقية الكتب الصحاح عدا النسائي .

وأما الأوس والخزرج فقد قال درهم بن زيد الأوسي يُذكِّر الخزرج بما بينهم من رحم وعهود مكتوبة على الصحف[5] :

وإن ما بيننا وبينكمُ ... حين يقال : الأرحامُ والصحفُ

وقال قيس بن الخطيم :

لما بدتْ غدوةً جباهُهُم ... حنَّت إلينا الأرحام والصحفُ

---

(١) أصول الشعر العربي لمرجليوت ص ٥٩ .

(٢) رواه أبو داود في كتاب الحدود (باب رجم اليهوديين) .

(٣) القف : بضم القاف وتشديد الفاء ، اسم واد بالمدينة .

(٤) بيت المدارس : البيت الذي يدرسون فيه .

(٥) مصادر الشعر الجاهلي ص ٦٦ وديوان ابن الخطيم ص ٥٩ .

وقال ابن الخطيم أيضاً :

لعمري لقـد حـالفتُ ذبيـانَ كلَّهـا وعَبْسـاً على مـا في الأديم الممـدَّدِ

قال أبو عمرو : كتبوا كتباً وتحالفوا على ما في الصحف .

فهذه الأبيات وغيرها تدل بما لا يقبل الشك على معرفتهم للكتابة وانتشارها بينهم ولو بشكل محدود ، وذكر البلاذري[1] نقلاً عن الواقدي : إن الإسلام جاء وفي الأوس والخزرج عديد من الناس الذين كانوا على معرفة بالكتابة ، وقد اشتهر الشاعر عبد الله بن رواحة أنه كان ممن يكتبون في الجاهلية من الخزرج ، ولكنهم مع ذلك لم يبلغوا مبلغ[2] أهل مكة فيها ، ولعل الرسول ﷺ لاحظ هذا النقص النسبي عندهم فأراد استكماله بطريقة رائعة ، هي فك إسار الفقراء من أسرى بدر مقابل قيامهم بتعليم عشرة صبيان من أهل يثرب القراءة والكتابة ، علماً بأن يثرب بعد الهجرة لم تعد سكناها قاصرة على الأوس والخزرج ، بل أصبح يشاركهم فيها غيرهم من المسلمين المهاجرين من مكة وغيرها .

ويقول الشيخ عبد الحي الكتاني[3] : لم تكثر الكتابة العربية في المدينة إلا بعد الهجرة النبوية بأكثر من سنة ، وذلك أنه لما أسرت الأنصار سبعين رجلاً من صناديد قريش وغيرهم في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة ، جعلوا على كل واحد من الأسرى فداء من المال ، وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال أن يعلم الكتابة لغيره من صبيان المدينة ، فلا يطلقونهم إلا بعد تعليمهم ، فبذلك كثرت فيهم الكتابة وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام في حياته عليه الصلاة والسلام وبعده ، حتى بلغت عدة كتّابه اثنين وأربعين رجلاً . وذكر الماوردي في

---

(١) المرجع نفسه ص ٥١ .

(٢) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ٣٢ .

(٣) التراتيب الادارية ١ : ٤٨ .

كتابه ـ أدب الدنيا والدين ـ نقلاً عن ابن قتيبة : أن العرب كانت تعظم قدر الخط وتعده من أجلّ نافع ، حتى قال عكرمة : بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف ، حتى إن الرجل ليفادى على أنه يعلّم الخط ، لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره وظهور نفعه وأثره .

قال بعضهم : وهذا يبطل ما قاله ابن خلدون عن جهلهم بالخط ، فإن عكرمة كان يتكلم عن مشاهدة وابن خلدون قال ما قال عن تخمين .

وإلى الآن لم تسعف الأيام بأي أثر لكتابة الأوس والخزرج في جاهليتهم حتى يستطيع الباحثون على ضوئه التعرف على حالتها الأولى وتتبع مراحل تطورها ، وكانوا إنما أكثر ما يكتبون ـ بحكم بيئتهم الزراعية ـ على الخشب وعسيب النخل ، كما كانوا يكتبون بالإضافة إلى ذلك على الخزف والعظام والحجر الأبيض والأديم المدبوغ كما كان يفعل غيرهم من الكاتبين في العرب في تلك العهود ، وقد عرفوا البردي الذي كان يكتب عليه قدماء المصريين ولكن المراجع لم تذكر لنا أنهم استعملوه في كتاباتهم ، يقول ابن الخطيم يصف محبوبته :

تخطو على بَرْدِيّتين غذاهما عذق بساحة حائرٍ يَعبوب

ومن المعلوم أن القبائل اليمنية[1] في هجرتها إلى المناطق الشمالية ومنها يثرب حملت معها إلى تلك المناطق خطاً مشتقاً من خط المسند[2] ، فساد فترة من الزمن ، وقد كان يكتب من اليمين إلى الشمال ، ثم أعقب ذلك عدة تطورات على هذا الخط من النبطية والآرامية ، وكلها كانت خالية من الإعجام ، مقتصرة على الرمز إلى الأصوات الساكنة ، ومجردة من علامة التمييز بين الحرف المشدد

---

(١) فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٢٤٦ .

(٢) خط المسند : سمي بذلك لأن معظم حروفه تستند إلى أعمدة ، وتمثل بذلك طرازهم المعاري الذي كان يرتكز على الأعمدة . (المرجع السابق ص ١٧٤) .

والمخفف ، وفي خاتم رسول الله ﷺ وبعض كتبه التي عثر عليها ، ثم في مصحف عثمان رضي الله عنه : خير دليل لما عسى أن تكون عليه صورة الكتابة في يثرب ، لأنها لم تكن بعيدة العهد ، ولم يكن بينها وبين ما نحن بصدده زمن يسمح بالتطوير والتغيير ، ولم يحدثنا التاريخ بأن أحداً قام بمثل تلك المحاولة ، وهي صورة في عمومها غير بالغة إلى الغاية[1] من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط . ولم تكن طريقتهم في الإملاء موحدة ، فقد كتب بعضهم في صدر الإسلام « لأذبحنه » : « لا أذبحنه » بزيادة ألف ، وكذلك « لأوضعوا » : « لا أوضعوا » ، وكتبوا « امرأة فرعون » ، و « قرة عين لي ولك » بتاء مفتوحة ، وحذفوا الألفات من مواضع دون مواضع ، مع تساويها في نظر الإملاء ، وسبب ذلك كما يعلله ابن خلدون ضعفهم في صناعة الخط ، وأنهم لم يبلغوا حد الإجادة فيه[2] .

ومع هذه المعرفة للكتابة فإنه لم يؤثر عن الأوس والخزرج أو غيرهم من العرب في العصر الجاهلي أنهم نقلوا ممن حولهم[3] من الفرس والروم علماً منظماً ، أو أدباً مكتوباً مترجماً أو غير مترجم ، بل كان كل ما نقلوه : حكَماً أو قصصاً أو أمثالاً أو حوادث تاريخية مما يخف حمله على الناقل ، ويسهل هضمه على الملتقي ، وهم يستخدمون في ذلك الذاكرة والحافظة لا القلم والكتاب .

وتعتبر معرفة الأوس والخزرج للكتابة مظهراً من مظاهر رقيهم العقلي ، ذلك الرقي النسبي الذي نحسب أنه أتاح لهم الحصول على قدر من الحضارة والرفاه ، جعل من يثرب بالإضافة إلى جهود مواليهم من اليهود ، محط أنظار من حولهم من الأعراب ، يمتارون منها ويزورون أسواقها ويجلسون مجالس لهوها

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ مطبعة التقدم ١٣٢٩ هـ .
(٢) فجر الإسلام ص ١٤٢ .
(٣) فجر الإسلام ص ٢٩ .

وغنائها ، كما جعلها ثالثة قرية من قرى الحجاز وحواضرها ، أو هكذا كانت نظرة المكيين إليها على الأقل ، والتي عبر عنها القرآن بقوله : ﴿ لولا أُنزِل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[1] وهما مكة والطائف ، حيث توقعوا أن تكون الرسالة في إحدى هاتين القريتين ولم يتوقعوها من يثرب ، والأمر في الواقع ليس على إطلاقه ، وإنما هي نظرة قوم نظروا فيها إلى أنفسهم وإلى جيرانهم الأقربين في بلد لهم فيه أموال وبساتين ، هذا وقد تهيأ لمكة من الظروف الدينية بحكم وجود الكعبة فيها ما لم يتهيأ لغيرها من المكانة الروحية عند العرب ، تلك المكانة التي قالوا عنها : إنها منحت لغة قريش السيطرة على كل اللهجات العربية الأخرى ، وأن تتهيأ لتكون وعاء للوحي وأداة تعبير للقرآن الكريم ، علاوة على ما كان يخلفه اجتماع العرب في المواسم والأسواق في نفوسهم من ارتباط بهذه المواقع ، وإلا فما شأن مكة وهي بواد غير ذي زرع ؟ وما شأن الطائف وزراعتها قاصرة على الفواكه والخضروات وبعض الحبوب ؟ في الوقت الذي كانت فيه يثرب تزرع الفواكه والحبوب والخضروات ، وتزيد بهذا العدد الهائل من النخيل الذي كانت أنواعه تزيد عن مائة نوع ، وعلاوة على هذا فهي تشارك مكة في العمل التجاري وتزحمها أحياناً .

وقد كانت قريش تعترف بشرف الأوس والخزرج وتحتفظ لهم بالمكانة المرعية ، ولهذا كنا نراهم يصاهرونهم ويتزوجون فيهم ، وقد سبق أن تحدثنا عن زواج هاشم بن عبد مناف سيد قريش من بني النجار من الخزرج ، حيث تزوج سلمى بنت عمرو التي كانت قبله تحت الشاعر أحيحة بن الجلاح .

ومع ذلك فرغم أن الزراعة تعتمد في أساسها على استغلال جميع عناصر المعادلة الحضارية من إنسان وأرض وزمن ، وتدل من الناحية العقلية على حسن

---

(١) الزخرف : ٣١ .

استخدام للوسائل الذاتية المتيسرة للإنسان ، دون أي تدخل خارجي ، مما يعطي إيماءة كافية كاشفة للمستوى العقلي والفكري الذي بلغه اليثربيون ، فإن العرب الرعاة في البادية والعرب التجار في مكة كانوا ينظرون إلى الزراعة والزرّاعين بتأفف وتقزز ، وبشيء من الاستنقاص ، في ذلك العهد على الأقل ، ومن هنا أطلق بعضهم كلمة أنباط على اليثربيين ، على اعتبار أنهم يشتغلون بالزراعة كالأنباط ، ولهذا أيضاً قال أبو جهل[1] وهو عقير في بدر ، لمّا علم بأنه قتيل ابني عفراء من الأنصار ، وقد أدركه عبد الله بن مسعود وبه رمق : (لو غير أكّار قتلني) أي لو غير زارع قتلني . وقال عتبة[2] بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة الذين دعوا إلى المبارزة يوم بدر ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ، فسألوهم : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : ارجعوا ما لنا بكم من حاجة ، ثم نادوا : يا محمد . . أخرج إلينا أكفاءنا من بني عمنا ـ يعنون المهاجرين القرشيين ـ فقال رسول الله ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة . . قم يا علي . . فلما قاموا ودنوا منهم ، وارتضوا أن يبارزوهم وقالوا : نعم . . أكفاء كرام .

وقد كان لليثربيين بحكم اشتغالهم بالزراعة معرفة خاصة بالأمور الزراعية وحصيلة علمية بمتطلباتها وهي معرفة لا تتأتى بالطبع للمجتمع الرعوي في البادية ولا للمجتمع التجاري في مكة ، ولما سجلت المعارف الزراعية العادية في العصر الحديث ، كونت أكثر من كتاب ، ونحن لا ندعي لهم معرفة النواحي المعقدة فيها ، ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نقبل أنهم كانوا ناجحين في زراعة النخيل وغيره من الأشجار والحبوب والخضروات عن طريق المصادفة ، دون

---

(١) مجمع بحار الأنوار للعلامة محمد طاهر الفتني ١ : ٦٨ والأكّار : الزارع والفلاح ، وهو يعرّض بابني عفراء .

(٢) ابن هشام ١ : ٦٢٥ .

معارف موضوعة يتوارثها الخلف عن السلف مشافهة على الأقل . فالتجارب علمتهم الكثير من طرق تنمية حاصل النخيل وتحسينه ، فهم على علم كامل بكل ما يتصل به منذ غرس فسائله إلى أن يُطلِع ويصبح صالحاً للإثمار ، وما يصحب ذلك من تأبير وتشذيب ، وزراعته في مسافات متناسبة لا تحجب عنه نور الشمس وتساعده على الإثمار الجيد ، ثم عزقه وتسميده وريّه ، إلى غير ذلك من الاستصلاحات . والممارسة علمتهم أيضاً التعرف على مواسم البقول والخضروات والحبوب ومواعيد بذرها وقطفها ووقايتها من الآفات والجوائح ، وهي معارف تتطلب كثيراً من الدقة والمتابعة والمثابرة والحذق العقلي .

واستتبعت الزراعة معرفة بالآبار وطرق حفرها وطيها بالحجارة المطابقة ، وإقامة السواقي وتحويل مائها ومياه جداول الوديان بالمساحي وغيرها من الأدوات وإنشاء الحوائط على البساتين .

وقامت تبعاً لهذه الحركة الزراعية أنواع من المعاملات بينهم منع أكثرها الإسلام وصحح بعض أنماطها ، ومن ذلك :

١ ـ المحاقلة : وهي مأخوذة من الحقل[١] ، والمحاقل : المزارع واصطلاحاً هي : بيع الحقل بكيل من الطعام معلوم .

٢ ـ المزابنة : وهي لغة : مأخوذة من الزبن ، وهو الدفع الشديد . واصطلاحاً هي بيع تمر النخل بأوساق[٢] من التمر . وكأنها سميت كذلك لأن كل واحد من المتبايعين يزبن صاحبه عن حقه ، أي يدفعه .

٣ ـ المخابرة : لغة : مأخوذة من الخبير ، وهو الأكّار ، أي الفلاّح الحرّاث ،

---

(١) نيل الأوطار ـ شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار للشوكاني ٥ : ١٩٨ ، وفقه السنة للسيد سابق ـ المجلد ٥ : ٨١ ، والسيرة النبوية للندوي ص ١٤٦ .

(٢) الأوساق : جمع وسق ، وهو : ستون صاعاً .

واصطلاحاً جعلها بعضهم كالمساقاة والمزارعة ، وبعضهم خصَّها بالعمل على الأرض على النصف ونحوه .

وعن زيد بن أبي أُنَيْسَة[1] عن عطاء ، عن جابر : (أن النبي ﷺ نهى عن المحاقلة والمزابنة والمخابرة ، وأن لا يشترى النخلُ حتى يُشقِهَ) ، والإشقاهُ أن يحمَرّ أو يصفَرّ أو يؤكلَ منه شيء .

قال زيد : قلت لعطاء : أسمعت جابراً يذكر هذا عن رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم .

وعن جابر أيضاً قال : (نهى رسول الله ﷺ عن المحاقلة والمزابنة والمعاومة والمخابرة) .

٤ ـ المزارعة : هي مفاعلة من الزراعة . واصطلاحاً : هي العمل على الأرض ببعض ما يخرج منها ، ويكون البذر من مالكها .

٥ ـ المساقاة : مفاعلة من السقي . واصطلاحاً : العمل على سقي نخل أو كرم ونحوهما بجزء معلوم للأجير .

٦ ـ المعاومة : مأخوذة من العام ، كالمشاهرة مأخوذة من الشهر . واصطلاحاً : هي أن يبيع ثمر النخل لأكثر من عام في عقد واحدة وهي من بيوع الغرر ، لأن المبيع لم يوجد بعد .

ومما تبع الحركة الزراعية أيضاً نشأة بعض الصناعات اليدوية الخفيفة ، مثل صنع بعض المكاييل ـ كالصاع والمد ـ من خشب بعض الأشجار ، وكذلك بعض أواني الشرب والطعام ، كالقصاع والملاعق والقعاب ، وكان بعضها يصنع من شجر الشيزَى ، يقول حسان[2] :

---

(١) نيل الأوطار المجلد ٥ : ١٩٨ .

(٢) ديوان حسان ص ٣٣ .

مــزينـــــةٌ لا يُرى فيهـــا خطيبٌ ولا فَلْـجٌ يطـــافُ بـــه خَصيبُ[1]
ولا من يمـــــلأ الشِّيزَى ، ويحمي إذا مـــــا الكلبُ أجحره الضريب[2]

وأيضاً صنع الأبواب وسقوف البيوت وأعمدتها من خشب النخل ، وقد كان الحرم النبوي في أول عهده كذلك . وصنع الحبال للاستعمالات المختلفة من ألياف النخل ، والزنابيل من سعفه . كما كانت تصنع من خوص النخل أيضاً المراوح اليدوية لمقاومة الحر وريح السموم التي عرفت بها يثرب ولا تزال من خصائصها حتى اليوم ، ويصنع منه أيضاً المزاود اليدوية لنقل الرطب من البساتين إلى المنازل ، والمزاود الكبيرة التي تحمل على ظهور الدواب أيام الجذاذ والحصاد لنقل المحاصيل المختلفة . وصنعوا منه كذلك بعض الأطباق لاستعمالها في حفظ غير السوائل ، متفننين في أشكالها وزخارفها ، بعد صبغ بعض أجزاء الخوص المستعمل ، فكان بعضها على شكل ظفائر خوصية ، والبعض الآخر يمثل الخوصَ الجزءَ الظاهر منه في شكل سدى ملفوف بطريقة فنية على لحمة من شقاق العراجين ، بعد بلِّها بالماء ، لتصبح مطاوعة قابلة للتشكيل أثناء وضعها ، وفي صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود[3] عن جابر ، أن النبي ﷺ أتي ببَدْر فيه خَضِرَاتٌ مِنْ بقول ، فوجد لها ريحاً ، فسأل فأُخبر بما فيها من البقول ، فقال : « قربوها » ، أي إلى بعض أصحابه ، فلما رآه كره أكلها ، قال : « كل ، فإني أناجي من لا تناجي » ، وقالوا عن البدر : هو الطبق يتخذ من الخوص ، سمي

---

(١) الفلج : فلج الأرض أي شقها للزراعة ، ويكون المعنى أنه لا خصب فيهم .

(٢) الشيزى : شجر تصنع منه القصاع والجفان . أجحره : أدخله إلى جحره . والضريب : الصقيع .

(٣) رواه البخاري في كتاب الأذان (باب الثوم النيء والبصل) وفي كتاب الأطعمة ، وفي كتاب الاعتصام (باب الأحكام التي تعرف بالدلائل) . ورواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها) . ورواه أبو داود في كتاب الأطعمة (باب في أكل الثوم) . عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما

بذلك لاستدارته كبدر السماء .. وصنع أيضاً من الخوص الفرش والحصر ، ومما يدل على ذلك قول ابن الخطيم :

ترى قِصَدَ المرّانِ تهوي كأنها تذرُّع خرْصان بأيدي الشواطب

ولا شك أن البكرات التي كانت تستعمل في نضح الماء من الآبار ، إنما كانت من خشب الأشجار التي كانوا يستنبتونها .

ومعنى هذا أن صناعة النجارة كانت لديهم كأدق ما يكون ، فهم يصنعون مختلف الأواني والآلات الخشبية ، وقد كان الرسول ﷺ يخطب أول أمره في المدينة على جذع من النخل ، ثم إن امرأة من الأنصار ـ كما روى البخاري[1] عن جابر بن عبد الله ـ قالت له : يا رسول الله ، ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه ، فإن لي غلاماً نجاراً ، قال : « إن شئت » . فعملت له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع له . ويذكر بعضهم أن الذين اشتركوا في صنع منبره ﷺ من الأنصار سبعة[2] نجارين . ومعنى كل هذا أن هؤلاء النجارين وأمثالهم كانوا بين أهل يثرب قبل مقدمه إليها ﷺ ، وهم الذين استمرت بهم حركة النجارة بعد ذلك في بدء صدر الإسلام .

وبالإضافة إلى هذه الصناعات الخشبية عرفت يثرب نشاطات صناعية أخرى ، كصياغة الحلي ، فقد بلغ عدد الصاغة فيها ثلاثمائة صائغ ، كانت غالبيتهم من بني قينقاع وفي سوقهم بالذات ، فماذا كانوا يصوغون ؟ ولمن كانوا يصنعون ؟ كانوا بالطبع أول ما يصنعون ذلك لأهل يثرب ، فعن علي[3] رضي الله عنه أنه لما أراد أن يبني بفاطمة ـ وذلك في المدينة ـ قال : وعدت رجلاً صوّاغاً من بني

---

(١) التراتيب الإدارية ١ : ٦٧ .

(٢) المرجع السابق ٢ : ٦١ .

(٣) المرجع السابق ٢ : ٦٣ .

قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بـأذخر أردت أن أبيعـه من الصوّاغين ، وأستعين بـه (أي بثمنه) في وليمـة عرسي . إذ أنهم كانوا يستخـدمون خشب الإذخر ـ فيا يبـدو في مواقد صياغتهم ، لكونه من أصلح أنواع الحطب وأبقاها . وقـد أمر النبي ﷺ عرفجة السعدي أن يتخذ أنفاً من ذهب ، بعد أن قطع أنفـه ، واستجـاب عرفجـة للأمر فكان لـه مـا أراد ، وهو أمر يـدل على دقـة الصنعـة والإتقـان عنـد صُوّاغ يثرب ، لأن صنـع الأنف من ذهب ، وتركيبـه في محلـه ، ليس من الأشيـاء التي يستطيعها أي عـامل عـادي ، بل لا بـد أن يكـون على مستـوى عـال من الخبرة والإتقان في مجال هذا العلم الـدقيق ، وهو أمر يشهـد لليثربيين بمـدى ثقـافي رفيع امتد إلى عهد الرسالة .

ومن جهـة أخرى ـ في الواقع ـ كانت سـوق بني قينقـاع أو سـوق الجسر ـ كما سبق أن تحدثنا عنها ـ يرتادها الناس من خـارج يثرب ، وقـد سبق أن أشرنـا إلى ما هال ناقة النابغة الذبياني من أصوات البـائعين والمشترين وضجيج العمال وطرق الصناع ، حتى حاصت بـه وكادت توقعـه ، ولا شـك أن تصنيع الـذهب والفضـة يستدعي خبرة دقيقة بنوعية المعادن وطرق صهرهـا ومزجهـا ومعرفـة زائفهـا من صحيحها ، كما يتطلب معرفة بالأشكال الفنية المختلفة ، وإعداد القوالب الصناعيـة التي يتخـذون منهـا مثـالاً لمصـوغـاتهم ، ويستـدعي أيضـاً معرفـة بعض العنـاصر الكيميائية التي لها علاقة مباشرة بهذه الصناعة .

ومن الحلي الـذهبيـة مـا كانوا يصنعونـه للآذان والصـدور مصـوراً على هيئـة الجراد ، يقول ابن الخطيم يصف صاحبته :

كأن لبّـاتهـا تبـدّدهـا هَـزْلَى جرادٍ ، أجـوازُه جُلَفُ

ويغلب على ظني أن المواد الخام لتلك المعادن كانت تجلب من مناجم المهد في أرض بني سليم ، التي لا تبعـد كثيراً عن يثرب ، والتي لهـا عـلاقـة وثيقـة بهم ،

وبخاصة اليهود ، فقد سبق أن تحدثنا عن استعانة بني عبد الأشهل الأوسيين ببني سُليم ضد أبناء عمومتهم بني حارثة ، حيث اشتركوا معهم في حربهم ومحاصرتهم ، واستمرت هذه العلاقة قائمة حتى بعد هجرة الرسول ﷺ ، ولذلك نرى الشاعر السُّلمي العباس بن مرداس - وهو ابن الشاعرة الخنساء - يثني على بني النضير من اليهود ، ويأسف لترحالهم من يثرب مكرهين ، حين أجلاهم الرسول ﷺ عنها لغدرهم وخيانتهم ، في السنة الرابعة للهجرة ، ولم يكن العباس قد أسلم بعد ، لأنه من مسلمة عام الفتح في السنة الثامنة ، ويرد على من ينكر عليه مدحهم من الأوس والخزرج ، ومنهم شاعرهم الأوسي خوّات بن جبير ، أخو عمرو بن عوف فيقول[1] :

لو أنّ قطينَ الدار لم يتحمّلوا ... وجدتَ خلالَ الدارِ ملهى وملعبا[2]
فإنك عَمري هل رأيت ظعائناً ... سلَكْن على ركن الشَّطَا فتيأبَا[3]
إذا جاء باغي الخير قُلنَ بشاشةً ... له بوجوهٍ كالدنانير مرحبا
فلا تحسبنّي كنتُ مولى ابن مشكمٍ ... سلامٍ ، ولا مولى حُيَيّ بن أخطبا

ولما بلغ هذا الشعر خواتاً اشتد إنكاره على العباس ورد عليه شعراً عيّره فيه بمدحه لليهود ، وكذبه فيما ادعى لهم من أمجاد ، مع أنهم ليسوا بذي مجد ، ولفت نظره إلى أن من الأقارب من هم أولى منهم بأن يظفروا من العباس بمثل هذا المديح والاهتمام . قال خوّات يناقض العباس :

تُبكّي على قتلى يهودَ وقدِ ترى ... من الشَّجْوِ لو تبكي أحبَّ وأقربا
فهلاّ على قتلى ببطنِ أُرَيْنِقٍ ... بكيْتَ ولم تُعْوِلْ من الشَّجْوِ مسهبا

---

(١) الشعراء اليهود ص ٩ وديوان العباس ص ٣٨ .

(٢) قطين الدار : ساكنوها ، وهو يعني هنا : بني النضير . ولم يتحملوا : لم يرحلوا .

(٣) الظعائن : الهوادج جمع ظعينة . والشطا : جمع شطء ، وهي فراخ النخل والزرع ، أو ورقه ، أو ما خرج من الشجر حول أصله ، وتيأب : تخضر وتورق وتنمو ماضيها : أيب .

فـإنـك لَّمـا أن كلِفْتَ تمـدُّحـاً	لمن كان عيْبـاً مـدحُـه وتكـذُّبـا
رحلتَ بـأمر كنت أهْـلاً لمثلـه	ولم تُلف فيهم قـائـلاً لـك : مرحبا
فهـلاًّ إلى قـومٍ ملـوكٍ مـدحتَهم	تبنّـوْا من العـزِّ المـؤَثَّـل مَنْصبـا
أولئـك أحرى من يهـودَ بمـدحـةٍ	تراهم وفيهم عـزّة المجـد تُرتُبَى[1]

ولكن العباس لم يعجبه مرة أخرى كلام خوات فرد عليه بنقيضة أخرى يبين فيها فضلهم وكرمهم ، ويحثه على أن يشاركه في البكاء عليهم والتعرف على فضلهم فيقول :

هجـوتَ صريـحَ الكاهنين وفيكمُ	لهم نِعمٌ كانت مـدى الـدهر تُرْتُبى[2]
أولئـك أحْرى إن بكيتَ عليهمُ	وقـومـك لـو أدّوا من الحـق واجبـا
من الشكر إن الشكر خير مغبّـةٍ	وأوفَـقُ فعـلاً للـذي كان أصـوبـا
فصرت كمن أمْسى يقطّـع رأسـه	ليبلـغ عـزّاً كان فيـه مركَّبـا
فبَـكِّ بني هـارون واذكر فعـالهمْ	وقتلهمُ للجـوع إذ كان مُسْغِبـا
أخـوَّاتُ أذْرِ الـدمعَ بـالـدمعِ وابكهمْ	وأعرِضْ عن المكروه منهم ونكّبـا
فـإنـك لـو لاقيتهم في ديـارهم	لألفيتَ عمّـا تقـول منكّبـا
سراعٌ إلى العَلْيـا كرامٌ لـدى الـوغَى	يقـال لبـاغي الخير : أهـلاً ومرحبـا

وما يؤكد هذه العلاقة التي أشرنا إليها بين بني سُليم ممثلة في ابن مرداس وبين اليهود ممثلة في بني النضير وبني قريظة وهما المعنيـان بصريح الكاهنين : ما رواه صاحب[3] الأغاني من أن العبـاس بن مرداس وخوات بن جبير التقيـا يوماً عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقـال خوّات : يـا عبـاس .. أأنت الـذي رثيت

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٢) ديوان العباس ص ٤٠ ، ترتبى : تستزاد . وصريح الكاهنين : بنو النضير وبنو قريظة . وأرينق : اسم موضع .

(٣) الأغاني ١٤ : ٣١٨ .

اليهود وقد كان منهم في عداوة رسول الله ﷺ ما كان ؟ فقال عباس : إنهم كانوا أخلائي في الجاهلية ، وكانوا أقواماً أنزلُ بهم فيكرمونني ، ومثلي يشكر ما صنع إليه من الجميل .

ومن الصناعات التي عرفت بها يثرب صناعة السهام والرماح والنبال والدروع ، وبرعوا في ذلك براعة كبيرة حتى غدت سهام يثرب ونبالها مشهورة بين العرب قال كثيّر :

وماء كأن اليثربيّةَ أنْصلتْ   باعقاره دفع الإزاء نَزُوعُ

وقال طُفيل الغنوي :

رمتْ عن قِسيٍّ الماسخيِّ رجالُنا   بأجودَ ما يُبتاعُ من نَبْلِ يثربِ[١]

وقال آخر :

سلاجمُ يثربَ اللاتي علتْها   بيثرب كَبْوةٌ بعد المرُون

وكان في بني قينقاع حين حاصرهم[٢] الرسول ﷺ خمس عشرة ليلة ثلاثمائة دارع فأخذ آلة صياغتهم لينتفع بها المسلمون ، وغنم منهم سلاحاً كثيراً وكان في مخلفات بني النضير بعد جلائهم ثلاثمائة وأربعون سيفاً[٣] وخمسون درعاً .

ورغم هذه الشهرة ليثرب في مجال صناعة الأسلحة فإن مناطق أخرى كالطائف في الجزيرة العربية قد تفوقت عليها فقد كان من أدوات الرمي عند أهل الطائف غير النبال : سكك الحديد[٤] محمّاً بالنار ، يرمون بها الدبابات

---

(١) ديوان طفيل الغنوي ص ٣١ تحقيق محمد عبد القادر أحمد .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣ : ٥٢ والطبري ٢ : ١٧٣ .

(٣) المغازي للواقدي ١٦٤ .

(٤) الطبري ٣ : ٨٤ .

ليجبروا أصحابها على الخروج منها ، ثم يصيدونهم بالنبال ، وقد فعلوها يوم الشدخة في محاصرة الرسول ﷺ لهم . والدبابة آلة تصنع من خشب وتغشى بجلود ، ويدخل فيها الرجال ، فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها ، كما كان أهل الطائف يصنعون المجانيق ، جمع منجنيق ، وهو من آلات الحصار ، ترمى به الحجارة الثقيلة .

وقد كان العرب يتبادلون الخبرات الصناعية فيما بينهم ، فيأتي من يثرب من يتعلم من الطائف ، ويذهب من الطائف إلى جُرَش من يريد التعلم أيضاً .. وهكذا . ففي غزوة حنين وحصار الطائف تحدثنا الأخبار : أن عروة بن مسعود[1] وغيلان بن سلمة لم يحضرا الحرب مع قومهم لأنهما كان بجُرش ، يتعلمان صنعة الدبّاب ، والمجانيق ، والضّبور . وقد شرحنا الدباب ، والمجانيق ، أما الضبور فهو جلود يغشى بها خشب يتقى بها في الحرب . ويثرب على كل حال كانت على صلة بالطائف فقد ذكرنا في حديثنا عن الآطام أن الطائف أخذت فكرة الآطام من يثرب ، حيث أرسل معهم أحيحة بن الجلاح أحد البنائين اليثربيين يبنيها لهم ويعلمهم قواعد بنائها ، ولا يبعد أن تكون هذه العلاقة قد هيأت لليثربيين فرصة الاستفادة من معارف الطائف الصناعية ، وبخاصة الأوس والخزرج ، لأن صناعة الأسلحة في يثرب كانت في عامتها بيد اليهود ، فلا غرابة أن يضنّوا بها عن الأوس والخزرج ، فيلجأ هؤلاء إلى تعلمها من الطائف وغيرها من الصناع العرب .

ومما يؤيد احتكار اليهود لمثل هذه الصناعات بيثرب أنه بعد إجلاء بني قينقاع عنها لم تستمر فيها كما كانت ، رغم أن الرسول ﷺ أخذ منهم آلة صياغتهم ولم يتركهم يأخذونها معهم ، أملاً في أن ينتفع بها المسلمون ، ولكنهم لم يفعلوا ،

---

(١) الطبري ٣ : ٨١ .

ولم ترو كتب السيرة عن قيام مثل تلك الصناعات بين المسلمين في يثرب وتقدمها بينهم ، وذلك راجع في تقديرنا إلى ما ذكرناه من أن الذي كان ينهض بتلك الصناعة هم اليهود . ولهذا ترى الرسول ﷺ يبيع سبي بني قريظة في نجد ليشتري به سلاحاً للمسلمين ، فلو كان بين المسلمين من قام مقام اليهود في صنع السلاح لما لجأ الرسول ﷺ إلى جلب السلاح من خارج يثرب .

وليس ذلك لقصور في العقلية العربية أو اليثربية كما يحلو لبعضهم تصوره ، وإنما هو بسبب النظرة الخاصة التي كان ينظر بها العرب للمشتغلين بمثل هذه الحرف ، إن العرب كانوا يصنعون من الأشياء ما تضطرهم إليه الحاجة ولا يرون في ذلك ما يخل بكرامتهم ، أما أن يتحولوا إلى صاغة وصناع ينتجون لغيرهم كما ينتجون لأنفسهم ، ويجعلون من هذه الصناعة أو تلك مجلبة لرزقهم ومصدراً لمعيشتهم ، فذلك ما لا يرتضونه ، ولا تقبله نفوسهم التي تسيطر عليها الأنفة ، ويحركها الإباء ، إنهم يرون الصانع على هذا النحو شخصاً مسخّراً للغير ، خادماً للكبير والصغير ، من أجل الحصول على المال ، ولم يكن شيء أقسى على نفسية العربي أن يشعر بأنه مسخّر للغير طوع لإرادته ، وهو الذي تمكن في نفسه حب الحرية الفردية ، وسيطرت عليه الروح الاستقلالية وسدت عليه كل منافذه .

وكما عرف اليثربيون صناعة الأسلحة عرفوا الحدادة ، فصنعوا المساحي والفؤوس والسكاكين والعتلات وغيرها من الحديد ، أما أقفال الأبواب فقد كانت مع مفاتيحها من الخشب ، ولا نستبعد أن تكون على الصورة التي كانت منتشرة إلى عهد قريب في بعض البيئات القروية لدينا ويسمونها الضبّة .

وعرفوا الصفّر أي النحاس ، فصنعوا منه القدور وغيرها من الأدوات ، وتبعاً لهذا عرفوا طريقة تبييضه وجلوه إذا أصابه الصدأ ، ويبدو أنهم كانوا يتخذون منه القدور الكبيرة لتتلاءم مع ما طبعوا عليه من قِرىً وإكرام الضيف ، يقول حسان :

حسبت قدور الصّاد حول بيوتنا   قنابلَ دُهماً في المحلة صُيّما

وعرفوا دباغة الجلود لاستعمالها في الأغراض المختلفة كالغُرُب ، والدلاء الصغيرة ، والقرب في حالة حمل الماء وتبريده ، فقد كانوا يستعملون الدلاء لجذب الماء من الآبار ، كما يستعملونها ويستعملون القرب في تبريد الماء في فصل الصيف ، حيث يقرنون بالحبال الرفيعة رؤوس ثلاث جرائد منسولة السعف أو ثلاثة أعواد من الطرفاء ونحوها ، ويوقفونها مفتوحة الأرجل ، ثم يعلقون عليها الغَرْب أو القربة ليبرد ما فيها من ماء بصدمات الهواء الطبيعي ، ويسمون هذه الآلة حمّارة . وهي وسيلة لا تزال معروفة في بعض الأرياف العربية إلى اليوم ، وتحمل نفس هذا الاسم . وجاء في صحيح[1] مسلم عن جابر في حديثه الطويل عن سيرة النبي ﷺ قوله : فأتينا العسكر ، فقال رسول الله ﷺ : يا جابر ناد بوضوء .. قال : قلت : يا رسول الله .. ما وجدت في الركب من قطرة ، وكان رجل من الأنصار يبرّد لرسول الله ﷺ الماء في أشجاب[2] له على حمّارة من جريد . وفي الصحيح[3] أيضاً عن ثعلبة بن أبي مالك أن عمر بن الخطاب قسم مروطاً بين نساء من نساء المدينة ، فبقي مرط جيد فقال له بعضٌ : يا أمير المؤمنين .. أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب - فقال عمر : أم سليط[4] أحق ، فإنها كانت[5] تزفر لنا القرب يوم أحد .

وكان أهل السعة منهم لا يتخذون نعالهم إلا من الجلود المدبوغة ، قال

---

(١) التراتيب الإدارية ١ : ١٠١ .

(٢) أشجاب : جمع شجب ، وهو ما قدم من الغرب ، أي الدلاء الكبيرة .

(٣) المرجع السابق ١ : ١٠٣ .

(٤) أم سليط : من نساء الأنصار ممن بايع الرسول ﷺ .

(٥) تزفر لنا القرب : تحملها على ظهرها تسقي الناس بها .

صاحب[1] الترتيبات الإدارية : « وكان العرب في الجاهلية يلبسون النعال غير مدبوغة ، إلا أهل السعة منهم ، ولذا استغرب من رأى ابن عمر يلبس النعال السبتية ، وهي التي ليس فيها شعر ، فقال لهم ابن عمر : رأيت النبي ﷺ يلبسها » .

وفي الواقع كان اليثربيون في الجاهلية يستعملون النعال ، والخفاف ، ويسمونها قَسّوباً قال حسان :

ترى فوق أثناء الزرابيّ ساقطاً نعالاً وقسّوباً ورَيْطاً معضداً

هذا وكانوا يستعملون الجلود أيضاً عقداً لربط أقتابهم ، ومقاود لدوابهم ، وغلافاً لأقرابهم وكنائنهم ، وغير ذلك من الأغراض ، وقد كان العسل والسمن والزيت إنما يصل إلى أسواقهم في عكك من جلد مدبوغ . والدباغة على كل حال منها الجيد ومنها الرديء ، ولكنها في عمومها صناعة يعتد بها الجغرافيون في العصر الحاضر ويذكرونها ضمن صناعات البلدان ، وهي بلا شك تحتاج إلى معرفة مواد الدبغ وطريقة خلطها ومزجها ومدة مكث الجلد داخل ذلك المزيج ، وقد اشتهر عند العرب في الدباغة المغرة والقراظ ، فلعلها كانا العنصرين المستعملين في يثرب أيضاً[2] . وقد ثبت أن القراظ كان ضمن تجارة اليثربيين ، واستمر ذلك إلى عهد رسول الله ﷺ ، حتى أن سعد بن عائذ المؤذن لقب بسعد القُرَظ لاتجاره فيه . ثم هم في بعض أحوالهم واستعمالاتهم يجعلون على تلك الجلود خطوطاً مذهبة ، يقول ابن الخطيم[3] :

أتعرف رسماً كاطِّراد المذاهب لعمرةَ وَحْشاً غيرَ موقفِ راكبِ

(1) المرجع السابق : ١ : ٣٦ .
(2) التراتيب ٢ : ٢٧ .
(3) الديوان ص ٧٦ .

ويجعلون منها أيضاً سيوراً يحزمون بها بطون دوابهم كِشدّ للبرادع والسروج ومقابض للجم الخيل وشكائم الحمير وقدداً في أعناق الكلاب المستأنسة ، يقول حسان :

جاءت مزينةُ من عَمْقٍ لتُحْرِجني اخْسَيْ مُزَيْنَ ، وفي أعناقكم قِدَدي

فهو يشبههم بالكلاب التي في أعناقها السيور .

ومما كانوا يدبغونه من الجلود جلد الكتابة ، الذي كان يخضع بعد ذلك لتسوية وحك خاص ، حتى يغدو صالحاً للكتابة ، وقد كتب الرسول ﷺ لمالك الجذامي يدعوه إلى الإسلام في رقعة من أدَم عرضها أربعة أصابع وطولها قدر شبر ، كما كانوا يكتبون إلى جانب ذلك على الرِّق ، وهو ما يرقق من الجلد ليكتب فيه ، ولا شك أن ترقيقه كان يتطلب كثيراً من الفنية وإلا تقطّع وتشقق بين يدي صانعه . وقد كان أهل الصين في تلك العصور يكتبون في رق مصنوعة من الحشيش وعنهم أخذ الناس بعد ذلك صناعة الورق ، وكان أهل الهند يكتبون في خرق الحرير الأبيض ، والفرس يكتبون في الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، وكذلك كانوا يكتبون في اللخاف ، وهي حجارة بيض رقاق ، وفي النحاس والحديد ونحوهما ، وفي عسيب النخل ، وهي الجريد الذي لا خوص له ، وفي عظم الإبل والغنم ، وعلى هذا الأسلوب الفارسي كانت تكتب العرب ، لقربهم منهم ولكثرة مخالطتهم لهم وبخاصة عرب الحيرة ، الذين كانوا يجوبون[1] أرجاء الجزيرة بالتجارة ، ويشتغلون بتعليم الناس القراءة والكتابة ، وقد كان العرب في داخل الجزيرة ـ ومنهم اليثربيون ـ على صلة بالحيرة يسافرون إليها ويتصلون بملوكها بل إن النعمان بن المنذر أسر مرة جماعة من الخزرج هم : أبيّ ونعمان وعمرو ووافد ، ولم يطلق سراحهم إلا لأجل شاعرهم

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي ... ١ : ٣٣ .

حسان بن ثابت الذي تعوّد أن يزوره بشعره ويخصه ببعض مدائحه ، وهو ما عناه حسان بقوله[1] :

فإن تسألي الأقوام عني فإنني ... إلى مَحتِد تَنْمى إليه المحاتِدُ
أنا الزائر الصقرَ ابنَ سَلمى وعنده ... أبَيٌّ ونعمانٌ وعمروٌ ووافِد[2]
فأورثَني مجداً ومن يَجْن مثلَها ... بحيث اجتناها ينقلبْ وهو حامدُ
وجدّي خطيبُ الناس يوم سُمَيْحة ... وعمِّي ابنُ هندٍ مُطعِمُ الطيرِ خالدُ[3]

وقد ذكر حسان ارتحاله للنعمان في قصيدة أخرى أيضاً يرد بها على الشاعر الأوسي قيس بن الخطيم ، منها[4]:

وأُعمِل ذات اللَّوثِ حتى أردَّها ... إذا حُلَّ عنها رحلُها لم تُقَيَّدِ
أُكلِّفها أن تُدْلِجَ الليلَ كلَّه ... تروح إلى باب ابن سَلْمى وتغتدي

واستمرت كتابة العرب بهذه الوسائل إلى أن بُعث النبي ﷺ ونزل القرآن ، وقد أشرنا إلى أنه ﷺ كتب بعض مكاتباته في الأدم . وقد أجمع الصحابة على كتابة القرآن في الرِّق لطول بقائه ، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ ، وبقي الحال كذلك[5] في الدولة الإسلامية إلى زمن الرشيد ، فأمر ألا يكتب الناس إلا في الكاغد .

وفي الواقع كان بالمدينة في العصر الجاهلي عدا هذا عدة صناعات مما كانت تستدعيه حياتهم الزراعية المستقرة ، ومن ذلك غير ما ذكرنا الخرازة وأدواتها من

---

(١) ديوان حسان ص ٦٨ .
(٢) الصقر : المقصود هنا النعمان بن المنذر وهو ابن سلمى .
(٣) يوم سُمَيْحة : يوم كان في الجاهلية بين الأوس والخزرج . وابن هند : هو خالد بن زيد من بني النجار (قوم حسان) وهند : أم خالد .
(٤) ديوان حسان ص ٧٣ وذات اللوث : الناقة القوية .
(٥) التراتيب الإدارية ١ : ١٢٢ .

إبر وأشـافٍ وحلق ، والصبـاغـة ومـا تستتبـع من خبرة بـاستعمال الألـوان واستنتـاجهـا ، والحـدادة والنجـارة والخيـاطـة والغزل والنسيج ، ويشمل ذلـك[1] الأخبيـة والمـلابس ، ولكنهما كانـا فـاشيين في النسـاء[2] ، فـإذا قـالت المرأة : إني صَناع ، فإنما تعني بذلك أنها تعرف الغزل والنسيج ، ففي الصحيح[3] عن سهل بن سعد قال : جاءت امرأة ببردة منسوجة ، قال سهل : أتدرون ما البردة ؟ فقيل : نعم ، هي الشملة منسوج في حاشيتها ، فقالت : يـا رسول الله ، إني نسجت هـذه بيـدي ، فجئت أكسوكَهـا ، فـأخـذهـا النبي ﷺ ... الحـديث ، ولكن معرفتهم لنسيج الملابس وحياكتهـا كانت معرفـة محـدودة ، ولـذا كانوا يستوردون ملابسهم من مختلف البلاد الأخرى كاليمن والشام ومصر ، قال حسان بن ثابت[4] :

الـدار واسعـة ، والنخـل شـارعـةٌ   والبيضُ يرفلن في القَسِّيِّ كالبَرَدِ

قال شراح الديوان : القَسّي : ثياب من كتـان مخلوط ، نسبـة إلى قريـة من قرى مصر تسمى القَسّ .

وعرفت يثرب المنسوجـات القطنيـة والحريريـة والنمارق الملونـة والستـور المرسومة[5] ، ومما يدل على معرفتهم لأنواع الثياب المتعـددة ، المختلفـة لونـاً ونوعـاً ونسيجاً قول حسان :

تنـادوا بليـلٍ ، فـاستقلّت حُمـولُهمْ   وعـالَيْنَ أنمـاطَ الـدَّرْقَـل المُرَقَّمَـا[6]

---

(١) السيرة النبوية للندوي ص ١٤٩ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضري ١ : ٥١ .

(٣) التراتيب ٢ : ٥٨ والبردة : كساء مخطط ، وقيل : كساء مربع أسود

(٤) ديوان حسان ص ٦٣ وشارعة : على نهج واحد . والبيض : النساء . ويرفلن : يجررن أذيـالهن تبختراً .

(٥) مجمع بحار الأنوار ٤ : ٢٥٨ .

(٦) تنـادوا بليل : تنـادوا للسفر هرباً من المطر المشـار إليـه في كلام سـابق . الأنمـاط : الثيـاب المصبغة . الدرقل : ضرب من الثياب . المرقم : الموشى .

عسَجْنَ بـأعنـاقِ الظّبـاءِ وأبْرَزتْ حـواشي بُرودِ القِطْرِ وشيـاً منمنـا[1]

وقال في القصيدة نفسها :

إذا اغبَرّ آفــاقَ السماءِ وأمحلَتْ كأن عليهـا ثـوب عَصْبٍ مُسهَّما[2]

وقال :

لِمنْ منزلٌ عـافٍ كأن رسـومَـه خيـاعيـل رَيْـط سـابريٍّ مُرسَّم

وكانوا يفترشون الزرابي ويتكئون عليها ، وهي غالباً تكون مصنوعة من الأصواف الملونة ، يقول حسان :

ترى فـوق أثنـاء الـزّرابيّ سـاقطـاً نعـالاً وقَسُّوبـاً ، وريطـاً معضـدا

وكان فيها عطارون يبيعون أنواع العطور والمسك ، كما كان فيها من يبيع العنبر والزئبق[3] ، يقول حسان[4] :

تبَلتْ فـؤادَك في المنـامِ خريـدةٌ تَسقى الضجيـعَ ببـاردٍ بَسّـام[5]
كالمسـك تخلِطُـه بمـاء سحـابـةٍ أو عـاتـقٍ كـدم الـذبيـح مُـدام[6]

ويقول :

وإن جئتهم ألفيتَ حـول بيـوتهم من المسـك والجـادي فتيتـاً مبـدَّدا

---

(١) عسجن : مددن . القطر : ثياب من ثياب اليمن . المنمّ : ما كان له خطوط متقاربة . شبه نسج الريح للتراب بالوشي المنمّ .
(٢) العصب : من برود اليمن . المسهّم : المخطط .
(٣) السيرة النبوية للندوي ص ١٤٨ .
(٤) ديوان حسان ص ٢١٤ .
(٥) تبلت فؤادك : أسقمته ، وذهبت بعقله ، والخريدة : الحبيبة الساكنة .
(٦) العاتق : الخمرة .

وإلى جانب تلك المعارف الزراعية وهذه المعارف الصناعية كان لأهل يثرب معارف تجارية أيضاً ، وأعراف تحكمها وأنظمة لها سائدة فيهم ، كما هيأت لهم سبل الاتصال بالبلاد المجاورة والاطلاع على أنماط الحياة لدى الشعوب التي كانوا يتاجرون معها وأتاحت لهم فرصة اقتناء كثير من آلات الحضارة التي كانت تكتنف جوانب الجزيرة من رومية وفارسية ، وذلك أمر طبيعي يكون عادة نتيجة لمثل تلك الاحتكاكات والاتصالات ، وقد تحدثنا في مناسبة سابقة عن أسواقهم التجارية الشهيرة : سوق الجسر - زبالة - العصبة - مزاحم - وجلونا النقاب عن بعض جوانبها وذكرنا أن أكبرها حجماً كانت سوق بني قينقاع ، كما ذكرنا أن هذه الأسواق كانت مرتاداً للأعراب وغير الأعراب من بني سُليم وأهل مكة والطائف وغيرهم ، وذكرنا أيضاً أن اليثربيين كانوا يخرجون بالبضائع إلى مصر والشام يتجرون فيها ويحملون إلى الأسواق منتجات بلدهم من تمور وغيرها بالإضافة إلى ما يقومون فيه بالوساطة التجارية ، ثم يعودون محملين بالخيرات من البضائع الشامية والمصرية كالعسل ، والأقمشة ، والحواري[1] ، والكافور . وفي عهد الرسول ﷺ قدم عمير[2] الثقفي بكافور في جرة خضراء وأهداه إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه بين المهاجرين والأنصار ، وهذا يدل على معرفتهم للكافور ونحوه ، وقد سبق أن أوردنا قول حسان :

ألا دفنتم رسول الله في سفَطٍ من الألُوّة والكافور منضود

كما يدل من ناحية أخرى بما لا يقبل التأويل على معرفة الصحابة بالذات له ، وبذلك يبطل قول بعضهم : إن المسلمين لما دخلوا قصر المدائن حين فتحوها ووجدوا الكافور فيما وجدوه داخل القصر ظنوه ملحاً لبياضه ووضعوه على

---

(١) الحواري : السميد . أو دقيق القمح الصافي المستخرج النخالة .

(٢) التراتيب ٢ : ١٠٣ .

طعامهم ، إننا لا نشك في أنها فرية شعوبية هدفت إلى الحط من شأن العرب والغض من قدرهم ، واتهامهم بالجهل والبعد عن الحضارة . هذا مع احتمال أن يكون فعل ذلك بعض أفراد الجيش من الأعراب .

وكان اليثربيون يتعاملون في تجارتهم أكثر ما يتعاملون بالمكاييل على عكس أهل مكة الذين كان أكثر تعاملهم بالموازين ، ولذا قال[1] ﷺ فيما رواه النسائي وأبو داود عن ابن عمر : « الميزان ميزان أهل مكة والمكيال مكيال أهل المدينة » .

وكانت أشهر المكاييل المستعملة لديهم هي الصاع ويزن الصاع $\frac{٢}{٥}$ ٣٤٤٠٦ شَعيرة من الشعير المتوسط المقطوع الأطراف ، يقول أبو قيس بن الأسلت :

لا نألم القتل ونجزي به الأعـ ـداء كيل الصاع بالصاع

وهو مقدار أربعة أمداد بمده ﷺ ، وفي القاموس : هو أربعة حفنات بكفي الرجل الذي ليس بعظيم الكفين ولا صغيرهما ، إذ ليس كل مكان يوجد فيه صاع النبي ﷺ ، قال الفيروز أبادي فجربت ذلك فوجدته صحيحاً .

والوسق وهو ستون صاعاً ، والمد ويزن رطلاً وثلثي رطل .

وأما الأوزان التي عرفت لديهم في عهود متفاوته أخذاً من مكة وغيرها فقد ذكر منها صاحب التراتيب الإدارية عشرة هي : الدرهم والدينار والمثقال والدانق والقيراط والأوقية والنسٌ والنواة والرطل والقنطار . ثم فسر المشهور منها على النحو التالي :

أ ـ الدرهم : كانوا يتعاملون بأنواع[2] كثيرة من الدراهم ، بعضها فارسية وبعضها رومية ، وبعضها قطع فضة غير مضروبة ولا منقوشة ، والدراهم المعروفة الوزن ثلاثة أنواع هي :

---

(١) السيرة النبوية للندوي ص ١٤٦ .

(٢) التراتيب ١ : ٤١٤ ـ ٤١٥ .

(١) السوداء الدامية ، ووزن الدرهم منها ثمانية دوانق .

(٢) الطبرية ، ووزن الدرهم منها أربعة دوانق .

(٣) الدرهم الشرعي . ووزنه ستة دوانق ، وكل عشرة منه تزن سبعة مثاقيل وهو الدرهم المقصود عند الإطلاق ، كما يزن خمسين حبة وخمس الحبة من الشعير المتوسط المقطوع الأطراف ، وهذا بالطبع إسلامي .

ب ـ الدينار : وكان من الذهب ، ووزنه $\frac{١٠}{٧}$ من الدرهم المذكور . ومن الدنانير التي كانوا يتعاملون بها دنانير كانت تأتيهم من أيلة وهي المعروفة الآن بالعقبة ، يقول أحيحة[١] :

فما هِبْرزيّ من دنانير أيلةٍ بأيدي الوُشاةِ ناصعٌ يتآكلُ

ج ـ الرطل ويزن مائة وثمانية وعشرين درهماً ، وأربعة أسباع الدرهم ، وهو تسعون مثقالاً .

د ـ النواة : وهي من الذهب على شكل نواة التمر ، واسم لمقدار من الوزن كان عندهم كما هو عند غيرهم ، ويبدو أنه أقل من الدرهم .

ثم عقب على ذلك بأن الخزاعي تكلم في المكاييل والموازين الشرعية والمستعملة قبل ذلك في الجاهلية كلاماً جيداً مفصلاً لم يتح لأحد أن يكتب مثله .

وكان أهل المدينة وقت مقدم النبي ﷺ يتعاملون بالدراهم الفضية والدنانير الذهبية كنقود ، بالإضافة إلى استعمالها كموازين ، بل إن الاستعمال الأساسي لها إنما كان هو الجانب النقدي ، ثم أعطيت الأشياء قيمة أوزانها منها على هذا الأساس ، وكانت أغلب الدراهم والدنانير الشائعة بينهم من الروم وبلاد الشام

---

(١) ديوانه ص ٣٧ ـ ٣٨ .

وبعضها من بلاد فارس ، وكان الروم يرسمون على عملتهم صورة الملك ويكتبون عليها اسم الذي ضربت في أيامه بلغتهم الرومية ، ولذا كانت تلك العملة تدعى في يثرب في الجاهلية والإسلام بالهرقلية[١] ، قالت عائشة لبريرة في قصة شرائها : (إن شاء أهلك أن أعدها لهم عدة واحدة) فعدت الدراهم .

وكان التمر وبخاصة أيام الجدب وتخلف الأمطار يتبادل به أهل يثرب في البيع والشراء مكان العملة الفضية والذهبية .

وقد هيأ نشاطهم التجاري لنشوء علاقات من البيع والشراء بينهم وأنماط من التعامل التجاري التي أمضى الإسلام بعضها وأبطل بعضها الآخر ، ومن ذلك المراهنات التي كان يتزعمها بصفة خاصة اليهود ، فقد كانت[٢] معاملاتهم مع غيرهم قائمة في معظمها على أخذ الرهائن من المقترضين وتعاطي الربا بأنواعه ، وحيث إن البيئة زراعية في المكان الأول فقد وجد اليهود فيها مكاناً خصباً لهذا النوع من التعامل ، لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال إلى حين الحصاد ، كما كان بعض التجار أيضاً يحتاجون إلى الاقتراض أحياناً للنهوض بتجارتهم أو لإتمام رحلة من رحلاتهم التجارية ، وقد جاء في قصة كعب بن الأشرف التي رواها الإمام[٣] البخاري في صحيحه ، أنه قال له محمد بن مسلمة : قد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين ، فقال : نعم . . ارهنوني ، قالوا : أي شيء تريد ؟ قال : ارهنوني نساءكم ، قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ، قال : فارهنوني أبناءكم قالوا : كيف نرهنك أبناءنا ؟ فيسب أحدهم فيقال : رهن بوسق أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكننا نرهنك اللأمة . وهكذا لم تقتصر الرهائن على

---

(١) كان المهاجرون والأنصار يصلُّون بهذه الدراهم والدنانير مع إثبات صور الملوك عليها ، ولا يتنزهون عن ذلك ، كما هو الحال في العملة الحالية وذلك دليل الجواز .

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة للدكتور محمد سيد الطنطاوي ٨٠ ـ ٨١ .

(٣) رواها البخاري في كتاب المغازي (باب قتل كعب بن الأشرف) .

العقارات ونحوها ، بل تعدتها إلى رهن النساء والأبناء ومن شأن هذا النوع من المراهنات أن يزرع الأحقاد ويخلف الضغائن . وقد عرف الشاعر أحيحة بن الجلاح سيد الأوس بالحرص على المال ، ولذلك كان يبيع بيع[1] الربا في يثرب ، ويأخذ الرهائن المالية ، حتى كاد يحيط بأموالها وبلغت آباره التي تنضح عليها تسعاً وتسعين بئراً عدا حوائط النخل الأخرى .

ولم يكن الربا رغم تفشيه في يثرب وبخاصة عند اليهود منتشراً بدرجة تجعله سمة من سمات أهلها المميزة ، بل كان يشاركها في ذلك مكة والطائف ، إن لم يكونوا يفوقانها كثيراً ، فقد كانت ثقيف بالطائف كثيراً ما تموّل القوافل القرشية في رحلاتها التجارية على أساس ربوي محض ، كما أن كتب السيرة[2] تروي أن أبا وهب بن عمرو المخزومي قال لقريش حين بنائها الكعبة : يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ، فلم يتجمع لهم من المال النظيف ما يستطيعون به بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ، واضطروا إلى اختصار جزء منها ، وهو الجزء المعروف الآن بحجر إسماعيل ، فأية حياة ربوية هذه التي كانوا يعيشون ؟ وقد كان العباس عم الرسول ﷺ أول المرابين في الجاهلية كما تدل عليه خطبته ﷺ في حجة الوداع .

ومما عرف عند اليثربيين أيضاً الاحتكار ، وهو حبس ما به قوت الناس وحياتهم من السلع ، من البيع بقصد إغلائه وارتفاع ثمنه واصطياد الفرصة لبيعه بذلك السعر الغالي ، الذي يدر عليه الربح الوفير ، فكان المحتكر يتردد على السوق ليشتري منها الطعام الذي يحتاج إليه الناس من غير حاجة إليه ، وإنما

---

(١) الأغاني ١٥ : ٤٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ١٩٤ .

ليحبسه بغية إغلائه ، ولا شك أن في ذلك مضايقة كبرى لأهل السوق وأنه من أقرب الطرق للثراء السريع ، وعن سعيد بن المسيب ، عن معمر بن عبد الله العدوي : أن النبي ﷺ[1] قال : « لا يحتكر إلا خاطئ » أي آثم . وكان معمر من محتكري الزيت .

ومن ذلك النجش ، وهو في اللغة تنفير الصيد واستثارته من مكانه ليصاد ، قال : نجشت الصيد أنجشه نجشاً ، وفي الاصطلاح هو الزيادة في السلعة بغير قصد شرائها . وقد نهى الإسلام عن هذا النوع من البيع واعتبره ضرباً من الربا ، فعن ابن عمر[2] قال : (نهى النبي ﷺ عن النجش) وهناك أنواع مختلفة من التعامل التجاري ، كتلقّي الركبان وبيع المُصرَّاة وبيع حاضرٍ لبادٍ .

وهو تعامل كان ينظم علاقاتهم ويدخل في أعرافهم ، ويدل على المستوى العام لثقافتهم إذ موقف المرء من الأنظمة وتفاعلُه معها يعتبر أسلوبا للتعايش الثقافي مع الأمة التي يعيش بين ظهرانيها .

كما أن مجموعة هذه الأنظمة التجارية تعطي دلالة واضحة عن المحتوى الثقافيّ للجماعة اليثربية ، وتُلقي الضوء على اتجاه تلك الثقافة ، وتشير إلى العقلية التي تحكمها أو تقبل بسيادتها ، وبالتأمل يظهر أنها كانت تسير في اتجاه فردي أناني يفكر خلاله كل واحد في غِناه الشخصي وكسبه الذاتي دون اهتمام بالجماعة ، فلا يمكن أن نتصور مرابياً يفكر في غير انتقال المال من يد الناس إليه ، ولا يمكن أن نتصوره يهتم بسعادة الآخرين أو صلاح أحوالهم المعيشية ، بل يكون كل همه ـ فيما نعلم ـ الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من المال . فإذا دافع عن المجموعة في يوم من الأيام فإنما بدافع من المحافظة على وضعه المريح وفرص كسبه .

---

(١) نيل الأوطار ٥ : ٢٤٩ .

(٢) نيل الأوطار ٥ : ١٨٧ .

ومن جهة أخرى يعطينا هذا الاتجاه مؤشراً على سيادة النظرة المادية بين أفراد المجتمع اليثربي ، ونضوب القيم الروحية التي تخفف عادة من ضراوة المادية وتحد من انسعارها ، وهم في الواقع لم يزيدوا في هذا على أن كانوا نموذجاً لما كان حولهم من مجتمعات يحكمها المنطق الجاهلي القبلي والبعد عن رسالات السماء ، أما اليهود فإن دناءة نفوسهم وخبث طواياهم وحقدهم عمن سواهم ، طمس فيهم منابع الوحي ودنّس بداخلهم صفاء الروح ، ولم ينعكس في سلوكهم وبالأحرى في سلوك جيرانهم من الأوس والخزرج : أي معنى من معاني السماء ، ولم يحس اليهود في يوم من الأيام بالمواطنة اليثربية ، بل كانوا يحيون فيها حياة المتوثب المتربص بأهلها .

وقد ظلت الحياة في يثرب فردية مادية ، وهذا ما عطل بعض الومضات الثقافية عن الظهور بين الأوس والخزرج وأفقدها المناخ الملائم للنمو والتطور . فما أن ظهرت فكرة الوحدة في بني سِلمة بتأسيس إمارة تضم فخوذها الخمس تحت رئاسة أمّة بن حرام حتى وجدت من يعارضها وينهض لتقويضها ، ولذا لم يكتب لهذه الإمارة الاستمرار ، بل انتهت بموت أمّة . وكذلك فشلت فكرة الوحدة العامة بمجرد موت ابن الإطنابة ، ومع ذلك فقد ظلت فكرة الوحدة تراودهم ، فلما جاء رسول الله ﷺ المدينة كانوا ينظمون الخَرز لتتويج عبد الله ابن أبيّ بن سلول عليهم ، وقد يكون نزوعهم إلى تأسيس الإمارة أو الملكيّة ناتجاً عن تأثُّرهم بالأمم المتاخمة للجزيرة العربية التي كانوا يزورونها في أسفارهم وحركاتهم التجارية ، حيث كانوا يرون ما تورثه تلك الأنظمة الحكومية من خير ورخاء ، وما توفره لأهلها من أمن وطمأنينة ، وقد يكون منبعثاً عن أحاسيس حضارية ذاتية محضة ، وشوق أصيل إلى الوحدة ، ولكن ذلك الحلم بغض النظر عن دوافعه لم يتحقق ، ولم يستطيعوا أن يترجموه إلى واقع عملي ، وذلك راجع في نظرنا إلى هذا الطابع الثقافي الفردي المادي من ناحية ، وإلى ما كان يبثه اليهود

بينهم من دسائس ، كثيراً ما أدت إلى التباعد والفرقة ، وفي بعض الأحيان قد تؤدي إلى الحروب .

ولإتمام الصورة الثقافية للمجتمع اليثربي لا ينبغي أن نقصر الحديث عن معارفهم الزراعية والصناعية والتجارية ، وهي الجوانب التي تحدثنا عنها إلى الآن ، بل لا بد أن نلم بجوانب أخرى حيوية هامة من مظاهر حياتهم الثقافية .

فقد كانت لهم إلى جانب ذلك أيضاً معرفة عامة بجميع علوم[1] عصرهم التي كانت شائعة في البيئات العربية الأخرى ، البدوية منها والحضرية ، وهي في عمومها تدور حول علم الأنساب والأنواء والتوارُيخ وتعبير الرؤيا وبيطرة الحيوان ، وبعض الطب الممزوج بالكهانة ، وسياسة الخيل ، ومن الخيول المشهورة للخزرج[2] : القتاديّ والتّرياق . يقول إبراهيم بن بشر الأنصاري ، ينسب خيول قومه ويردها إلى نسب أصيل :

بين القتاديّ والترياق نسبتُها جرداءُ معروقة اللَّحْيَيْن سُرْحُوبُ

وقد سبق أن قلنا ، إنهم لم يكونوا أمة تدوين للعلوم كالفرس أو الروم ، وإنما هي المعارف المتوارثة المروية تمليها الحاجة وتقتضيها الظروف .

وقد أكسبتهم حاجتهم إلى المطر ملاحظة دائمة للجو وتقلباته ، صحيح أنه لم تكن لديهم مراصد علمية لمتابعة تغيراته ، ولم يكونوا يملكون وسائل أو آلات للاستعمال في ذلك ، ولكنهم كانوا مع هذا قادرين على التنبؤ بكل التغيرات الجوية ، كالتبشير بقرب المطر ، والإنذار بالجدب ، اعتماداً على التجارب ، وقلَّما كانت تخطئ تنبؤاتهم في ذلك ، كانوا يستدلون فيها بالرياح ، وأشكال السحب ، وبالأنواء .

---

(١) المختصر في تاريخ البشر ١ : ٩٩ .

(٢) أنساب الخيل لابن الكلبي ص ١١٧ .

وقد كان العرب قسموا المنطقة التي تتقلب فيها الشمس والتي حددها العلم الحديث بسبع وأربعين درجة ، إلى اثني عشر قسماً ، وسموا كل قسم برجاً ، وربطوا كل برج بشهر من شهور السنة ، ثم إن هذه البروج منها ستة في جنوب الدائرة الاعتدالية وستة في شمالها ، ثم نظروا إلى شكل الكواكب المكونة لتلك البروج ، فسموا كل برج باسم ما تخيلوا تلك الكواكب تمثله ، فالتي في الشمال هي الحَمَل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة . والتي في الجنوب هي الميزان والعقرب والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . وقد جمع بعض المتأخرين هذه البروج شعراً فقال :

حملَ الثورُ جوزةَ السرطان ... ورَعى الليث سنبلَ الميزان
ورمَى عقربٌ بقوس لجدْيٍ ... نزح الدلو بركة الحيتان

وقد أيَّد القرآن الكريم جريان الشمس في بروجها فقال : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وقال تعالى أيضاً : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ .

وتخيل العرب من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية أشكالاً أخرى ، وهي التي يتقلب فيها القمر في مدة دورته ، وقسموها إلى ثمان وعشرين منزلة ، لكل منزلة ليلة ، ولكل برج من البروج الشمسية منزلتان أو ثلاث . وجاء القرآن بعد ذلك مؤيداً فكرة المنازل القمرية فقال : ﴿ والقمرَ قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾[1] ، وهذه المنازل عندهم هي الشرطان ، قال حسان[2] :

رُبَّ لهْوٍ شهدْتُه ، أمَّ عمرو ... بين بيضٍ نواعمٍ في الرِّياط
مع ندامَى بيضِ الوجوه كرامٍ ... نُبِّهُوا ، بعد خَفقة الأشراط[3]

---

(١) يس : ٣٩ .

(٢) ديوان حسان ص ١٣٧ .

(٣) خفقة الأشراط : أراد سقوط الشرطين ، في آخر الليل ، وهما قرنا الحمل ثلاثة أنجم ، =

والبطين ـ النجم وهو الثريا ـ الدبران ـ الهقعة ـ الهنعة ـ الذراع ـ النثرة ـ الطرف ـ الجبهة ـ الخراثان ـ الصرفة ـ العواء ـ السماك ـ الغفر ـ الزباني ـ الإكليل ـ القلب ـ الشولة ـ النعائم ـ البلدة ـ سعد الذابح ـ سعد بلع ـ سعد السعود ـ سعد الأخبية ـ فرع الدلو المقدم ـ فرع الدلو المؤخر ـ الحوت .

وبعد انتهاء الأيام الثمانية والعشرين يبتدئ القمر دورة جديدة في نفس تلك المنازل ، حتى إذا أتم ثلاث عشرة دورة كان تمام السنة الشمسية . وكل هذه المنازل عبارة عن نجوم يمر القمر بها أثناء دورته الشهرية ، فكأنه ينزل بها ويقيم ليلته تلك .

وقد كان العرب يربطون بغروب تلك النجوم وشروقها كل التغيرات الجوية ، فإذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً ، وفي كل ثلاثة عشر يوماً نوء جديد ، وإذا نسبوا المطر نسبوه إلى نوء معين فقالوا : مُطرنا بنوء كذا وهو النوء الساقط ، يقول حسان[1] :

أجِدَّكَ لم تهتجْ لرسْمِ المنازل ... ودارِ ملوكٍ ، فوق ذات السلاسل[2]
تجود الثريّا فوقها ، وتضمّنت ... لها بَرَداً يذْرِي أصولَ الأسافلِ[3]

وقد نهى الإسلام عن نسبة المطر إلى الأنواء ، واعتبره نوعاً من الشرك بالله ، والصحيح هو نسبة المطر للخالق وحده .

وكانت لهم أسجاع محفوظة يضبطون بها بعض ما يتبع النوء من الحوادث الجوية ، كقولهم : (الصرفة باب الدهر) ، لأنها لا بد أن تعقب حراً أو برداً ،

= والشرطان قرناه ، ثم البطين ، ثم الثريا وهي إليته .

(١) ديوان حسان ص ٢١٠ .

(٢) ذات السلاسل : اسم موضع .

(٣) تجود الثريا : أراد تمطر بنوء الثريا ، ويذري أصول الأسافل : أي أنه برد يكسر الشجر .

(وإذا طلعت العواء جثم الشتاء وطاب الصلاء) ، إلى غير ذلك من الأسجاع .

ومن استدلال العرب بالرياح وأشكال السحب ما رواه صاحب الأغاني ، قال : خرج أعرابي مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعي غنم لها ، فقال الشيخ : إني أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعي رأسك فانظري . فقالت : أراها كأنها ربْرب معزى هزْلى ، ثم قال لها بعد ساعة : إني أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعي رأسك فانظري ، قالت : أراها كأنها بغال دُهم تجرّ جلالها ، قال : ارعَيْ واحذري ، ثم قال لها بعد ساعة : إني لأجد ريح النسيم قد دنا فانظري ، قالت : أراها كأنها بطن حمار أصحر[1] ، فقال : ارعَيْ واحذري ، ثم مكث ساعة وقال : إني لأجد ريح النسيم فما ترَيْن ؟ قالت : أراها كما قال الشاعر :

دانٍ مُسفٌّ فويق الأرض هيْدبه ... يكاد يدفعه من قام بالرّاح[2]

كأنما بين أعلاه وأسفله ... ريط منشّرة أو ضوء مصباح[3]

فمن بمحفله كَمْنٌ بنجوته ... والمستكنُّ كمن يمشي بقرواح[4]

قال : انجي لا أبالك . فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما .

وفي بيطرة الحيوان عرفوا كل جزء داخلي أو خارجي في الحيوانات المستأنسة لديهم ؛ كالجمال والخيول والأبقار والحمر الأهلية والكلاب ، والحيوانات الوحشية التي كانت تعيش في جبالهم وصحاريهم ، كالظباء والوعول والأبقار الوحشية والحمر الوحشية ، والأسود والنمور والذئاب ، واستغلوا تلك المعرفة لتطبيبها بتجبير كسورها وكي مواطن العلة فيها ، وشرطها وفصدها ، وعلاج ما يصيب ذوات الحوافر والأخفاف والأظلاف ؛ كالحفاء والوجي وغيرهما ، واستفادوا من أوبارها

---

(١) أصحر : أُشْرِب لونُه حمرة خفيفة .

(٢) المسف : الداني من الأرض . والهيدب : السحاب المتدلّي الذي يدنو من الأرض ويُرى كأنه خيوط عند انصبابه .

(٣) الريط : الملاءة ، وكل ثياب لينة .

(٤) القرواح : الأرض البارزة للشمس ، ليس يسترها من السماء شيء .

وأشعارها وأصوافها وألبانها ، كما استفادوا من مشتقات تلك الألبان كالزبدة والجبن والأقط والمضير والسمن وغيرها ، وقد كان الأقط ضمن ما ذكره الرسول ﷺ مما تصرف منه زكاة الفطر ، كما استفادوا من هذه المعرفة الدقيقة في إصابة مقاتل الوحشية منها غير المستأهلة ، لاتقاء شرها إن كانت ضارية ، وللاستفادة من لحومها إن كانت مما يصاد ، والقواميس اللغوية حافلة بالمفردات العديدة التي تدل على هذا الجانب الدقيق من المعرفة عند العرب ومنهم سكان يثرب .

وكما كانت لهم معرفة بأعضاء الحيوان وأجزاء جسمه كانت لهم معرفة مماثلة لأعضاء جسم الإنسان ، وكان لهم تبعاً لذلك طب بشري ، كان من وسائله القطع والكي وشرب بعض مغليات أو منقوعات بعض الأعشاب ، وسمي من يشتغل بذلك أطباء ونطّاسيين ، ولكن طبهم كان في عامته بدائياً مشوباً بالعرافة ، يقوم به بعض الأحيان النساء ، وعندما أراد عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله بعد خروج القدح عليه كما هو معروف في كتب السيرة[1] ، قامت قريش كلها من أنديتها تهيب به ألا يفعل ، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند إلههم هبل عذراً ، وتردد عبد المطلب لدى إلحاحهم ، وسألهم أن يبحثوا معه عن طريقة تتفق مع مشاعره الأبوية في إبقاء ابنه حياً ، وتُرضِيَ الآلهة فلا تغضب عليه ، قال المغيرة بن عبد الله المخزومي : إن كان فداؤه بأموالنا فديناه ... وتشاور القوم ، فاستقر رأيهم على الذهاب إلى عرّافة بيثرب ، لها في مثل هذه الأمور رأي ، وجاؤوا العرافة ، فاستمهلتهم إلى الغد ، ثم قالت لهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل . قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا عشراً من الإبل ، واضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يَرضى ربكم ، فقبلوا برأيها ، ورجعوا إلى قومهم مقتنعين بفكرتها وعملوا بها ، وكان من أمرهم ما كان .

---

(١) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٠٠ .

ومن علومهم التجريبية أيضا القيافة ، وهي نوعان ::

١ ـ تتبع الأثر ، والاستدلال منه على صاحبه ، وتعدت معرفتهم في ذلك نطاق معرفة أثر الإنسان إلى معرفة أثر الحيوان ، كما كانوا يفرقون بين أثر الرجل والمرأة ، والبدوي والحضري ، وكانت هذه المعرفة تساعدهم في التعرف على لصوص الدور والمزارع ومواشيهم في المراعي ، ولما جاء الإسلام لم يلغ هذا العلم بل شجعه واعتمد عليه في إظهار الجنايات وفاعليها ، وقلما كان أولئك القائفون للأثر يخطئون ، بل إن تعرفهم بها على الجناة لا يقل دقة وصدقاً عن تعرف علماء الإجرام اليوم عليهم بوساطة البصمات .

٢ ـ الفراسة ، أو الاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه ، ولم يكن اليثربيون مشهورين في هذا كشهرة عرب البادية مثل بني مدلج قوم سراقة ـ مثلاً ـ ولكنهم كانوا من المتوسمين ، ولم يزل أهل المدينة إلى اليوم معروفين بالبراعة في تمييز الأجناس المختلفة من الشعوب الإسلامية ممن يؤمون مدينتهم لزيارة المسجد النبوي ، يعرفونهم بمجرد النظر دون أن يتكلموا ودون اعتماد على الزي ، بل وأكثر من ذلك يستطيعون أن ينسبوهم إلى قراهم في كثير من الأحيان ، كل ذلك اعتماداً على تقاطيع أجسامهم وتكوين أبدانهم ، فإذا انضم إليها الزي واللغة ، كان تعرفهم أوكد وأهدى ، ومن أعجب ما كان لدى اليثربيين وغيرهم من العرب الجاهليين في هذا الباب ، أنهم كانوا يجيئون بالرجل وولده ، ويغطون جميع بدنها ما عدا أقدامها . ثم ينظر القائف فيحكم حكماً فصلاً ، قائلاً : هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحاً ، وينفي هذا النسب إن لم يجد تشابهاً ، دون اعتبار لتشابهها في اللون أو اختلافها فيه . ولم يلغ الإسلام أيضاً هذا النوع من القيافة ، بل رضيه النبي ﷺ وسر به في قضية أسامة بن زيد ، فقد كان زيد رضي الله عنه أبيض اللون وجاء في ابنه أسامة مسحة من سواد ، وولغ بعض الناس في نسبه منه وأصاب الرسول ﷺ من ذلك

ضيق شديد ، ثم صادف أن كان الأب وابنه نائمين وعليهما غطاء يسترهما ما عدا أرجلهما ، ومر أحد قافة العرب في شأن له بالمدينة عليهما وهما على تلك الحال ، فوقف ملياً ينظر إلى أقدامهما ، ثم رفع رأسه إلى السماء واسترجع ثم قال : سبحان الله .. هذه الأرجل السوداء من هذه الأرجل البيضاء ، فسر الرسول ﷺ لقول هذا القائف واعتبر حكمه نهائياً قاطعاً في قضية نسب أسامة ، واقتنع بهذا الحكم كل أهل المدينة آنذاك . ولا يزال كثير من الفقهاء يجعلون هذا النوع من القيافة وسيلة من وسائل الحكم في الأنساب إذا ادعى المدّعون .

والنتيجة من هذا كله أن العرب كانوا أمة لا تغفل عن ملاحظة كل ما يرد على حواسها من الحوادث والأشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها في حياتها ، ونباهة الأمة وذكاء ملاحظتها أس من أساس رقيها وحضارتها القائمة على رجاحة العقل ونصاعة التفكير ، إذ التفكير في ذروته لا يزيد عن كونه حركة ذهنية قائمة على التتبع والاستقراء ، تستخدم معلوماً أو عدة معلومات لاستخلاص مجهول أو عدة مجهولات ، وهذا بلا شك وضع عقلي متوفر لدى اليثربيين ، ولذلك نراهم يهمهم من الرجل نضج عقله واستواء تفكيره ، ويَهجُون أشد ما يهجون بخفة العقل وطيش الحلوم ، يقول حسان يهجو بني سليم بن منصور[1] :

لقد غضِبَتْ جَهْلاً سُلَيْمُ سفاهةً	وطاشت بأحلام كثير عُثورُها
لئامٌ مساعيها ، كذوبٌ حديثُها	قليلٌ غَناها حين يُنعَى صُقورُها[2]
لها عقلُ نسوانٍ ، وشرُّ شريعةٍ	نَزُورٌ نَداها حين تُبْغَى بُحورُها

ومن مظاهر حضارة اليثربيين أنهم كانوا لا يقتصرون في أبنيتهم على الطابق الواحد ، وقد مر بنا أنهم كانوا يبنون إلى أربعة أدوار ، وفي هجرته ﷺ إلى

(١) ديوان حسان ص ١١٥ .

(٢) صقورها : أراد سادتها .

المدينـة نزل على أبي أيوب الأنصـاري ، يقول أبو أيوب[1] من روايـة ابن إسحـاق معنعناً : « لما نزل علي رسول الله ﷺ في بيتي ، نزل في السفل[2] ، وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت لـه : يـا نبي الله ، بـأبي أنت وأمي ، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقـك ، وتكـون أنت تحتي ، فـاظهر أنت فكن في العلـو ، وننزل نحن فنكـون في السفل ، فقـال : يـا أبـا أيوب ، إن أرفقَ بنـا وبمن يغشـانـا ، أن نكون في سفل البيت ... الحديث » .

وكانـوا يجعلـون لبيـوتهم مشرفـات[3] ، ونعرف ذلـك من الخبر الـذي أورده صـاحب الأغـاني[4] : (قـال حسـان بن ثـابت للخنســاء[5] (الشـاعرة) اهجي قيس بن الخطيم ، فقالت : لا أهجو أحداً أبـداً حتى أراه . قـال : فجـاءتـه يومـاً فوجدته في مشرفـة ملتفـاً في كسـاء لـه ، فنخستـه برجلهـا وقـالت : قم ، فقـام ، فقالت : أدبر ، فأدبر ، ثم قالت : أقبل ، فأقبل . قال : والله لكأنها تعترض عبـداً تشتريـه ، ثم عـاد إلى حـالـه نـائمـاً ، فقـالت : والله لا أهجو هـذا أبـداً) ، ولعل الخنساء لم تفعل لما رأت من جمال قيس بن الخطيم ، فقـد كان أجمل أهل يثرب في عصره ، مقرون الحـاجبين ، أدعـج[6] العينين ، أحمر الشفتين ، براق الثنـايـا كأن بينهما برقاً ، ما رأته حليلة رجل قط إلا ذهب عقلها واشتهت أنـه زوجهـا . هـذا إلى ما رأت منه من عدم مبالاته بما فعلت ، إكراماً لها وثقة بنفسه . ومما يساعدنـا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٤٩٨ ـ ٤٩٩ وصحيح مسلم في كتاب الأشربة (باب إباحـة أكل الثوم) والسيرة النبوية لابن كثير ٢ : ٢٧٧ .

(٢) السفل : أي الطابق الأرضي ، ولا يزال هذا اللفظ لغة أهل المدينة اليوم .

(٣) المشرفـة : بتثليث الراء ، مـوضـع للقعـود في الشمس في الشتـاء ، أو للجلـوس فيـه في الليـالي المقمرة ، والهروب من الحر ، تكون عـادة أمـام مـدخـل البيت ، فهي كالصفـة أو الـدكـة بين يديه .

(٤) الأغاني ٣ : ١١ .

(٥) كانت الخنساء كغيرها من قومها بني سليم تزور يثرب وتختلط بأهلها .

(٦) أدعج العينين : شديد سوادهما مع اتساع .

على التعرف على معارفهم العمرانية هذه الآطام التي تخصصوا فيها وعرفوا بها ورأينا كيف أن أحيحة بن الجلاح أرسل إلى أهل الطائف أحد البنائين اليثربيين يعلمهم كيف يصنعونها في بلدهم . ومن جهة أخرى فقد عرف اليثربيون في قراهم المختلفة نظام الشوارع والأزقة .

حقاً إن يثرب كانت تعيش في غضارة من الحياة ، وبلهنية من العيش ، ويتمتع أهلها بقسط كبير من الحضارة والمدنية والثقافة ، إن لم يستطيعوا أن يضاهوا فيه الفرس والروم أو يصلوا مكانة قريبة منهم ، فإنهم كانوا يمثلون إحدى المراكز الحيوية في الجزيرة العربية ، ولم يكن تقصيرهم عن مدى الفرس والروم عن تأخر في الطبيعة أو عقم في التفكير ، وإنما هي سنة الحياة في مراحل التطور الاجتماعي كما قلنا ، ولقد كان للعرب بما فيهم اليثربيون دورهم المضيء المشرق بعد ذلك حينما واتت الظروف وأسعفت الأيام ، فقاموا بما ندبوا أنفسهم له خير قيام وبرهنوا للعالم كله عن عقليتهم المتفتحة وفكرهم المنتج البناء .

ولا يفوتنا ونحن بصدد إنهاء الحديث عن الحالة الثقافية التي كانت عليها يثرب في العصر الجاهلي أن نتحدث عن ناحية أخرى مكملة للصورة كاشفة عن جانب آخر من شخصيتهم ، غير ما تحدثنا عنه من حياتهم الجادة ، ذلكم هو اللهو والألعاب لديهم ، وقد تحدثنا في الحياة الاجتماعية عما كان لديهم من مجالس اللهو والغناء ونضيف هنا أنه كان لهم يومان يلعبون فيهما وينصبون الزينات ويرقصون في الساحات رقصات الفرح والحرب ويتبادلون فيهما التهاني فلما قدم النبي ﷺ يثرب أبطلهما وبدل بهما العيدين ، قال فيما روى الشيخان : (قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما : يوم الفطر والأضحى) ، وقد ذكر شراح الحديث أن هذين اليومين هما النيروز والمهرجان ، وهما كما هو معروف من أعياد الفرس ، وهذا يؤكد من جهة أخرى ما ذهبنا إليه من صلة اليثربيين بالفرس في العصر الجاهلي .

كما كانوا يتلهون بسباق الجمال والخيول ويتلهى أبناؤهم باللعب بالعصافير والنغارى التي عرفت بها يثرب ، وهي طيور تشبه العصافير ذات منقار أحمر ، فعن أنس رضي الله عنه قال[1] : (إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير : يا أبا عمير ما فعل النُغَيْر ؟) .

كما كانوا يلعبون بكرة هي عبارة عن حشيّة مكوّرة مشدودة بخيوط الشعر المفتولة شداً ، يتداولونها بينهم بعصي النخل المعقوفة بعد أن يقسموا أنفسهم إلى فريقين ويعينوا نهايتي الحلبة ، ولا تزال هذه اللعبة معروفة إلى الآن في بعض الأرياف العربية ، ويعتقد الكثيرون أن لعبة الجولف الأوربية لا تزيد عن كونها تطويراً لهذه اللعبة التي ربما اقتبسها الأوربيون من أحد الأقطار العربية وجعلوا منها لعبة رياضية عصرية مثيرة ممتعة .

ومن وسائل لهوهم أيضاً اللعب بالأرجوحة[2] ، وهي حبل يعلق ويركبه الصبيان كما قال الفيروز أبادي ، وقال في المصباح : هي خشبة توضع من وسطها على تل ويعلق غلامان على طرفيها ، وتترجح أي تميل تارة بهذا وتارة بهذا ، ولا مانع في نظرنا أن يكون النوعان مستعملين لديهم ، والغالب أن يكون الحبل في النوع الأول مربوطاً طرفه الأول بجريدة نخلة وطرفه الثاني بجريدة نخلة مقابلة ، وكلتا اللعبتين ما زالتا في بعض الأرياف العربية الآن .

وفي مناقب الأنصاري روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : « تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين ، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج ، فوعِكتُ ، فتمزّق شعري . فوفَى جُميمةً ، فأتتني أمي ، أم رومان ، وإني لفي أرجوحة ومعي صواحبُ لي ، فصرختْ بي فأتيتُها ، لا أدري

---

(١) رواه البخاري ومسلم في باب الأدب .

(٢) التراتيب ٢ : ١٥٧ ـ ١٥٨ .

ما تريد بي ، فأخذت بي حتى أوقفتني على باب الدار ، وإني لأنهج حتى سكن بعضُ نفسي ، ثم أخذتْ شيئاً من ماء فمسحتْ به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمْنني إليهن ، فأصلحن من شأني ، فلَم يَرُعني إلا رسولُ الله ﷺ ضحىً ، فأسلمْنني إليه ، وأنا يومئذ بنت تسع سنين » .

وقد يكون من المناسب أن نتلمس مقدار ثقافة اليثربيين من خلال لغتهم ، فإن اللغة التي كانوا يستعملونها ناضجة كلماتٍ وتركيباً ، إذ أنهم كانوا يستعملون اللغة العربية السائدة والتي وصلتنا بها النصوص الجاهلية ، وهي لغة مكتملة النضج ، تدل على عقلية راقية وثقافة محكمة تعبر عن المعاني الكلية كما تعبر عن المعاني الجزئية بكل دقة ووفاء ، ومن الواضح أن إدراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية متطورة لا يتصور وجود مثلها في المجتمعات البدائية في الأطوار الأولى للإنسانية ، وها هي الأمم البدائية التي تعد أصدق ممثل للإنسانية تؤيد ما نقول ، فقد أجمع[1] علماء الاثنوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا واستراليا وأفريقيا وغيرها على ضعف عقلياتها بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها . وقد كان لهذه العقلية صدى كبير في لغاتها ، فلا نكاد نجد في كثير منها لفظاً يدل على معنى كلي . ففي لغة الهنود الحمر مثلاً وهم يعيشون في عصور التقدم للإنسانية يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ... وهكذا ، ولكن لا يوجد أي لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أي لفظ للدلالة على الشجرة على العموم ، وفي لغة الهورونيين وهم من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية ، يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدي لفظ خاص بها ، ولكن

(١) علم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ١٠٢ .

لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه ، فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تعلقه بالخبز ، ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تعلقه باللحم ، وثالث في حالة تعلقه بالزبد ، ورابع في حالة تعلقه بالموز ، وهكذا ، ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل في زمن ما .

فالذي يقرأ في الشعر اليثربي إذن يدرك من خلال ما فيه من اكتمال لغوي ونضج تعبيري ، مدى ما بلغته العقلية التي تقف وراءه من نضج ورقي واكتمال ، ما كان ليتأتى إلا استجابة للمستوى الحضاري العالي في يثرب .

ثانياً : الحياة الدينية فيها

وكما ابتدأنا حديثنا عن الحياة الثقافية بالتحديد اللغوي لكلمة ثقافة فإننا نؤثر أن نتناول الحياة الدينية بالطريقة نفسها ، لأننا نعتقد أن التحديد اللغوي للمصطلحات يساعد على فهمها وإدراكها إدراكاً صحيحاً شاملاً ، وعلى هذا الأساس فإن المعنى اللغوي لكلمة دين يدور حول الخضوع والطاعة والاعتياد على الشيء والانقياد لمن يدان له ، وقد استعملت كلمة دين في الشعر الجاهلي كثيراً بهذه المعاني المختلفة ، ومن ذلك قول لبيد :

حصادُك يوماً ما زرعتَ وإنما يُدان الفتى يوماً كما هو دائنُ

أي يُجازى ومنه قولهم : دنته بفعله دَيْناً ودِيناً ، أي جزيته .

وقول حسان :

واكدَحْ بنفسك لا تكلِّفُ غيرَها فبدينها تُجزَى وعنها تَدْفَعُ

ومن استعمالها بمعنى الطاعة قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنا غرٍّ طوالٍ عصينا المَلْك فيها أن نَدينا

ومن معانيها العادة والشأن ، كقول المثقّب يذكر ناقته :

تقول إذا دَرَأْتُ لها وَضِينى أهذا دينه أبداً وديني

وقول ابن الخطيم :

ولولا كراهة سفك الدماء ، لعاد ليثرب أديانُها

ومنه أيضاً قول الشاعر الخزرجي عمرو بن الجموح :

الحمد لله العليّ ذي المِنَنْ الواهبِ الرزّاقِ ديّانِ الدِّيَنْ

وقول يزيد بن الطَّثْريّة :

أرى سبعة يسعَوْن للوصل ، كلُّهم له عند ليلى دِينةٌ يستدينها
فألقيت سهمي بينهم حين أوخشوا فما صار لي في القَسْم إلا ثمينها[1]

ومن الناحية الاستعمالية يرى البعض[2] أنه من الصعب تحديد معنى كلمة دين تحديداً دقيقاً ، لتباين تأويلها لدى البدائيين وأصحاب الديانات السماوية ، ولاختلاف ماهيتها لدى الأفراد ، بل لدى الفرد الواحد في مراحل حياته المختلفة . ومن المسلم به أن علاقات الإنسان بالطبيعة وما وراء الطبيعة تخضع لاعتبارات دينية محددة ، كما أن للدين تأثيراً كبيراً على سلوك الإنسان وأفكاره وآرائه . وعلماء الاجتماع الذين تحدثوا عن الدين كظاهرة اجتماعية يمكن رصدها وملاحظة نشأتها وتطورها لم يسلموا بالنمو المطرد للدين في التاريخ ، لأن لكل دين خصائصه المستقلة عن الآخر بل قد يكون مخالفاً له ومتعارضاً معه ، وذلك كعقيدة التوحيد والتثليث ، ومع هذا فإن تاريخ الأديان يؤكد وجود قدر كبير من التشابه بين الأديان على مختلف مصادرها وأشكالها ، يتمثل بعضه في الإيمان بجزء من الغيبيات والدينونة والتسليم للمعبود .

(١) أوخشوا : خلطوا سهامهم للاقتسام ، وقد كانت العرب تفعل ذلك للاقتراع .
(٢) الموسوعة الميسرة ص ٨٣٨ .

وهم يفترضون أن أقدم صورة للدين هي الفيتشية ، وهي عبادة المسحورات .

وفئة ثانية ترى أنها كانت الاعتقاد في الأشباح .

وهما رأيان لا يبدو بينهما كبير فارق ، لأنهما متصلان بمعبودات غير مرئية ولا خاضعة للحواس ولا تركن إلى المنطق الفكري في شيء .

وهناك فئة ثالثة ترى أن أقدم صورة للدين إنما كانت في عبادة أكثر من معبود واحد .

بينما يرى آخرون أنها كانت قائمة على وحدة الوجود ، أو الربوبية المشوبة ، وهي الإيمان بإله واحد ، مع عدم انتفاء الإيمان بغيره .

والذي لا شك فيه أن ديانة العرب كانت أشد صلة بهاتين الصورتين الأخيرتين .

وبجانب هذا نجد من يؤمن بالتطور التاريخي للدين ، حيث يفترضون أن الدين بدأ بعبادة الإنسان للموجودات الطبيعية أولاً ، ثم فرق بينها وبين أرواحها ، وخلع على تلك الأرواح سلطاناً يمكنها من تدبير الكون ، ويعتبر تعدد الآلهة مرحلة من مراحل عبادة الإنسان للطبيعة . وما الهندوكية في نظرهم إلا صورة من الصور المتطورة لتعدد الآلهة ، كما أن التوحيد هو أسمى مراحل هذا التطور وأعلاها جميعاً ، ويبدو التوحيد واضحاً في الأديان السماوية الثلاثة : اليهودية والنصرانية قبل التبديل والتغيير فيهما ، والإسلام .

ويعتبر الدين في مقاييس الفلسفة نظرية من نظريات الحقيقة التي تتعلق بالكائن الأعلى وعلاقته بالإنسان وبالعلّة الأولى للوجود وغايته .

وفي رأينا أن التدين فطرة فطر الله الإنسان عليها . وأودع في تكوينه

مطلباً لا يهدأ ولا يستقر إلا في رحاب الدين ، لأن للإنسان مطالب جسمية تتحقق بالطعام والشراب وما يتبعها من مظاهر مادية ومطالب عقلية يمكن تحقيقها بالفكر والعلم وأنواع الثقافات . ومطالب روحية لا يمكن إشباعها بغير الروحانيات المتمثلة في الدين فإن وجده سماوياً طاهراً ، كان تدينه موصولاً بالعقل بعيداً عن كل ما يخدش جوانب الإنسانية فيه ، وإن لم يجده لجأ إلى القوى الحسية أو الخفية يتعلق بها ويجعل منها معتصمه في الملمات ، ثم هو ينسج حولها في غمرة انسياقه لها وإحساسه بالحاجة إلى ملتجأ : كل تصوراته وتخيلاته للإله العظيم ، وينسب إليها كثيراً من القدرات ويحوطها بهالات من الخرافات والأساطير .

ومن الغريب أن تنكر[1] دائرة المعارف الإسلامية وجود كلمة دين في العربية الخالصة ، وتدعي أن أصلها كلمة فارسية استعملها العرب الجاهليون بمعنى عادة ، كما ذكرت أن بعضهم يرجح أنها كلمة آرامية عبرية معناها الحساب ، واستدلت على عدم أصالة عروبة الكلمة باضطراب المفسرين في تفسيرها في مواقعها المختلفة من القرآن الكريم ، والصحيح أن المفسرين لم يضطربوا في ذلك ، بل وضعوا تفسيرات متقاربة لتلك الكلمة ، معتمدين في ذلك على المعاني اللغوية المختلفة لها والتي تتناسب مع السياق فقالوا[2] ـ مثلاً ـ في قوله تعالى : ﴿ ملك يوم الدين ﴾ أي يوم الحساب ، أو يوم الجزاء ، أو يوم القضاء ، وهي معان ليست متباعدة ، ولا شك أن في يوم القيامة حساباً وقضاءاً وجزاءاً ، ولا تناقض البتة في الاقتصار على معنى من هذه المعاني أو الجمع بينها جميعاً ، وحين كان المعنى محتاجاً إلى التحديد حددوه بالفعل ، وذلك كالحديث : « الكيِّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » ، أي حاسبها وكذلك قوله تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ـ ترجمة محمد ثابت الفندي وزملائه ٩ : ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ : ١٤٣ ـ ١٤٤ .

دينهم الحق ﴾ أي حسابهم ، وكذلك غيرها من الآيات .

ويرى السيوطي[1] أن كلمة دين من الكلمات القائمة في لغتي العرب والفرس على لفظ واحد ، ويشبهها في ذلك عنده : التنُّور والخير والكنز والدينار والدرهم ، أي أن هذه الكلمات تمثل أصواتاً وجدت في اللغتين اتفاقاً ومصادفة للتعبير عن معانيها فليست إحداهما بأولى بهذه الألفاظ من الأخرى حتى نقول : إنها آخذة أو مأخوذٌ منها .

وإذا انتفى الاضطراب المزعوم لدى المفسرين ، وتدبرنا رأي السيوطي في الموضوع ، ظهر أنه لا داعي لاعتبار الكلمة غير أصيلة في العربية ، ولم يبق من دافع يدفع إلى هذا الزعم غير الرغبة في إظهار اللغة العربية بمظهر الافتقار إلى الألفاظ الحضارية ، وكل ما يدل على أي لون من ألوان النضج الفكري والتطور العقلي ، حتى تبدو في نظر الناس ونظر بنيها لغة عالة متكففة .

وإذا اطمأننا إلى أصالة عروبة هذه الكلمة ووطأنا بتفسيرها لغة واستعمالاً ، صح لنا أن نبحث الجانب الديني عند سكان يثرب ، ومن البداية نلحظ أن هناك انشطاراً دينياً بينهم ، تابعاً للانشطار الاجتماعي ، فبينما كان اليهود يدينون بدين سماوي هو دين موسى عليه السلام ، كان الأوس والخزرج ومن تبعهم من العناصر الأخرى يدينون بالوثنية ، وهو تناقض عجيب يقوم في بلد واحد ، قلما يحصل معه تعايش أو سلام . نعم قامت بين اليهود والعرب في يثرب احتكاكات عنيفة في أول الأمر ـ كما قلنا ـ انتهت بغلبة الأوس ، وظل اليهود يضمرون لهم من أجل ذلك وغيره العداوة والبغضاء ، ولكن تلك الاحتكاكات لم يكن ضمن دوافعها الدين أو اختلاف العقيدة ، بل كانت دوافعها تكاد تنحصر في العرق والمصالح الاقتصادية والسياسية ولذلك كان نداء العرب في حالات التهيج يا بني يهوذا ،

---

(١) المزهر ١ : ٢٦٨ .

ونداء اليهود للأوس والخزرج يا بني قيلة ، ولم يحدث أن قال هؤلاء لليهود يا أتباع موسى ، أو قال اليهود لهم أيها الوثنيون ، وإن كانت كلمة يهود مرتبطة في أذهان العرب بالدين أكثر من ارتباطها بالعرق ، وإنها في واقع الأمر لكذلك .

أما سبب وجود اليهودية في يثرب فقد تحدثنا عنه في كلام سابق ، وأما سبب وجود الوثنية بين الأوس والخزرج وحلفائهم فإنه أمر لا يستغرب ، فإن جميع العرب كانت تدين بالوثنية على درجات متفاوتة .

فالبدوي في المجتمع الرعوي بصفة عامة كان وثنياً ضعيف الوثنية ، ضعيف الإيمان بأي دين ، وكل ما يهمه أن يدين بتقاليد قبيلته ويتبع أعراف جماعته وما وجد عليه آباءه ، ولا يبيح لنفسه الخروج عن هذا الإطار ، بل يعد مجرد التفكير في ذلك عقوقاً ومروقاً ، فعلاقته بالأحجار والأشجار والأصنام التي يقدسها : لم تكن وثيقة ، ولا كانت خشيته منها كبيرة ، بل كان في إمكانه في بعض حالات ضِيقة منها أن يوجه لها السباب ، فقد خرج امرؤ القيس[1] في طلب الثأر من قَتَلة أبيه ، ومرّ مع أنصاره بمعبد ذي الخَلَصة واستقسم بقداحه الثلاثة : الآمر والناهي والمتربص متفائلاً ، فلما خرج سهم النهي ثلاث مرات ، قذف بالسهام المحطمة في وجه الصنم صائحاً : أيها الملعون لو أن أباك هو الذي قتل لما نهيتني عن الثأر له .

وفي المجتمعات الزراعية كيثرب التي ليست فيها بيوت عبادة جامعة

---

(١) الأغاني ١ : ٧٠ ثقافة . والتاريخ العربي وجغرافيته لأمين مدني ص ١٣٠ ومعجم ياقوت ٣ : ٤٥٨ ، وذو الخلصة : مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج ، وكان له بيت بين مكة والمدينة ، وهو إلى المدينة أقرب ، وكانت العرب تعظمه ولكن خثعم ودوس وبجيلة أشدها تعظيماً له .

ولا مجتمعات للأصنام يقوم عليها سدنة ترتبط بها مصالحهم ، لم تكن الوثنية أيضاً قوية فيها بالقدر الكبير ، ولا محركاً ذا شأن في حياتها .

وإنما كانت الوثنية مستحكمة بحق في نفوس قريش وثقيف ممن كان في بلادهم بيوت للأصنام ، فحين مَرَّ أبرهة[1] بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف متذلّلين ، يستعطفونه ويؤكدون له أن بيت اللات ليس هو بيت مكة الذي يريد هدمه . أما قريش في مكة[2] فقد جعلت من جوف الكعبة وما حولها مقراً لأصنامهم وكان هبل أعظمها شأناً ، وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، ثم صنعوا له يداً من ذهب ، وكان يقال له هبل خزيمة ، لأن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، هو أول من نصبه فيما يذكرون ، ورأت قريش التجارية أن تستغل الشعور الديني بين العرب في حياتها الاقتصادية فتنتفع من قدوم القبائل العربية في موسم الحج ، فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة ، حتى إذا أتوا مكة وزاروا الحرم ، وجدوا معبوداتهم فأوْلَوها احترامهم وتقديسهم ، وطالت إقامتهم ، وزاد احترامهم لقريش حامية حمى الآلهة ، ويبدو أن مكة بالغت في استغلال هذا الموقف بعد أن لمست نتائجه ، حتى وصل[3] عدد الأصنام حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً . وربما وضعت لنا هذه الوثنية المستحكمة في قريش وثقيف المرتبطة بمصالحها التفسير المناسب لمواقف العناد الشرس والعداء الضاري التي وقفوها ضد دعوة الرسول ﷺ ، في الوقت الذي تقبلها فيه أكثر اليثربيين بسهولة .

ومع هذا وذاك فإننا نستطيع أن نجزم في الوثنية العربية أمرين .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٤٦ وما بعدها . والتاريخ العربي وجغرافيته لأمين مدني ص ١٣٢ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي والديني ١ : ٦٩ .

(٣) المرجع السابق ١ : ٧٠ .

أولهما : أن وثنيتهم سواء في الحواضر أم البوادي كانت تعتمد على البساطة والبعد عن الطقوس المعقدة والروح الكهنوتية الكثيرة الوسائط ، فلم يعرف في يثرب أو غيرها من بلاد العرب عن وجود طبقة من رجال الدين الذين ينظر إليهم وكأنهم من غير طينة البشر ، كما هو الحال عند الفرس أو قدماء المصريين ، ولم تقم حولها[1] أي أفكار دينية راقية ، ولا علم بخلق العالم كما كان عند البابليين واليونانيين ، كما أنهم لم يجهدوا أنفسهم في معرفة حقيقة تلك الآلهة .

وثانيها : أن العرب بما فيهم اليثربيون كانوا يعظمون هذه التماثيل والأحجار لا لاعتقاد أنها آلهة مطلقة ، وإنما كانوا يتخذون منها وسيلة وزلفى للتقرب من الإله الأعظم ، ولذلك جاء جوابهم في القرآن الكريم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، وإذا سئلوا عمّن خَلَقَ العالم وقدَّر له رزقه يقولون : إنه الله ، ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض . . . . ﴾ .

واختلفت الحال بالنسبة للوثنيين في شمالي بلاد العرب وجنوبها ، فقد كانوا أكثر حماسة من غيرهم لأوثانهم وأشد تعصباً لدينهم ، ولعل ذلك راجع لاتصالهم بالمسيحيين المتسلطين روماً وعرباً في الشام وفلسطين ، واتصالهم بالأحباش المتسلطين في اليمن وهم أيضاً قوم مسيحيون ، ولم تفلح اليهودية في خلق مثل هذا التمسك الوثني في يثرب وغيرها في داخل الجزيرة العربية لأن الوثنية واليهودية لم تدخل مرحلة العداء الديني فيها ، ولم يتح لواحدة منهما أي تسلط سياسي كامل يمكن أن تنعكس آثاره على الشعور الديني ويدعو إلى التعصب الظاهر ، وإن كنا لا نستبعد وجود التعصب الخفي وبخاصة من جانب اليهود .

وكان العرب يقدمون القرابين لهذه الأصنام والأوثان في أسلوب ذبائح يوزعون لحومها ، وينذرون لها النذور ، ومن ذلك البَحيرة والسائبة والوصيلة

---

(١) بلوغ الارب ٢ : ٢٠٠ وتاريخ العرب لحتّي ص ١١٨ ـ ١٢١ .

والحامي ، فالبحيرة هي : الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجزّ وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف ، أو يتصدق به . أو تهمل لآلهتهم . والسائبة هي : التي ينذر الرجل أن يسيّبها إذا بُرئ من مرضه ، أو إن أصاب أمراً يطلبه ، فإن كان ذلك أساب جملاً من إبله أو ناقه لبعض آلهتهم ، فسابت فرعت ، لا ينتفع بها . والوصيلة هي : التي تلد أمها اثنين في بطن ، فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها ، ولنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن ، فيقولون : قد أوصلت أخاها ، فيُسَيَّب أخوها معها فلا ينتفع بها . والحامي هو : الفحل إذا أنتج له عشر إناث متتابعات ، ليس بينهن ذكر ، حمى ظهره فلم يركب ، ولم يجز وبره وخلي في الإبل للنزو والضراب فقط ، لا ينتفع منه بغير ذلك . وقد ورد ذكر هذه القرابين الأربعة في القرآن قال تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾[1] ويرى بعضهم[2] أن هذا الأسلوب من القرابين إنما أخذه العرب من اليهود ، فإذا كان كذلك فالغالب أن أول ما أخذه منهم اليثربيون ومنهم انتقل إلى بقية العرب .

وكانت الأوس والخزرج كغيرها من العرب تدين بأكثر من صنم واحد ، ولكنها كانت أكثر ما تدين[3] بناة ، فهو معبودها الأساسي الذي يعرف بها وتعرف به وكان هذا الصنم منصوباً بالمشلّل . وهو جبل يهبط منه إلى قُدَيْد من ناحية البحر الأحمر ، فهي أقرب إلى مكة . قال العرجى :

ألا قل لمن أمْسى بمكة قاطناً	ومَنْ جاء من عَمْقٍ ونَقْبِ المشلَّلِ
دعوا الحَج لا تستهلكوا نفقاتِكم	فما حَجٌّ هذا العام بالمُتَقَبَّلِ

---

(١) سورة المائدة : ١٠٣ .

(٢) محاضرات الخضري ص ٥٥ .

(٣) الطبري ٣ : ٦٦ والأصنام لابن الكلبي ص ١٣ والمختصر في تاريخ البشر ١ : ٩٨ ومراصد الاطلاع ٣ : ١٢٧٧ وبلوغ الأرب ٢ : ٢٤١ .

وكان رمز مناة عبارة عن حجر أسود[1] ، والذي نصبه بالمشلل[2] هو عمرو بن لحي . وكانت العرب جميعاً تعظم منـاة وتـذبح حولها ، وقيل سميت بـذلـك لأن دماء النسائك كانت تُمْنى عندها أي تراق ، وبعضهم كان يسميها مناءة من النَّوء ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبرُّكاً بها . ولم يكن أحد أشد إعظامـاً لهـا من الأوس والخـزرج كانـوا إذا حجُّوا يقفـون مـع النـاس المواقف كلهـا ولا يحلقـون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوها فحلقوا رؤوسهم عنـدهـا ، وأقـاموا حولهـا ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك ، ولإعظامهم إياها يقول عبد العزى بن وديعة المزني :

إني حلفت يمينَ صِـــدق بَرَّةٍ   بمنـــاةَ عنـــد محـلِّ آلِ الخـــزرج

وكانوا يُهلون لها ، ومن أهلَّ لها لم يطف بين الصفـا والمروة ، روى الإمـام[3] أحمد عن عروة عن عائشة قـالت : « إن الأنصـار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمنـاة الطاغية ، التي كانوا يعبدونها عنـد المشلَّل ، وكان من أهَلَّ لهـا يتحرّج أن يطوف بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، إنـا كنـا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الصفـا والمروة من شعـائر الله فمن حـج البيت أو اعتمر فـلا جنـاح عليـه أن يطـوف بهما ﴾[4] .

وكانت مناة تسمى أيضاً إلهـة القضـاء ، ولا سيما قضـاء الموت ، وكانت أيضـاً لهذيل وخزاعة والغساسنـة ، وممن يعظمهـا قريش وكثير من العرب . ولهـذا كان بعضهم يسمي أبنـاءه بعبـد منـاة وزيـد منـاة ، وفي سنـة ثمـان للهجرة النبـويـة الشريفة ، وهو عام الفتح وعلى بعد خمس ليـال من المدينـة المنورة بعث الرسول

---

(١) بلوغ الأرب ٢٠٢ .

(٢) أخبار مكة للأزرقي ١ : ٧٨ ط خياط ١٩٦٤ م .

(٣) بلوغ الأرب ١ : ٣٤٦ ، ٢ : ٢٠٨ .

(٤) البقرة : ١٥٨ .

ﷺ علياً رضي الله عنه إليها فهدمها ، وأخذ ما كان لها ، فأقبل به إلى النبي ﷺ ، فكان فيا أخذ سيفان ، كان الحارث بن أبي شمَّر الغساني ملك غسان أهداهما لها : أحدهما مِخْذَم ، والآخر : رَسُوبٌ ، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره فقال :

مُظاهِر سِرْبالَيْ حديدٍ عليهما عقيلا سيوفٍ : مِخذَمٌ ورَسوبٌ

فوهبهما النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه .

وقيل : إن الذي تولى هدمها هو سعيد بن زيد الأشهلي[1] ، وقد يكون سعيد هذا ممن انتدب إلى هدمها تحت إمرة علي : وهو رجل من الأوس يعرف أسرار مناة في الجاهلية واعتاد هو وقومه الطواف بها والحج إليها .

ولا غرابة إن كانت مناة ليست في يثرب ، فقد كانت قريش تعظمها أيضاً وهي ليست ببلادها ، وكانت اللات بالطائف وتعظمها قريش وغيرها من العرب ، حتى إنها عرفت في[2] آثار تدمر والنبط ، ومعناها الإله ، وكانت صخرة مربعة أقيم عليها بناء ، وقامت عليها ثقيف التي تشبهت بقريش سادنة الكعبة ، كما بلغ من تعظيم العرب اللات أنهم كانوا يسمون أبناءهم زيد اللات وتيم اللات .

كما كانت قريش والأوس والخزرج وغيرهم يعظمون العزى[3] ، وهي ليست ببلادهم أيضاً ، بل كانت قائمة بواد من نخلة الشآمية يقال له حُراض ، بإزاء الغُمَيْر ، عن يمين المُصْعِد إلى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عِرْق إلى البستان بتسعة أميال ، ولم تكن اللات تزيد عن بضع شجيرات أكسبوها في عهد من

---

(١) الطبري ٣ : ٦٦ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي والديني ١ : ٧١ .

(٣) الأصنام ص ١٨ .

عهودهم شيئاً من القداسة والتعظيم ، ومن مظاهر تعظيم العرب لها تسميتهم أبناءهم بعبد العزى ، ويلاحظ أن هذا الاسم كان أكثر شيوعاً في قريش .

وإذا كانت مناة أعظم الأصنام عند الأوس والخزرج فإن اللات أعظم صنم عند ثقيف ، والعزى أعظم صنم عند قريش وغطفان ، ولكن هذا لا يمنع من الدينونة للأصنام الأخرى ، لأن الشرك عند العرب لم يكن مقصوراً على إشراكهم معبودات مع الله ، بل كانوا يشركون حتى بين هذه المعبودات ، ومن مظاهر تعظيم الأوس والخزرج للعزى قول درهم بن زيد الأوسي[1] :

إني وربِّ العـزَّى السعيـدةِ والله الـذي دون بيتـه سَرِف

وإنما الغريب بحق أن لا تشير المراجع إلى وجود حرم أو بيت لمناة في يثرب يتقرب إليها فيه أهلها بالنذور ، مع أنها أشارت إلى بيت اللات بالطائف والعزى بنخلة ، ونائلة وإساف وهبل بمكة ، وسواع بينبع القريبة من يثرب ، فالمفترض أن تكون بها محجات ومعابد كغيرها من هذه الحواضر ، وهو افتراض قد تتكفل التنقيبات الأثرية بإيضاحه في يوم من الأيام ، ومن المفترض أيضاً أن تشتمل أسواق يثرب على بعض أماكن التعظيم لمناة ، فإن أسواق العرب في الجاهلية كانت في الأصل[2] مواسم أعياد وثنية ، أكثرها سنوي ، ثم ظهرت وظائفها الأخرى تبعاً لذلك ، فلعل بعض تلك البيوت كان بسوق الجسر أو سوق العصبة أو سوق مزاحم أو زبالة ، وهي أسواق يثرب الشهيرة التي تحدثنا عنها ، فالعرب في عصورهم الجاهلية كانوا كغيرهم من الأمم ، لهم أسواق قروية وأسواق في المدن ، تتفاوت سعة ونوعاً وسيولة ، حسب ثروة العاملين ونشاطهم وموقع المدينة والقرية وكثافة السكان . وفي عصور الجاهلية العربية انتشرت الوثنية في الجزيرة

---

(١) المرجع السابق ، ومراصد الاطلاع ٢ : ٩٣٧ .

(٢) التاريخ العربي وجغرافيته ص ١٣٣ .

العربية ، فأصبح في كل حاضرة صنم تتعبد لـه ، ولكل صنم مواسم تقـدم لـه فيهـا النذور ، وأعياد يحتفل بها حوله ، وهذه المواسم والأعياد صارت أسواقـاً كبيرة لها شأنها في اقتصاد القبائل وتعايشهـا ، ولهـا قيمتهـا بـالنسبـة للمطـامح السيـاسيـة[1] والذي لا نشك فيه هنا : أنهم كانوا يتخـذون الأوثـان الممثلـة لمنـاة في بيوتهم ، كما نرجح أنهم كانوا يتخـذونهـا في الأمـاكن العـامـة كالأسـواق وفي القصتين التـاليتين ما يؤكـد مـا جزمنـا بـه ومـا رجحنـاه ، ولكن لكون هـذه الأوثـان من خشب النخل والأشجـار الأخرى وليست من الصخوَر والحجـارة بحكم بيئتهم الـزراعيـة ، ولعدم وجود سدنة يرعونها ويحفظون بيوتها ، لم تـأخـذ معـابـدهم شهرة تـاريخيـة تؤهلها لاهتمام المراجع ، بينما اهتمت ببيت المـدراس عنـد اليهود في يثرب نفسهـا ، وتحدثت عنها كبيوت للدراسة والعبادة .

تتصـل القصـة الأولى بهجرة المسلمين الأوائـل إلى يثرب ، فقـد كان علي رضي الله عنه ضمن المهاجرين الأوائل إلى المدينـة ، ونزل قبـاء فيمن نزل ، ويروي هـذا الخبر الطبري في تاريخه فيقول : (كان علي يقول : كنت نزلت بقباء ـ يعني أيام هجرته ـ على امرأة لا زوج لها مسلمـة ، فرأيت إنسـانـاً يـأتيهـا في جوف الليل ، فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه قال : فاستربت لشأنـه فقلت لها : يا أمة الله ، من هذا الرجل الـذي يضرب عليـك بـابـك كل ليلـة فتخرجين إليه ، فيعطيك شيئاً ما أدري ما هو ؟ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟ قالت : هذا سهل بن حُنيف بن واهب ، قد عرف أني امرأة لا أحد لي ، فـإذا أمسى عـدا على أوثـان قومـه فكسرهـا ثم جـاءني بهـا ، وقـال : احتطبي بهـذا . فكان علي بن أبي طالب يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق)[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ومراصد الاطلاع ٢ : ٩٣٧ .

(٢) التاريخ العربي وجغرافيته ص ١٣٣ .

ومن خلال هذا نخلص إلى حقيقتين هما : أن أوثانهم كانت من الخشب ، وأن ما كان يأتيه بها من الأوثان لم يكن تابعاً للمكية خاصة ، وإلا لما تجرأ على أخذه ، بل الأشبه أن يكون في مكان عام كسوق ونحوها ، يغفل الناس عنه حين يأوي كل واحد إلى بيته ليلاً ، ولا يعرف الناس ما يحدث لها إلا في صباح الغد ونحو ذلك ، وقد تقام عليها حراسة في بعض الظروف إذا كثر إليها المتسللون وتكرر عليها الاعتداء ولكن إلى حين ، وقد يرى بعضهم أن لا خير في آلهة لا تستطيع حماية نفسها بله حماية الأتباع ، وهو ما كان بالفعل سبب إسلام بعض الأنصار ، كما تدل عليه قصة إسلام عمرو بن الجموح رضي الله عنه ، وهي القصة التالية التي قلنا قبل قليل إنها تعيننا على الجزم بأن الأوس والخزرج كانوا يحرصون على اتخاذ الأوثان في بيوتهم ويتبركون بوجودها فيها وبخاصة الأشراف منهم ، وقد أوردت هذه القصة أكثر كتب السيرة النبوية[1] . وذلك أن عمرو بن الجموح بن زيد من بني سلمة كان سيداً من سادات قومه بني سلمة وشريفاً من أشرافهم ، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له : مناة ، كما كانت الأشراف تصنع ، تتخذه إلهاً تعظمه وتطهره ، فلما أسلم فتيان بني سلمة معاذ بن جبل ، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح الذي كان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها فيمن بايع من الأوس والخزرج ، وغيرهما من بني سلمة ، كان هؤلاء الفتيان يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك ، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة ، وفيها عِذَر الناس وفضلاتهم ، منكساً على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ فلا يجد الإجابة عند أحد ، ثم ينطلق يبحث عنه حتى إذا وجده غسله وطهّره وطيّبه ، ثم وضعه في مكانه ، ثم خاطبه قائلاً : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه . فإذا أمسى ونام عادوا فعدَوا عليه مرة أخرى وفعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده في مثل ما كان عليه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٤٥٢ ـ ٤٥٣ .

من الأذى ، فيغسله ويطهره ويطيبه ثم يَعدُون عليه إذا أمسى ، فيفعلون به مثل ذلك . فلما أكثروا عليه ، استخرجه من حيث ألقوه يوماً ، فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ، ثم قال : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خيرٌ فامتنِعْ ، فهذا السيف معك . فلما أمسى وأخلد الناس إلى النوم ، عاد الفتيان فعدَوْا عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه في حفرة من حفر بني سلمة أيضاً فيها عِذَر الناس ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به ، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك الحفرة منكساً مقروناً بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه ، قال له : يا لك من إله ضعيف لا يدفع عن نفسه .. وكان ذلك سبباً في حسن استجابته للإسلام ، وقال بعد إسلامه يذكر صنمه ويشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنتَ إلَهاً لم تكن	أنت وكلبٌ وسْط بئرٍ في قَرَنْ[1]
أفٍ لملقاك إلهاً مُسْتَدَن	الآن فَتَّشْنَاك عن سوءِ الغَبَن[2]
الحمد لله العليِّ ذي المِنَنْ	الواهبِ الرزَّاقِ ديَّانِ الدِّيَنْ[3]
هو الذي أنقذني من قبل أنْ	أكونَ في ظُلْمةِ قَبْرٍ مُرْتَهَنْ

ولم يؤثر عن اليثربيين أنهم اتخذوا من الأوثان غير أوثان مناة ، إذ كان جل تعظيمهم لها كما قلنا ، أما ما عداها من الآلهة فهم يدينون لها من باب المجاملة كما يدين غيرهم من العرب بإلههم مناة . ولقد كانت مناة كما يذكر ابن الكلبي أقدم

---

(١) القرن : الحبل ومنه قول الآخر :

وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولةَ البُزْل القناعيسِ

(٢) مستدن : قال أبو ذر الخشني : ذليل مستعبد . وقال السهيلي : مستدن ، من السدانة . وهي خدمة البيت وتعظيمه . ولعل الأول أنسب للمقام . والغبن : السفه .

(٣) الدِّيَن : جمع دينة وهي العادة . ويقال لها : دين أيضاً . وقيل : الدِّيَن : جمع دين لا دينة .

من كل الأصنام المعروفة حتى اللات والعزى ، وكلها مؤنثة[1] ، أما قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ أفرأيتم اللاّتَ والعُزّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى ﴾ فإنه لم يقصد منه الترتيب[2] الوجودي ، لأن العرب سلبت أخرى مؤنت آخَر بفتح الخاء ، هذا المعنى ، فأصبح مرادفاً عندها في الاستعمال لكلمة مغاير ، بخلاف آخِر وآخِرة بالكسر ، فإن إشعارهما بالتأخير الوجودي ثابتٌ وباقٍ ، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخَر بالفتح وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخِر بالكسر وجمادى الآخِرة ، لأنهم أرادوا أن يُفهموا التأخير الوجودي ، وكانت قريش تقول عن مناة واللات والعزى بنات الله وهن يشفعن إليه ، وتقول في طوافها بالكعبة : واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق[3] العلى ، وإن شفاعتهن لتُرتجى ، فنزل قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمةٌ ضِيزَى إنْ هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللهُ بها من سلطان ﴾ .

وكان اليثربيون كغيرهم من العرب إلى جانب وثنيتهم يعظمون الكعبة بمكة ويسمونها بيت الله ، ويجلونها فوق إجلالهم لأي معبود آخر لهم ، وكانوا يعتمرونها ويحجونها ويقفون مع الناس المواقف كلها . ولكنهم لا يحلون ولا يحلقون رؤوسهم إلا عند مناة بالمشلّل ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك . وكانوا يدينون بما تدين به العرب مما فرضته قريش على الحجاج والعُمّار ، من أنه لا ينبغي لأهل الحَلّ أن يأكلوا من طعام جاؤوا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤوا حجّاجاً أو عُمّاراً ، بل عليهم أن يشتروا لأنفسهم طعاماً من داخل الحرم ، أي من مكة ، وهي فكرة اقتصادية ، فرضتها مكة لنفسها بين العرب وأطاعوها فيها تحت

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤ : ٣٠ .

(٢) الانتصاف : فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين الإسكندري المالكي ٤ : ٣٠ .

(٣) الغرانيق : الأصنام جمع غرنوق ، وهي في الأصل الذكر من طير الماء ، سمي به لبياضه ، وكان الجاهليون يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتشفع لهم إليه ، فشبهت بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء .

سيطرة الشعور الديني ، كما سلّموا لها بما فرضته مرة أخرى على الطائفين ، أن لا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحُمْس[1] ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن لم يفعل الحاجّ وطاف بثيابه التي جاء بها من الحل كان عليه أن يلقيها عقب فراغه من طوافه ، ثم لا ينتفع بها ولا يمسها هو ولا أحد سواه أبداً ، وكانوا يسمون تلك الثياب (اللُّقَى) .

وإنما التقى الرسول ﷺ بالأوس والخزرج عند العقبة في الحج وعرض نفسه عليهم وكانت البيعة الأولى ثم البيعة الثانية ، تانك البيعتان اللتان حددتا مسيرة الإسلام وغيّرتا وجه التاريخ .

وكان من عادتهم إذا أهلّوا بحج أو عمرة أن لا يستظلوا بسقف بيت حتى يفرغوا من حجتهم أو عمرتهم ، وإذا ما أحرم الرجل منهم لم يدخل بيته وإن كانت له فيه حاجة ، وفي حالة اضطراره إلى الدخول يتسوّر من ظهر البيت حتى لا يظله سقفه[2] ، وقد أبطل الإسلام هذه العادة ، قال تعالى : ﴿ وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى[3] ﴾ .

وإلى جانب هذا اللون من الوثنية في البلاد العربية كانت هناك وثنية أخرى تدعي لنفسها رقياً أكثر ، وتدعي لنفسها الصلة بالسماء ، إما لأنها توجه عبادتها لأجرام سماوية كالشمس والنجوم والكواكب ، وهي معبودات أرقى في نظرهم من عبادة الأحجار والأشجار ، وإما لكونها تنفذ تعاليم شخص بعينه وتأخذ من آرائه وتوجيهاته . فالأولى تمثلها الصابئة ، وقد انتشرت في بلاد

---

(١) الحمس : هم قريش وكنانة وخزاعة . أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم ثم أعطوا لأنفسهم على أساسه امتيازات في الحرم أثناء الحج والعمرة لم تكن لغيرهم من العرب .
(٢) أخبار مكة للأزرقي ١ : ٧٩ وتاريخ العرب القديم وعهد الرسول ص ٢٧٨ .
(٣) البقرة : ١٨٩ .

اليمن : (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله)[1] ، وحرَّان ، في أعالي العراق ، وكانوا يقدمون لهذه الآلهة مختلف القرابين ومن ضمنها القرابين البشرية ، فقد كان المناذرة إلى سنة ٥٥٤ م يقدمون كثيراً من أسراهم المسيحيين تكريماً للكوكب السيّار فينوس (الزهرة) ، وكذلك كان يفعل غيرهم من عرب شبه جزيرة سيناء . وقد اشتهر الفراعنة في التاريخ القديم بتقديم القرابين البشرية للنيل . والثانية تمثلها الزرادشتية . نسبة إلى زرادشت وهو فيما يزعمون ، نبي الفرس القدماء ، وهي ديانة رمزية تقول بأن في العالم قوتين هما الخير والشر ، وترمز لإله الخير بالنور ، ولإله الشر بالظلمة . وينظر أتباعها إلى النار على أنها مصدر النور الذي هو رمز الخير ، لا على أنها العنصر المحرق ، وكانت هذه الديانة سائدة في فارس وفي شرقي بلاد العرب ، وبخاصة في جهة البحرين بما فيها منطقة الأحساء التي تمثل الآن المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية ، ولكن شيئاً من هاتين الديانتين لم يكن موجوداً بين سكان يثرب ، ولم يرد في شعرهم أو أخبارهم ما يدل على شيوعها بينهم . ومن الواضح أن هذه الزرادشتية إنما دان بها بعض العرب القاطنين على مشارف البلاد الفارسية بحكم احتكاكهم بالفرس ، فبلادهم هي منبعها ومأتاها ، ومنها دخلت إلى بلاد العرب ، ولم يكن احتكاك يثرب بالفرس بالقدر الذي يسمح بتأثرهم بشيء من تلك الديانة . أما عبادة الكواكب التي دان بها بعض العرب فقد دخلت إليهم من حَرّان[2] ، والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام كما ذكر الفيروز أبادي ، وقبلتهم من مهبّ الشمال عند منتصف النهار . والسؤال الذي يبقى بلا جواب هو كيف وصلت هذه الديانة إلى اليمن في الجنوب بينما مركزها حرّان في الشمال ؟ ولعل ذلك تم عن

---

(١) النمل : ٢٤ .

(٢) حرّان : مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور ، وهي قصبة ديار مُضر ، بينها وبين الرّها يوم وبين الرَّقّة يومان ، وهي على طريق الموصل والشام والروم . وفُتحت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، على يد عياض بن غنم .

طريق بعض التجار الحرانيين الذين سكنوا بلاد اليمن ، أو لعل اليانيين في عهود تجارتهم الضاربة اتخذوا من حرّان مركزاً لهم فتأثروا بديانة أهلها ، هذان احتمالان مقبولان عقلاً ، ولكن ينقصها التأييد بالأدلة والوقائع ، وهو أمر جد عسير ، لم تسعفنا به المراجع ، وعلى كل حال ليس انتقال الديانات غريباً عن طريق التجارة فقد تم انتقال الدين الإسلامي إلى بعض أقطار جنوب شرقي آسيا عن طريق التجار المسلمين .

وهؤلاء الصابئون الوثنيون هم غير جماعة المندائيين أتباع يوحنا المعمدان ، وغير الصابئة الذين ينتسب إليهم الأديب العباسي أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئي ، وزير الطائع والمطيع ، فإن هؤلاء من أهل الكتاب ، كما يؤذن به القرآن في ذكره إياهم ثلاث مرات بجانب اليهود والنصارى ، كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن بالله واليوم والآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، وقد كان منهم في الدولة الإسلامية المترجمون والرياضيون والنباتيون ، واشتركوا في نهضتها العلمية ، وكانت لغتهم السريانية . ويبدو أن نظرة العرب في مكة ويثرب وما جاورهما من وسط الجزيرة إلى الصابئة لم تكن نظرة وفاق ، بل كانت ترى فيهم مارقين عن دائرة ديانتهم مخالفين لهم في العقيدة ، ويظهر ذلك في استعمالهم كلمة صبأ بمعنى خرج من دين إلى دين آخر ، ولهذا كانوا في مطلع الدعوة المحمدية يطلقون كلمة صابئي على كل من فارق دينهم ودخل في الدين الجديد .

فالتصبُّؤ والتزردش إذن كانا أمرين دخيلين في الحياة العربية وإن عرفا في بعض المناطق ، وظلاً على طول المدى محدودين لا يمكن اعتبارهما من السمات العربية الجاهلية في شيء ، وعلى نقيضهما عبادة الأصنام ، فهي ديانة أصيلة في حياة العرب يحق لنا أن نسأل عن نشأتها فيهم ، وعن مأتاها إليهم ، هل هي

ديانة نشأت من الـداخل ومن مقتضيـات الحيـاة ؟ أو هي أمر مستفـاد من الأمم المجاورة ؟ قلنا في بداية الحديث عن الحياة الدينية : إن الدين فطرة في الإنسـان ينشده ويبحث عنه ليشبع حاجته الروحية ، وليجد في ظله الراحة والطمأنينـة ، ولا نتوقع من العرب أن يخالفوا هذه الفطرة ، ومن الواضح أنه لم ينشـأ لـديهم أي نوع من الطوطميات التي تمثل المراحل البـدائيـة للـدين ، وقد عللنـا لـذلـك في مكان سابق ، ولذلك لا نجد في تاريخهم الديني أي ميثولوجيات أو أساطير دينيـة موغلة في التقديس والتخييل والتهويل ؛ كما نجد عند بعض الأمم التي عاصروهـا ، وحتى وهم في غمرة تعدد الآلهة لا نجدهم يوزعون عليها تخصصـات أو يجرون بينهـا شيئـاً من المنـافسـات والصراعـات كما كان يفعل الإغريق وغيرهم ، وكأنهم رأوا أن يقصروا الصراع على أنفسهم ولم يشـاؤوا أن يورطوا آلهتهم فيـه ، ولا تصـوروا أن تكون للآلهة بعض مطامع البشر ، وهو في نظري رقي عقلي نسبي يمكن أن نسجلـه للعرب في ذلك العصر ، ومنهم أهل يثرب . ونحن نرجح أن إحساسهم بالحاجة إلى الاعتماد على القوى الخفيـة جعلتهم يرمزون لهـا في عـالم الحسيـات ببيوت للعبـادة مثلوا فيها تلك القوى بأحجـار أو أشجـار أو نحوهـا ، ثم اتخـذوا من تلـك التماثيل وسـائل ووسـائـط بينهم وبين القوة المطلقـة غير المحـدودة ، أي بينهم وبين المعبود الأعظم الذي هو الله ، ولذلك كانوا يقسمون بالله بجانب أقسـامهم بتلـك الأوثـان والأماكن المقدسة ، يقول الشاعر اليثربي أحيحة :

أقسمت لا أعطيـــــك في كعب ومقتلـه سيـابـه

ويقول :

إني والمشعِر الحرام ومـــــا حجت قريش لـــه ومـــا نحروا
لا آخـــذ الخطـــة الـــدنيّـــة مـــا دام يُرى من تُضـــارع حجر

ويقول عبد العزى بن وديعة المزني :

إني حلفتُ يمينَ صــــــــدقٍ بَرَّةٍ ... بمنـــاة عنـــد محـل آل الخــزرج

ويقول درهم بن زيد الأوسي :

إنى ورب العـــزى السعيــــدة ... والله الـــذي دون بيتـــه سرِف[1]

ويروى :

إنـا لعَمْرُ الــذي يَحُـجُّ لــه النـا ... سُ ومن دون بيتـــــــه سرِف

يمينُ برّ بـــــالله مجتهـــــدٍ ... يحلف إن كان ينفـــــع الحلفُ

ويقول عمر بن امرئ القيس الخزرجي :

والله لا يـــزدهى كتيبتَنَــــا ... أُسْـــدُ عرين مقيلُهـــا غَرَفُ[2]

ويقول قيس بن الخطيم الأوسي :

واللهِ ذي المسجـــد الحرام ومـــا ... جُلِّــل من يُمْنـــةٍ لهـــا خُنُف[3]

ويقول حسان بن ثابت الخزرجي :

بلِّـــغ عني النبيتَ قـــافيـــة ... تـــذُلُّهم إنهم لنـــا حلفـــوا[4]

بـــــالله جهـــــدا لتقتلنكمُ ... قتـلاً عنيفـــاً ، والخيـل تنكشف

ومن خرافـاتهم ادعـاؤهم أن طـائراً لـديهم كان يـدعى الـزُّمّـاح كان يقف في

---

(١) سرف : موضع على ستة أميال من مكة .

(٢) غرف : الغَرْف والغَرَف : شجر يدبغ به فإذا يبس به فهو الثام . وقـال أبو عبيـد : جنس من الثام لا يدبغ به . الثام أنواع من الغرف وهو شبيه بالأسل .

(٣) الخنف : واحدها خنيف ، وهو جنس من الكتان الأبيض الغليظ .

(٤) النبيت : هم بنو عمرو بن مالك من الأوس ، وظفر قوم قيس بن الخطيم ، بطن منهم .

الجاهلية على أطم بني واقف فيصيح : (حرب . . حرب) فرموه فقتلوه . كان يختطف ، الصبيان من مهودهم ، ويصيب الهلاكُ كلّ من أصاب من لحمه ، يقول ابن الخطيم :

أعلى العهد أصبحت أمُّ عمرو ليت شعري ، أم غالها الزُّمَّاح ؟

وكان من معتقداتهم ومعتقدات العرب جميعاً إذا قدم المرء على وادٍ وبيء وجب عليه أن ينهق نهيق الحمار حين إشرافه عليه ، فإذا فعل ذلك لم يضره - في زعمهم - وباء ذلك الوادي ، وبما أن المدينة كانت كثيرة المستنقعات فقد كان يتعرض زائرها للوباء ، ولا ينجو منه في اعتقادهم إلا من عشّر ، أي ينهق كالحمار عشرة أصوات في طلق واحد ، وكان الدخول إلى المدينة من الناحية الجنوبية مما يعرف بثنية الوداع ، تلقاء قباء ، ولم تبطل عادة التعشير هذه عندهم إلا حين قدم المدينة عروة بن الورد العبسي ، يزور بها أصدقاءه بني النضير ، حيث قيل له : عشّر حتى تحمي نفسك من الوباء ، فرفض منطق التعشير وأنشأ يقول :

لعمرى لئن عشّرت من خشية الردى نُهاق الحمار ، إنني لَجزوع

ثم دخل فقال لهم : يا معشر يهود ، مالكم والتعشير ؟ قالوا : إنه لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يعشّر بها إلا مات ، ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا قتله الهُزال ، ولكن عروة لم يصب بالوباء ولا بالموت ، فعلم الناس منذ ذلك الحين أن لا علاقة للتعشير بالمرض أو بالموت ، فتركوه وأصبحوا يدخلون المدينة من كل ناحية .

نعم جاءت بعض الأديان السماوية للعرب ، كقوم عاد وثمود ومدْين ولكن هؤلاء كانوا من العرب البائدة التي لم يبق منها إلا فلول عديمة التأثير ، وجاء إسماعيل إلى مكة ولكننا لا نعلم عن ديانة اسماعيل غير ما جاءنا في القرآن ،

وتقول الروايات[1] : إنهم بقوا بعده على دين إبراهيم يعبدون الله ويوحدونه ، ولما كثر أولاد إسماعيل واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار في أجزاء الجزيرة للأغراض المختلفة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة للتبرك بها في أسفارهم ، ثم انتهى بهم هذا التبرك إلى تعظيم تلك الأحجار واتخاذها وسيلة للتقرب إلى المعبود الأعظم ، ثم إن عمرو[2] بن لحيّ أصابته علة شديدة فقيل له : إن بالبلقاء من بلاد الشام ماءً إن أتيته واغتسلت فيه برئت من علتك ، فأتاه فاستحمّ فيه فبرئ مما كان فيه ، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال . ما هذا ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو ، فربط في ذهنه بينها وبين برئه من المرض ، ووقر في نفسه نفعها ، فسألهم أن يعطوه منها ، فنقلها إلى مكة ونصبها حول الكعبة ، فانتشرت الأوثان في بلاد العرب من حينه وانتشرت معها قصة مرضه وابلاله ، وما أيسر أن يدخل على الناس مثل هذا في لحظات الضعف والانبهار . فكان بعد ذلك لكل قوم أصنامهم وأوثانهم مع تقديرٍ عام للأوثان ، واعترافٍ بقداسة الكعبة وفضل سادنيها من القرشيين .

وبلغت الوثنية من نفوس أكثرهم حد الاستقرار والتسليم ، حتى غدت أمراً معتاداً مستساغاً لا يثير جدلاً ولا يبعث نقاشاً ، وبخاصة في مكة التي ارتبطت مصالحها المختلفة ـ كما قلنا ـ بالوضع الوثني القائم . إلا ما كان من أمر الحنفاء .

وبصفة عامة لم يكن عند اليثربيين ولا غيرهم من العرب الوثنيين تصور متكامل للناحية الدينية ، غير ما هو ظاهر من الركون إلى بعض القوى الغيبية التي لم تستسغها عقولهم إلا بعد أن رمزوا لها بأوثان محسوسة أو جعلوها وسيلة توصلهم لها وتقربهم منها زلفى ، فلم يكونوا يدركون الصّلات التي تربط بين الأكوان ، ولم يكونوا يؤمنون ببعث أو نشور أو جنة أو نار ، وإنما هي أرحام

(١) محاضرات الخضري ١ : ٥٤ .
(٢) الأصنام ص ١٤ .

تدفع وأرض تبلع : ﴿ وما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾[1] ولذلك كانت مسألة الإيمان بالغيب وباليوم الآخر من المسائل التي ركَّز عليها القرآن وقرنها بالتوحيد وجعلها ركناً من الإيمان ، ولقي منها صاحب الرسالة ألواناً من العنت والكفر والحرب والجحود .

وإذا كنا قد تحدثنا عن هذا الجانب الوثني من الحياة الدينية لليثربيين ، وذكرنا شيئاً عن نشأة الوثنية وتفاهتها ومنافاتها للعقل السليم والتفكير الناضج ، فإنه يصح لنا أن نطرح بعض الأسئلة الملحة التي قد يثيرها في نفوسنا ما ذكرناه عن حياتهم الثقافية وما تضمنته من جوانب عقلية فاعلة وفكر نير خالق .

هل هناك علاقة بين العقل والدين ؟ أو هل هناك علاقة طردية أو عكسية بين النضج الفكري والتطور الديني ؟ حتى يمكننا أن نجعل وجود أحدهما دليلاً على وجود الآخر أو نفيه ؟ أو أنه لا توجد أية علاقة بينهما ، وأن كل واحد منهما يعمل في طريق ويسير في اتجاه ، لا يلتقيان ولا يتأثر أحدهما بالآخر ؟ .

إذا نظرنا إلى العالم من حولنا وجدنا كثيراً من المنجزات العلمية التي حققها العقل البشري الملحد أو المنحرف عن سبيل الإيمان والدين السليم ، ووجدنا كذلك كثيراً من رجالات العالم العظام الذين حققوا لأمتهم انتصارات سياسية كبرى وصاغوا لهم فلسفات فكرية فيها كثير من العمق والرشد ، ومع ذلك كان هؤلاء القادة يدينون بأديان وثنية غاية في التفاهة ، لا يصدق بها عقل الصغير ، ولا يكاد يهضمها فكر الوليد ، كبعض الهندوكيين الذين على رأسهم غاندي ونهرو وأمثالهما ، ولو فتشنا في التاريخ لوجدنا نماذج كثيرة للعقول الناضجة علمياً والقاصرة دينياً ، لأن الدين في غالب الأمر يصل إلى الإنسان عن طريق الوراثة

---

(١) الجاثية : ٢٤ .

محوطاً بالقداسة والتعظيم ، بحيث يحجم الكثيرون عن مناقشة مسائله وإخضاعها لمقاييس العقل .

وعن العقل والنقل وتحصيل العلوم بالنسبة للشريعة الإسلامية يحدثنا ابن تيمية حديثا ممتعاً يساعدنا فيما نحن بصدده فيقول[1] : (إن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه ، ولا معطياً له صفة لم تكن له ، ولا مفيداً له صفة الكمال ، إذ العلم مطابق للمعلوم المستغني عن العلم تابع له ، ليس مؤثراً فيه) ، فالدين إذن لا يحصل بالعقل ، وإنما يمكن استخدام العقل لإثبات بعض قضايا الدين ، ثم ذكر أن من العلم ما يحصل بالعقل الصرف ، وهو ما اتصل بالأمور الدنيوية المحضة وما به شؤون المعاش . ومنه ما لا يكون تحصيله بالعقل مهما كان نضجه ، فهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا . وذلك هو الدين الذي لا طريق لتحصيله إلا من عند الله ، فيقول[2] : (فإن العلم نوعان : أحدهما العملي ، وهو ما كان شرطاً في حصول المعلوم ، كتصور أحدنا لما يريد أن يفعله ، فالمعلوم هنا متوقف على العلم به محتاج إليه .

والثاني العلم الخبري النظري ، وهو ما كان المعلوم غير مفتقر في وجوده إلى العلم به ، كعلمنا بوحدانية الله تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، وصدق رسله ، وبملائكته وكتبه ، وغير ذلك فإن هذه المعلومات ثابتة ، سواء علمناها أم لم نعلمها ، فهي مستغنية عن علمنا بها ، والشرع مع العقل هو من هذا الباب ، فإن الشرع المنزَّل من عند الله ثابت في نفسه ، سواء علمناه بعقولنا أم لم نعلمه ، فهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا ، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا ، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به ، وانتفع

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١ : ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) المرجع نفسه .

بعلمه به ، وأعطاه ذلك صفة لم تكن قبل ذلك ، ولو لم يعلمه لكان جاهلاً ناقصاً) ، وفرق على كل حال بين أن نعني بالعقل الملكة التي فينا والتي هي وسيلة لإدراك الأشياء ، وبين العلوم التي نستفيدها بتلك الملكة ، والمعارف العقلية أكثر من أن تحصر ، والمسائل الدينية إنما تصل إلى الإنسان عن طريق النقل والميراث ، فالحسن ما حسنه الشرع لا ما حسنه العقل ، والقبيح ما قبّحه الشرع لا ما قبحه العقل . ومن هنا نستطيع أن نطمئن إلى أن النضج العقلي لا يستدعي بالتالي التطور الديني والإصابة فيه والتوسع في قضاياه سواء في المجال النظري أم على الصعيد العملي ، فقد يحقق العقل في أمة انتصارات علمية ويصل إلى اكتشافات مذهلة ثم هي تكون منهارة روحياً ودينياً ، وكل ما في الأمر أن العقل حينئذ يفقد حارسه فلا نضمن سيره في طريق الخير ، والعلم يفقد كوابحه فلا نأمن بوائقه ، وهو الذي يحصل دائماً للبشرية حين تسيطر عليها الماديات وتمسك بنواصيها ، ومن هنا يمكننا أن نقبل كل ما أوردناه عن حياة اليثربيين الثقافية والدينية دون تردد ، وهم بلا شك في ذلك كغيرهم من كثير من الشعوب ، ولكن الذي نجزم به أن الأديان السماوية على اختلافها سمت بالتفكير الإنساني على مر العصور إلى مدارج الكمال واستنقذ الله بها البشرية من حنادس جهلها وضلالها ، وقفز بالعقل أشواطاً إلى مختلف ميادين المعارف والعلوم وكذلك كان الإسلام ، حيث حرر العقول العربية من قيود وثنياتها ، وأنار أمامها الطريق إلى عالم المعرفة غير المحدود ، وفتق عبقرياتها ، وشحذ مكامن الخلق والإبداع فيها ، فأنتجت واكتشفت وابتدعت أيما ابتداع .

ومع هذه الصورة الوثنية لعبادة الأوس والخزرج فقد كان منهم من أحسَّ ببطلان هذه العبادة وحاول الخروج عليها تماماً كما فعل الحنفاء في مكة قبل بعثة محمد ﷺ ، وهذا يدل على رفض بعض العقول اليثربية للحياة الوثنية ، وإن تفكيرها هداها إلى تفاهة الأوثان والوثنيين ، على الرغم مما في العقل البشري في

هذا الشأن من عجز أصيل .

ولبعضهم أن يُربط بين هذه الظاهرة عند الحنفاء وبين النضج العقلي الذي بلغه اليثربيون ، ويعدُّها نوعاً من التطور الديني المتوازي مع مستوى الحياة الثقافية الذي بلغوه والذي سبق أن تحدثنا عنه .

ولا ضير في ذلك إذا كان هذا يريحهم ويفضي بهم إلى برد اليقين والثقة بالحقائق التي أثبتناها من خلال دراستنا لأحوالهم الثقافية والدينية ، فلا غضاضة في اختلاف الوسائل إن اتحدت الغايات والنتائج .

وقد أطال الأستاذ بول في الحديث عن معنى كلمة « حنيف » ولكن أقربها إلى الصواب[1] قوله : (إن بعض أشعار القرن الأول الهجري تدل على أن الحنيف يمتاز من النصراني والحَبْر اليهودي) ، ومن ذلك الشعر :

وصهباءَ جرجانيةٍ لم يطفْ بها حنيفٌ ولم تنغز بها ساعةً قِدْر
ولم يشهدِ القَسُّ المُهَيْنِم نارَها طُروقاً ولا صلَّى على طبْخها حَبْر

وهذا يتفق مع قوله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ﴾[2] ولقائل أن يقول : لعل الشاعر ما دام إسلامياً ـ أراد بكلمة « حنيف » : مسلماً . ولكن من المعلوم أن المسلم لا يشرب الخمر ولا يقربها مما يبعد هذا الاحتمال .

ومن هؤلاء الحنفاء اليثربيين أبو قيس بن صرمة[3] بن أبي أنس : قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن النجار من الخزرج ، فقد عرف عنه أنه ترهب ولبس

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة « حنيف » .
(٢) آل عمران : ٦٧ .
(٣) الاستبصار ص ٤٥ والأغاني ٢ : ٢٩ وبلوغ الأرب ٢ : ٢٦٦ .

المسوح ، وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة ، واعتزل الحيض من النساء ، وهمَّ بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخل عليه فيه طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب إبراهيم ، على دين إبراهيم ، وكان يعظم الله ، ويقول الحق ، وله أشعار حسان عبَّر فيها عن اتجاهه الجديد ، منها قوله مخاطباً بنيه وقومه :

سبِّحوا الله شرْقَ كلِّ صباح	طلعتْ شمسُه وكلِّ هلال
عالِم السِّرِّ والبيان لدينا	ليس ما قال ربُّنا بضلال
وله هوَّدت يهودُ ودانوا	كلَّ دين مخافةً من عُضالِ
وله الراهبُ الحبيسُ تراه	رهْنَ يوم ، وكان ناعمَ بال
وله الطير تستريد وتأوي	في وكور من آمنات الجبال[1]
يا بنِيَّ الأرحام لا تقطعوها	وصِلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله في ضعاف اليتامى	إن مال اليتيم يرعاه والِ[2]
واعلموا أن لليتيم وليّاً	عالماً يهتدى بغير السؤال
يا بني « الأيامَ » لا تأمنوها	واحذروا مَكْرَهَا ومَرَّ الليالي
واجمعوا أمْرَكُم على البرِّ والتَّقْـ	ـوى وتَرْكِ الخنا وأخذ الحلال

ولما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم وحسن إسلامه .

ورجل آخر من بني عمرو بن عوف ، من الأوس ، وهو الشاعر سويد[3] بن صامت كان من كبار أشراف يثرب حتى كان قومه يلقبونه بالكامل ، قدم إلى

---

(١) تستريد : تذهب رائدة ، أي تغدو وتروح .

(٢) وال : يقصد بالوالي : الله .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٤٢٦ والطبري ٢ : ٣٥٢ وحياة محمد ص ٢٠١ . والفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ ، للحافظ ابن كثير ـ تحقيق : محمد العيد الخطراوي ومحي الدين مستو ص (٩٥) الطبعة الأولى ١٣٩٩ ـ ١٤٠٠ هـ .

مكة حاجّاً ، فتصدى له محمد ﷺ ودعاه إلى الإسلام ، فقال سويد : لعل الذي معك مثل الذي معي ، قال ﷺ : وما الذي معك ؟ قال : حكمة لقمان . فطلب منه الرسول ﷺ أن يعرضها عليه فعرضها ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل ، هو قرآن أنزله الله عليّ هدى ونوراً ، وتلا عليه القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فطاب سويد نفساً بما سمعْ ، وقال : هذا حسن . وانصرف يفكر فيه ، وإن قوماً ليقولون حين قتله الخزرج يوم بعاث : إنه مات مسلماً .

ومن شعره :

ألا رُبَّ من تدعو صديقاً ولو ترى ... مقالتَه بالغيب ساءك ما يفري

مقالتُه كالشَّهد ما كان شاهداً ... وبالغيب مأثورٌ على ثُغرة النَّحْرِ[1]

يسرُّك باديه وتحت أديمه ... نميمةُ غشٍّ تَبْتري عَقَبَ الظَّهْرِ[2]

تُبين لك العينان ما هو كاتمٌ ... من الغلِّ والبغضاء بالنظر الشَّزْرِ

فرِشْني بخيرٍ طالما قد بَرَيْتَني ... فخيرُ العوالي من يَرِيْشُ ولا يَبْري

وهو الذي يقول وقد نافر رجلاً سُلَمياً من بني زِغْب بن مالك في مائة ناقةٍ إلى كاهنة من كهان العرب فقضت له ، فانصرف عنها هو والسُّلَمي ، وليس معهما غيرُها . فلما فرقت بينهما الطريق ، قال : مالي . . يا أخا بني سليم . . قال السُّلَمي : أبعث إليك به . فأحسَّ سويد أنه يحتال عليه ، فقال له : فمن لي بذلك إذا فُتّني به ؟ قال : أنا . . . قال سويد : كلاً . . والذي نفس سويد بيده ، لا تفارقني حتى أوتَى بمالي . فاعتلقا ، فضرب به الأرض ، ثم أوثقه رباطاً ، ثم انطلق به إلى دار قومه بني عمرو بن عوف بقباء ، فلم يزل عنده حتى بعثت إليه بنو سُلَيم بالذي له ، فقال في ذلك :

---

(١) المأثور : السيف ، وجمعه مآثير ، قال أبو تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي :

وقد كانت البيض المآثير في الوغى ... بواتر ، فهي اليوم من بعده بُتْر

(٢) تبتري : تقطع وتستأصل . وعقب الظهر : عصبه .

فلا تحسبنّي يـا ابْن زِغب بن مـالـك كمن كنت تُرْدي بـالغيـوب وتَخْتِـلُ
تحـوّلتَ قِرنـــاً إذ صُرِعتَ بعـــزةٍ كـــذلـــك إن الحـــازم المتحـوِّل
ضربتُ بـــه إبْـــط الشمالِ فلم يَـزَلْ على كلّ حـــالٍ حـــدُّه هـو أسفـلُ

وقال ابن سعـد[1] : (ومن هؤلاء الحنفـاء أبو الهيثم بن التَّيْهـان ، وأسعـد بن زرارَة الخزرجي ، وأبو قيس بن صرمة بن أبي أنس الخزرجي ، وأبو عامر عبدُ بن صيفي الأوسي الملقب بالراهب) .

وهكـذا كان الأوس والخـزرج وثنيين في بعضهم تطلـع للـوحيـد ، تعتمـل في داخلهم هواجس الرفض لمعبودات الجاهليـة حتى جـاء الإسلام فسعـد بهم وسعـدوا به ، وكان أشد ما يؤلمهم أن يعيرهم جيرانهم اليهود في يثرب بالأمية والجهالة ، وهم يعنون بـذلـك أنهم قوم ليسـوا على صلـة بـالله ولم ينزل عليهم كتـاب ، ولم يحظـوا برسالة نبي كما حظي بذلك النصارى واليهود ، ولما بدت بشـائر ظهور النبي العربي وتوالت إرهاصات بعثته ، وهي علامـات يعرفهـا اليهود عنـدهم في التوراة ، كانوا يهددونهم بالظفر به دونهم ليذلوهم من خلال مناصرتهم لـه وانحيـازهم معـه ، وكان هذا أخشى مـا يخشـاه الأوس والخزرج ؛ لتطلعـاتهم الـدينيـة المكبوتـة ، ولكونهم كانوا يخافون عودة الشوكة والقوة لليهود بعد أن كسروهـا وخضّدوهـا في معركـة الجُرْف ، وقدر الله ألا تقرّ عين اليهود : (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنـة الله على الكافرين ﴾[2] ، وكان الشرف للأنصار . فماذا عن اليهودية في يثرب ؟ بل في الجزيرة العربية كلها ؟ وقبلهـا مـا شـأن النصرانيـة أيضـاً في يثرب وعنـد العرب جميعاً ؟ .

أما النصرانية فلم يكن في يثرب منها شيء ، ولم يعرف أن أحداً من اليثربيين

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٣ قسم ثان ص ٢٢ ، ١٣٩ .
(٢) البقرة : ٨٩ .

تنصر ، إلا ما كان من أبي عامر الراهب[1] الذي تنصر في صدر الإسلام حيث خرج من يثرب بعد هجرة الرسول ﷺ واتجه إلى مكة يحرض مشركي قريش على قتال المسلمين ، وكان ضمن جندهم في معركة أحد ، ولما انتهت المعركة لم يعد مع قريش إلى مكة وإنما ذهب إلى الشام والتحق بالنصارى وأعلن تنصره ، ثم ظل يعمل ضد المسلمين بوساطة بعض المنافقين في يثرب وشجعهم على بناء مسجد الضِّرار الذي أمر الرسول ﷺ بهدمه وحرقه غب مرجعه من غزوة تبوك بأمر من الله : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المومنين وإرصاداً لمن حارب اللهَ ورسوله من قبلُ ، وليحلفُنّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً ، لَمسجدٌ أسِّس على التقوى من أول يوم أحقُّ أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهّروا والله يحب المطّهرين ﴾ . . . الآيات[2] . أما خارج يثرب فقد انتشرت المسيحية في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال وفي بلاد اليمن في الجنوب ، وكان ذلك نتيجة احتكاك العرب بالبيزنطيين والأحباش في حدود القرن الرابع الميلادي ، وقد عرف العرب[3] من النصرانية فرقتين ، فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام . وكان أهم مواطن النصرانية في بلاد العرب نجران ، وبنى فيها بنو عبد المَدَان بن الدَّيَّان الحارثي كنيسة كبيرة لعبادتهم على نسق بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة لها ، وسمّوها كعبة نجران ، وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب ، ويعظون ويبشرون ، كما فعل قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ . وهي مدينة خصبة التربة تعد من البيئات الزراعية التي لا تختلف كثيراً في تلك العصور عن بيئة يثرب ، كما كان أهلها يجيدون المنسوجات الحريرية ويتجرون في الجلود والأسلحة ، ولا يستبعد أن تكون من المناطق التي كان اليثربيون

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٨ .
(٢) التوبة : ١٠٨ .
(٣) تاريخ الإسلام السياسي والديني ١ : ٧٣ .

يستوردون منها الجلود والملابس الحريرية . فقد كان لبس الحرير من الأشياء الشائعة في يثرب ، إلى أن حرَّم الإسلام لبسه على الرجال إلا لضرورة قاهرة ، كما هو الحال في عبد الرحمن بن عوف ، الذي رخَّص له رسول الله ﷺ في لبسه لحكة دائمة في جسمه ، وقد اقترن اسم نجران النصرانية بقصة أصحاب الأخدود ، حيث تعرَّض نصارى نجران إلى التقتيل والمطاردة والحرق الجماعي على يد اليهودية التي كان أول من دان بها في بلاد اليمن يوسف ذو نواس ، بتأثير من حبريين يهوديين كانا أتيا لليمن مع تبّع الحميري من يثرب التي كانت مركزاً رئيسياً لليهودية في العصر الجاهلي . فالنصرانية إذن لم تكن مجهولة عند اليثربيين وإن لم يوجد من بينهم من اعتنقها .

وقد سبق لنا أن علَّلنا لوجود اليهود في يثرب ، وذلك أثناء حديثنا عن الحياة الاجتماعية فيها ، وذكرنا أن بعض المؤرخين يرى أن أكثرهم كان من العرب المتهودين وقليلاً منهم كانوا من بني إسرائيل ، وإن آخرين كياقوت الحموي ونولدكة يحكم بعروبتهم جميعاً ، ثم يقول نولدكة بعد ذلك : إنهم[1] لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية في التوحيد ، ولكننا رجحنا أن العنصر الأساسي منهم كان من بني إسرائيل الطارئين على يثرب والمهاجرين إليها من الشمال لأسباب مختلفة وفي أوقات مختلفة ، وتعرضنا لعلاقتهم بالأوس والخزرج اجتماعياً وسياسياً وثقافياً بما نحسب أن فيه الكفاية ، والقرآن على كل حال كان يخاطبهم في الغالب بقوله : يا معشر يهود ، وقد يكون خطاب القرآن لهم على هذه الشاكلة قائم على اعتبار أن أول من دان باليهودية إنما هم بنو إسرائيل ، فاليهودية على هذا الأساس مرتبطة بهم وهم خميرتها ، وذلك كارتباط الإسلام بالعرب فهم أساسه وخميرته ،وقد دان من العرب في يثرب باليهودية من دان بها عن رغبة منهم أو بتأثير المصاهرة والزواج ، كما كان بعض من لا يعيش له ولد من العرب ينذر إذا

(١) المرجع السابق .

ولـد لـه ابن وعــاش أن يهـوّده ، فعن ابن عبــاس[1] قــال : (كانت المرأة تكـون مقلاة ، فتجعل على نفسهـا إن عـاش لهـا ولـد أن تهوّده ، فلمـا أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبنـاء الأنصـار ، فقـالـوا : لا نـدع أبنـاءنـا ، فـأنـزل الله تعـالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ .

ولم تكن يثرب وحدها التي انتشرت فيها اليهوديـة ، بل كانت أيضـاً منتشرة في تيماء ، وفـدك وخيبر ووادي القرى والحِجْر ، وكل هـذه المنـاطق تمثل واحـات زراعية واقعة شمالي المدينة ، وتهوَّد أيضاً بعض بني ثعلبـة[2] من ذبيـان ، وانتشرت في اليمن أيضاً كما قلنا قبل قليل على يد حبرين من أحبار يثرب ، وقد نشر هؤلاء اليهود في البلاد التي نزلوهـا في الجـزيرة العربيـة تعـاليم التـوراة من بعث وثـواب وعقـاب ، كما نشروا معهـا تفـاسير من فسروهـا ومـا أحـاط بهـا من أسـاطير وخرافـات ، وكان لـذلـك أثره في الوثنيـة اليثربيـة حتى أصبح أهـل يثرب أسرع العرب إلى قبول الإسلام ، وكلمة التوراة كثيراً ما تستعمل للدلالة على كل الكتب المقدسة عند اليهود ، فتشمل الزبور وغيره ، كما يستعملها اليهود أنفسهم أحياناً .

وكان لليهود بجـانب ذلـك سنن ونصـائح وشروح ، لم تنقل عن مـوسى عليـه السلام كتابة ، وإنما تُدووِلَ نقلها شفاهاً ، ونمت على تعـاقب الأجيـال ، ثم دونت بعد ، وهذا هو المسمى بـالتلمود ، والتلمود مختلف فيـه فيما بينهم ، فمنهم من يقبلـه وهم طائفـة الربـانيين ، ومنهم من لا يقبلـه وهم طـائفـة القرّائين . فـأمـا التوراة بالمعنى الدقيق فخمسة أسفار :

السفر الأول : سفر التكوين أو الخلق ، وقـد ذكر فيـه خلق العـالم ، وقصـة

---

(١) سنن أبي داود كتاب الجهاد (بـاب في الأسير يكره على الإسلام) وقـال أبو داود المقلاة : التي لا يعيش لها ولد .

(٢) ديوان حسان ص ١١٠ .

آدم وحواء وأولادهما ، ونوح والطوفان وتبلبل الألسن ، ثم قصة إبراهيم عليه السلام وابنه إسحاق وابنيه يعقوب وعيصو ، ثم قصة يوسف .

والسفر الثاني : يسمى الخروج ـ أي خروج اليهود من مصر ـ وفيه قصة موسى من ولادته وبعثته ، وفرعون وخروج بني إسرائيل من مصر ، وصعود موسى الجبل وإيتاء الله له الألواح .

والسفر الثالث : سفر اللاوِيّين ـ أي الأحبار ـ وفيه حكم القربان والطهارة وما يجوز أكله ، وغير ذلك من الفرائض والحدود .

والسفر الرابع : سفر العدد ، بعضه في الشرائع ، وبعضه في أخبار موسى وبني إسرائيل في التيه وقصة البقرة .

والسفر الخامس : سفر التثنية ـ أي إعادة التلموس ـ[1]

وإنما نقلنا هذه الفقرة من ضحى الإسلام لنتصور مدى ما يمكن أن يكون تأثير محتويات التوراة في اليثربيين ثقافياً ودينياً لو أنها كانت في متناولهم أو كانوا يستطيعون الوصول إليها ، ولكن اليهود كانوا يتدارسونها بالعبرية إلا ما كانوا يضطرون إليه اضطراراً ، وقد أورثت المحافظة على العبرية أحبارهم شيئاً من رطانة في العربية وعدم القدرة على مخارج بعض حروفها بطريقة متميزة ، يعرفها منهم الناس بمجرد نطقهم والتحدث معهم .

وكان اليهود ينعتون أنفسهم بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع ، ويفاخرون الأوس والخزرج بذلك ويعيرونهم بكونهم ليسوا بأهل كتاب . وكانت لهم بيوت يتدارسون فيها أمور دينهم وأحكام شريعتهم وتواريخهم ، ويقيمون فيها

---

(١) ضحى الإسلام ١ : ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ومن أراد التوسع فلينظره فيه .

عباداتهم ، ويسمونها المدْراس ، ومنها مدارس القُفّ ، يقول حسان[١] :

كم للمنــــازل من شَهْرٍ وأحـــوالِ كما تقــادَمَ عهــدُ المُهْرَقِ البــالي[٢]
بـالمستـوى دونَ نَعْفِ القُفِّ من قَطَنٍ فالـدافِعـاتِ أولاتِ الطَّلْحِ والضـال[٣]

ومـدراس مـاسكـة ، وكانت لهم أعيـادهم الـدينيـة الخـاصـة وأيـام خـاصـة يصومونها ، كيوم عاشوراء الذي قدم الرسول ﷺ المدينة وهم يصومونه .

وعلى كل حال فقد كانت لدى اليهود في يثرب ثقافـة[٤] خـاصـة بهم ، بعضهـا صحيح علمياً وبعضها غير صحيح ، بعضها أخذ عن أهل العلم بالكتاب ، وبعضهـا أخـذ عن عوام اليهود ، وقـد كان لـلاحتكاك الـدائم بين اليهـود والأوس والخـزرج تأثير متبادل ، فبينما كان اليهود يتكلمون اللغة العربيـة ويتطبعون اجتماعيـاً بكل العـادات العربيـة ويخضعون لسلطـانهـا ، وينظمون الأشعـار أيضـاً بـالعربيـة ، ويلبسون الزي العربي ، ويعقدون الصلات داخل يثرب وخـارجهـا حتى لا يكاد يشك أحد في عروبتهم ، نجد في الجهة الأخرى الأوس والخزرج يتـأثرون بمـا كانوا يسمعون من اليهود عن الديانات السماوية ، وتأخـذ أحـاديثهم طريقهـا إلى بعض الزوايا الفكرية والعقلية فيهم ، وتتفاعل معها سلباً وإيجاباً ، مما جعلهم بالإضافة إلى ظروف أخرى أسرع العرب ـ كما قلنـا ـ إلى التصـديق برسـالـة محمـد ﷺ حين دعاهم إلى الإسلام ، وهي ثقافة روحية عاليـة لهـا دلالات كثيرة في تحليل نفسيـة الأوس والخزرج ، لا يمكن إغفالها في أي بحث له صلـة بهم في تلـك الفترة ، وهنـا

---

(١) ديوان حسان ص ١٨٩ .
(٢) المهرق : الصحيفة .
(٣) النعف : مـا انحدر من غلـظ الجبل وارتفع من مجرى السيـل . والقف : مـاارتفـع من الأرض وغلظ ولم يبلغ أن يكون جبلاً . وقطن : جبل بالعالية . والدافعات : مسـايل المـاء. والطلح والضال : ضربان من الشجر .
(٤) ضحى الإسلام ص ٣٣٨ .

يلح على الذهن سؤال فيه كثير من الوجاهة ، وهو لم لم يتهوَّد الأوس والخزرج ؟

ويرد الدكتور محمد حسين هيكل ذلك لسببين[1] :

آ ـ إن ما كان بين اليهودية والنصرانية من حرب ، جعل اليهود في يثرب لا يطمعون في أكثر من السلامة التي تهيء لهم الثروة والمال وازدهار التجارة .

ب ـ إن اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار ، ولا يرضون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانة ، وهم لذلك لا يدعون لدينهم ولا يرضونه يخرج منهم .

وفي رأيي أن السبب الأول قد يكون معقولاً إلى حد كبير ، وبخاصة إذا قبلنا أن وصولهم إلى يثرب كان هروباً بدينهم وأنفسهم من مطاردة النصارى الروم في الشام ، وفسرنا حضور أبي جبيلة الغساني إلى يثرب أيضاً على أساس هذا العداء ، فمن الخير لهم في هذه الحالة أن لا يقوموا بأية حركة تبشيرية أو دعوة إلى التهود .

أما بالنسبة للسبب الثاني الذي ذكره هيكل فإنني لا أطمئن إليه كثيراً ، ذلك أن موسى نفسه عليه السلام الذي جاء باليهودية دعا المصريين وفرعون بالذات إلى الدخول في دينه ، وبكثير من الإصرار الذي يدل عليه هذا الجدل الطويل والحجاج المكين الذي أورده القرآن الكريم ، وآمن به سحرة فرعون وهم من المصريين وقبِل ايمانهم ولم يرده عليهم . كما أن اليهودية انتشرت في بعض القبائل العربية كما كان الحال في اليمن ونجران بوساطة أحبار من يثرب ، بل إن ذا نواس حمل عليها الناس حملاً ، وما قصة أصحاب الأخدود بغائبة عن الأذهان ، وكانت اليهودية أيضاً في بني كنانة وكندة وبني الحارث وبني كعب وبني ثعلبة من ذبيان وبعض من بلي كبني أنيف ، ومن الجائز أن يكون موقفهم هذا ، الذي أشار إليه الدكتور هيكل نشأ بعد ظهور المسيحية ، وبخاصة بعد تحوير أحبارهم في

---

(١) حياة محمد ص ٢٠٠ .

التوراة قبل ظهور الإسلام ، ومحاولة تركيزهم على أن اليهودية جنس لا دين ، ويبدو أن هيكل تابع في رأيه هذا رأي ذلك الإسرائيلي المتعصب إسرائيل ولفنسون حين يقول : (لا شك أنه كان في القدرة اليهودية أن تزيد في بسط نفوذها الديني بين العرب ، حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ، ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الإسرائيلية لم تمل بوجه عام إلى إرغام الأمم على اعتناق دينها ، وإن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود)[1] ، ومع كل هذا فقد يكون هناك سبب آخر منع الأوس والخزرج من التهود ، غير ما ذكر هيكل ، وهو هذا العداء الذي استحكمت حلقاته بينهم وبين اليهود في يثرب ، وهذا الجشع والدسائس المستمرة التي كانوا يلقونها منهم ، وقبل هذا أو ذاك لمشيئة علوية أرادها الله ، هي تهيئتهم لتحمل الأمانة العظمى في استقبال دين الإسلام .

وبعد : فهذا هو المجتمع اليثربي في العصر الجاهلي ، مجتمع متميز له شخصيته المستقلة ومعالمه المحددة ، التي تختلف عن طبيعة المجتمع الرعوي الهائج المائج ، وتغير سحنة المجتمع التجاري المكي ، ذي الطابع الموحد المستقر ، إنه مجتمع التقت فيه ديانات وثقافات وتضاربت فيه أهداف وعناصر وغايات ، فأضفى عليه كل ذلك شيئاً من التعقيد والحركة والديناميكية الدائمة والتفاعل المستمر ، سمات تؤتي في بعض الظروف التاريخية نتائج سلبية تفضي إلى التفكك والتدهور والتأخر والاضمحلال ، وقد تنجح في ظروف تاريخية أفضل في إعطاء نتائج إيجابية تبدع الحياة وتقدم الخير والنماء ، ولا نشك أن ما عرضناه من جوانب الحياة المختلفة للحياة اليثربية في العصر الجاهلي اجتماعياً وسياسياً وثقافياً ودينياً في مكنته أن يساعدنا على تصور تلك الحياة ـ رغم قلة المصادر ـ في شكلها القريب من الحقيقة

---

(١) اليهود في بلاد العرب لإسرائيل ولفنسون ص ٧٢ .

والواقع ، ومن ثم فإن التعقيد والتباين الذي أشرنا إليه ، خلَّف في المجتمع اليثربي كل نتائجه السلبية والإيجابية ، فكان يعيشها متضاربة مضطرمة بداخله ويضيق بها وتضيق به إلى أن قيَّض الله الخلاص له بالإسلام وطلع عليه البدر من ثنيّة الوداع .

☆ ☆ ☆

فهرس الموضوعات

☆ ☆ ☆

